

مؤلّف الرائعة العالميّة «الخيميائي»

ألِف



رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر


ألف

باولو كويلو



ترجمة: رنا الصيفي

تدقيق لغوي: وفيق زيتون



نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: O Aleph
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة، أسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
موقع باولو كويلو على الإنترنت: http://www.paulocoelho.com
Blog باولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١١
ISBN: 978-9953-88-613-8

تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي
صورة الغلاف: Copyright © 2011 Lara Zankoul

مقدمة الكاتب لسلسلة
رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام يُحتضَر، وسوف ندعوه هنا حسن، عندما سأله تلميذ من تلامذته:

«من كان معلّمك أيها المعلّم؟».

أجاب: «بل قل المئات من المعلّمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عدة، وربما سنوات، وينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

«لكن، ألم يكن لبعضهم تأثير فيك أكبر من تأثير الآخرين؟».

استغرق حسن في التفكير دقيقةً كاملةً، ثم قال:

«ثلاثة، في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية:

«أوّلهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكّن من الوصول إلى البيت إلاّ في ساعة متأخّرة جداً من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت مساعدته، ففتح لي قِفل الباب بلمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلمني كيف فعل ذلك، فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلةٍ، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثِرْ من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، عمّا إذا كان قد غنم شيئاً. فكان جوابه على الدوام، واحداً لا يتغيّر: «لم أوفَّق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنّني، إن شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، خلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمّل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقّق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: «لم أوفّق بشيء هذا المساء، لكنّني، إن شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد. كان ذلك يمنحني القوةَ على المتابعة».

«ومن كان المعلِّم الثاني؟».

«كان كلباً، فقد حدث أن كنتُ متوجّهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عَطِشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافّة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غيرَ انعكاسٍ لصورته في الماء.

«دبّ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما في

وسعه ليُبعد الكلبَ الآخر، لكنّ شيئا من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقّفَ حسن قليلاً، ثم تابع:

«أخيراً كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير في اتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: لو أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يُقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح، اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مُطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تُشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبياً. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظاتٍ مُعيّنة، لكنّه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين أُسِرّ بمشاعري وأفكاري إلى كل ما يحيط بي: إلى السُّحُب والأشجار والأنهار والغابات، إلى الرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنتُ تلميذَ الحياة، وما زلتُ تلميذها. لقد استقيتُ المعرفةَ وتعلّمت من أشياء أكثر

بساطة، من أشياء غير متوقعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تُبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، أن إحدى أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلّق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تُبيِّنْ لي اموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرُمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مُخيّلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماسةٍ لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية من خلال ترجمتها ترجمةً اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله منّي، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجّه بالشكر إلى الوكيلة – المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماستها، هذا الحلم ممكناً، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

يا مريم البريئةُ من الخطيئةِ الأصليّة، صلّي لأجلنا

نحن الذين نلتجىء إليكِ.آمين.

«ذَهَبَ إِنْسانٌ نَبيلٌ إلى بَلَدٍ بَعيدٍ ليَتَسلَّمَ لَهُ مُلكًا ثُـمَّ يَعُود».

إنجيل لوقا ١٩: ١٢

إلى ج. الذي يُبقيني على الدرب،

س.ج. الذي لا يزال يحميني،

هلال، على كلمات المغفرة التي تفوّهت بها في الكنيسة في نوفوسيبيرسك.

كان قطر الألِف نحو سنتيمترين إلى ثلاثة سنتيمترات، غير أنّه حوى الفضاء الكونيّ كلّه بلا نقصان في الحجم. كلُّ شيء كان لامتناهيًا، فقد استطعتُ أن أراه بوضوح من كل نقطة في الكون.

خورخيه لويس بورخيس، الألِف

أنتَ تعرفُ كلَّ شيء - لا أفهم.
أثقُ بأنني لن أحيا سدًى،
أعرف أننا سنلتقي من جديد،
في أبديةٍ إلهيةٍ ما.

أوسكار وايلد، The True Knowledge

مَلِكُ مملكتي

بالله لا، طقسٌ آخر!؟ استحضارٌ آخر لجعل القوى اللامرئية تتجلّى في العالم المرئي!؟ ما دخل هذا كلّه بعالم اليوم الذي نعيش فيه؟ يتخرّج الخرّيجون في الجامعة ولا يسعهم إيجاد عمل. يصل كبار السن إلى التقاعد، ولا يملكون إلا النذر القليل ليعتاشوا عليه. يفتقر الراشدون إلى الوقت ليحلموا، يجاهدون من التاسعة صباحاً إلى الخامسة مساءً لإعالة أُسرهم وتسديد أقساط تعليم أولادهم، مصطدمين على الدوام بما نعرفه جميعًا بـ«الواقع المرّ».

لَمْ يسبق للعالم أن كان على انقسامه هذا يومًا، ما بال الحروب الدينية، والإبادات، والازدراء بالكوكب، والأزمات الاقتصادية، والكساد، والفقر؟ ما بال رغبة الجميع في حلولٍ آنية أقلّه لبعضٍ من مشكلات العالم أو مشكلاتهم؟ ولا تزال الأمور سوداوية فيما نمضي إلى المستقبل.

ما الذي أفعله هنا، محاولاً أن أشقّ طريقي في تقليد روحاني باتت جذوره في الماضي السحيق، بعيدًا عن كلّ تحدّيات اللحظة الحاضرة؟

* * * *

إلى جانب ج.، الذي أدعوه معلّمي- مع أنّ الشكوك بدأت تساورني

حيال ذلك- أمشي ناحية شجرة السنديان المقدّسة، التي تقبع ههنا، منذ أكثر من خمسمئة سنة، تتأمّل بتجرُّدٍ مآسي الإنسانية، همّها الأوحد أن تُسقِط أوراقها شتاءً وتستعيدها ربيعًا.

لا أُطيق الكتابة أكثر عن علاقتي مع ج.، مُرشدي في التقليد. أملك الكثير من اليوميات المليئة بملاحظاتٍ حول أحاديثنا، والتي لا أكلّف نفسي عناء قراءتها ثانية. منذ لقائنا الأوّل في أمستردام، عام ١٩٨٢، تعلّمتُ ونسيتُ كيف أعيش مئات المرّات. كلّما علّمني ج. أمرًا جديدًا، أظنّ أنه الخطوة الأخيرة اللازمة لبلوغ قمّة الجبل، النوتة التي تبرّر معزوفة برمّتها، الكلمة التي تختصر كتابًا كاملاً. أمرّ بفترة من السعادة الغامرة التي تتبدّد تدريجًا. بعض الأمور تبقى أبدًا، لكن معظم التمرينات والممارسات والتعاليم تؤول إلى الزوال في عمق حفرة سوداء. أو تبدو كذلك.

* * * *

الأرض مبتلّة. يخطر لي أنّ حذائي الرياضي، الذي غسلته بعناية منذ يومين، لن يلبث أن يتوحّل ثانيةً مهما مشيتُ بروية. سعيي إلى الحكمة، وإلى راحة البال وإدراك الواقعين المرئي واللامرئي، أمسى عملية رتيبة لا هادفة. تعلّمت السحر عندما أصبح عمري اثنتين وعشرين سنة. تبِعتُ دروبًا مختلفة، سِرتُ على حافة الهاوية لسنوات عديدة، انزلقتُ وسقطت، استسلمتُ ثمّ استأنفت كل شيء. خُيّل إليّ، مع بلوغي تسعاً وخمسين

سنة، أنني سأقرُب من الجنّة والسلام المطلق الذي خِلتُ أنـيّ قادر على رؤيته في عيون الرهبان البوذيين.

في الواقع، أبدو وكأنني أبعد من تحقيق ذلك أكثر من أي وقت مضى. لستُ في سلام، أحيانًا، أدخلُ فتراتِ من الصراع الداخلي يدوم أشهراً، وعندما أستغرق في واقعِ سحري، يدوم ذلك للحظات، وإلى حدّ يكفي لأعرف أنّ عالـمًا آخر يكون، إلى حدّ يكفي لأُصاب بالإحباط فأنا أعجز من أن أستوعب كلّ ما أتعلّم.

نَصِلُ.

عندما ينتهي الطقس، سأتـحدّث إليه جديًا. يضع كلّ منا يديه على جذع شجرة السنديان المقدّسة.

* * * *

يتلو ج. صلاةً صوفية:

«الله، عندما أصغي إلى أصوات الحيوانات، وحفيف الشجر، وتـمتمات المياه، وإنشاد العصافير، وصفير الريح أو هدير الرعد، أرى فيها دليلاً على وحدانيّتك، أشعر أنك القوّة العُليا، كليّة المعرفة، المعرفة النهائية، العدالة القصوى.

«أُدركك، يا الله، في الـمِحَن التي أمرّ بها. ليكنْ سرورك سروري. لأكنْ فرحكَ، فرح أبِ تجاه إبن. لأفكر فيكَ بـهدوءِ وعزم، حتى متى صعُب عليّ قول أحبّكَ».

في العادة، عند هذه المرحلة، قد أشعر- لجزءِ من الثانية فقط،

وحسبي هذا- بالحضور الأوحد الذي يحرّك الشمس والأرض، ويحرص أن تلازم النجوم أمكنتها. لكني لا أرغب في التحدّث إلى الكون اليوم. أريد فقط أن أحصل على الإجابات التي أبغيها من الرجل الذي إلى جانبي.

* * * *

يرفع يده عن جذع الشجرة، وأرفعها أيضًا. يبتسم لي، وأردّ الابتسامة. نشقّ طريقنا، بصمتٍ، بلا استعجال، عائديْن إلى منزلي حيث نجلس على الشرفة ونحتسي القهوة، ولا يزال الصمتُ مخيّمًا.

أنظرُ إلى الشجرة الضخمة وسط حديقتي، وشريط يحوّق جذعها، لففته حوله بعد حلمٍ راودني. أنا في قرية سان مارتان، في جبال البيرينيه الفرنسية، في منزلٍ أندمُ الآن على شرائه، لأنّه امتلكني، مستوجبًا حضوري متى أمكن، لأنه يحتاج إلى من يرعاه، للإبقاء على طاقته نابضة.

أقول، واقعًا كالعادة في شرك استهلال الحديث: «لا يسعني النماء أكثر. أظنّ أنني بلغتُ حدودي».

يقول ج. استفزازًا: «مُضحِك. حاولتُ طول حياتي أن أكتشف حدودي ولم يسعني بلوغها بعد. لكنّ كَوْني لا يُعينني تمامًا، يُواصل توسّعه ولن يتيح لي معرفته كليًا».

إنه يتهكّم، لكني أواصل الكلام.

«لماذا جئتَ إلى هنا اليوم؟ لتحاول إقناعي كالعادة بأنني على خطأ؟ لكَ أن تقول ما تشاء، لكنّ الكلمات لن تغيّر شيئًا. لستُ سعيدًا».

«لهذا بالضبط جئتُ. كنتُ مدركًا لما يحصل منذ فترة، لكنّ اللحظة المناسبة لاتخاذ الفعل موجودة على الدوام، يقولها ج. مُلتقطًا إجاصة عن الطاولة ومقلّبًا إياها بين يديه. «لو أننا قد تكلّمنا من قبل، لَما نَضجتَ. ولو كنّا لنتكلّم لاحقًا، لتعفّنتَ. يغرز أسنانه في الإجاصة، مُستسيغًا مذاقها، «تمام. إنها اللحظة المناسبة».

أقول: «أنا في غمرةٍ من الشك، خصوصًا بإيماني».

«جيد. إنّه الشك ما يدفع بالمرء إلى أمام».

هذه ردوده وصوره المعتادة المناسبة، لكنها لا تُفلح اليوم.

يقول ج.: «سوف أخبرك بما تشعر، تشعر بأنّ لا شيء ممّا تعلّمته أرسى جذورًا، وبأنك، رغم قدرتك على ولوج الكون السحري، تعجز عن البقاء غارقاً فيه، تشعر أنّ هذا كلّه قد يكون مجرّد وهمٍ استوهمه الناس لدرء مخافة الموت عنهم».

أسئلتي أعمق من ذلك، هي شكوكٌ بإيماني. يقيني واحد فقط: ثمّة كونٌ روحاني موازٍ يرتطم بالعالم الذي نحياه. عدا هذا، كلّ أمر آخر يبدو لي بلا منطق- الكتب المقدّسة، التجلّيات، المرشدون، الكُتيّبات، الطقوس...والأسوأ، أن تأثيراتها تبدو إلى زوال.

يُردف ج.: «سوف أخبرك بما شعرتُ به يومًا. عندما كنتُ فتيًا، بهرتني كلّ الأمور التي قدّمتها إليّ الحياة. ظننتُ أنني كنتُ قادرًا

على تحقيقها كلّها. عندما تزوّجتُ، تعيّن عليّ اختيار دربٍ واحدة فقط، كان عليّ أن أُعيل المرأة التي أحب، وأولادي. عندما بلغتُ الخامسة والأربعين وصرتُ إداريًا رفيع المستوى، رأيتُ أولادي يكبرون ويتركون المنزل، وظننتُ أنه مُذّاك فصاعدًا، كل شيء سيكون مجرّد تكرارٍ لكل ما سبق أن اختبرت. وكان حينها أن بدأ سعيي الروحاني. أنا رجلٌ منضبط وأحشد طاقاتي كلّها في هذا السبيل. مررتُ بفترات من الحماس الديني والشك، إلى أن بلغتُ المرحلة التي أنتَ عليها الآن».

أقول له بحَنَقٍ لا يخفى: «انظر يا ج. رغم كلّ جهودي، لا أزال عاجزًا عن القول صراحةً إنني أشعر بأنني أقرب إلى الله وإلى نفسي».

«هذا لأنّك، كسائر الناس على هذا الكوكب، آمنتَ أنّ الوقت كفيل بتعليمك التقرُّب إلى الله. لكنّ الوقت لا يُعلّم، كلّ ما يفعله هو مدّنا بحسٍّ من الإعياء والتقدّم في العمر».

تبدو شجرة السنديان في حديقتي وكأنها تنظر إليّ الآن. لا بُدّ أنّ لها من العمر ما يفوق أربعمئة سنة، والشيء الوحيد الذي تعلّمَتْهُ هو أن تلازم مكانًا واحدًا.

«لماذا ذهبنا وأدّينا ذلك الطقس حول تلك السنديانة؟ كيف يساعدنا ذلك على أن نصبح بشرًا أفضل؟».

«تحديدًا لأنّ معظم الناس كفّوا عن تأدية طقوس حول شجر السنديان، ولأنّه بتأدية طقوسٍ لا منطقيةٍ في ظاهرها، تُلامس

شيئًا أعمق في روحك، في الجزء الأعتق من نَفسك، الجزء الأقرب إلى أصل كل شيء».

صحيح. كنتُ قد طرحتُ سؤالاً سبقت لي معرفة الإجابة عنه وتلقّيتُ الإجابة التي كنتُ أتوقّعها. يُفترض بي أن أستفيد أكثر من رفقته.

ينبرج.: «حان وقت الرحيل».

أنظرُ إلى الساعة. أقولُ له إنّ المطار قريب وإنّ في وسعنا مواصلة الحديث قليلاً.

«لم أعنِ هذا. عندما مررتُ بما تختبره الآن، وجدتُ الإجابة في شيء كان قد حدث قبل أن أولد. هذا ما أقترح عليك فعله الآن».

التجسُّد الروحي؟ لكنه لطالما أثناني عن زيارة حيواتٍ ماضية.

«سبق أن عُدتُ إلى الماضي. تعلّمتُ كيفية فعل ذلك قبل أن أتعرّفك. سبق أن تكلّمنا كيف أنني رأيتُ تجسُّدَين لي، واحدهما ككاتب فرنسي من القرن التاسع عشر، والآخر...».

«نعم، أعرف».

«ارتكبتُ أخطاء حينها لا يسعني تصويبها الآن. وقُلتَ لي ألاّ أعود مجددًا، لأنّ ذلك سيزيد من إحساسي بالذنب. الارتحال إلى حيواتٍ ماضيةٍ أشبه بحفر حفرة في الأرضية وترك ألسنة النار في الشقّة أدناه تحرق الحاضر وتُشعله».

يرمي ج. ما تبقى من الإجاصة إلى العصافير في الحديقة ويرمقني بنظرةٍ غضبى.

«ما لم تكفّ عن قول مثل هذه السخافات، قد أبدأ بالاعتقاد أنك على حق وأنك فعلاً لم تتعلّم شيئًا خلال السنين الأربع والعشرين التي قضيناها سويًا».

أعرف ما يعنيه. في السحر - وفي الحياة- اللحظة الحاضرة فقط تكون، الآن. لا يسعكَ قياس الزمن كما تقيس المسافة بين نقطتين. «الزمن لا يمرّ. نحن البشر نجد صعوبةً هائلةً في التركيز في الحاضر؛ إننا نفكّر دومًا في ما فعلنا، وكيف يمكن لنا فعله أفضل، نفكّر في عواقب أفعالنا، ولِمَ لم نتصرّف كما كان ينبغي. وإلاّ، فإننا نفكّر في المستقبل، في ما سوف نفعله غدًا، في ماهيّة الاحتياطات التي علينا اتخاذها، والمخاطر الوشيكة التي تنتظرنا، كيف لنا أن نجتنب ما لا نريده وكيف نحصل على ما حلمنا به دومًا.

يستأنف ج. الحديث.

«هنا والآن بالضبط، تشرع في التساؤل: هل من خطبٍ فعلاً؟ نعم، ثمّة خطب. لكن في هذه اللحظة بالذات، تدرك أيضًا أنه بمستطاعك تغيير مستقبلك بجلب الماضي إلى الحاضر. الماضي والمستقبل موجودان في ذهننا فقط. أما اللحظة الحاضرة، فهي خارجة عن الزمن، إنها الأبدية. في الهند، يستعملون كلمة «كارما» لافتقار اللسان إلى أي مصطلح أفضل. لكنها تعبّر عن مفهوم يَندُر أن

يُقرَن بتفسيرٍ سويّ. ليست أفعالك في الماضي ما سيؤثّر في الحاضر. إنّ ما تفعله في الحاضر سيفتدي الماضي وبالتالي سيغيّر المستقبل».

«لذا....».

يتوقّف لبرهةٍ عن الكلام، وقد ازداد منسوب غيظه لعجزي عن استيعاب ما يحاول شرحه لي.

«لا هدف من المكوث هنا، واستعمال كلمات لا تعني شيئًا. اذهب وجرّب. آن الأوان لترحل عن هنا. اذهب واستولِ مجددًا على مملكتك التي أفسدتها الرتابة. كُفّ عن تكرار الدرس نفسه، لأنّك لن تتعلّم أي جديدٍ هكذا».

«ليست الرتابة هي المشكلة. لستُ سعيدًا، ببساطة».

«هذا ما عنيتُه بالرتابة. تظنّ أنك موجود لأنك لست سعيدًا. وأن آخرين موجودون وجودًا ناتجاً عن مشكلاتهم، ويقضون وقتهم كلّه بالحديث مُكرهين عن أولادهم، أزواجهم، دراستهم، عملهم، أصدقائهم. هم لا يتوقّفون ليفكّروا: أنا هنا. أنا نتيجة كل ما حدث وما سيحدث، لكن أنا هنا. إذا أخطأتُ، يسعني تصويب خطأي أو أقلّه طلب الغفران. إذا قمتُ بصوابٍ، سيجعلني ذلك أسعد وأكثر اتصالاً بالآن».

يأخذ ج. نفسًا عميقًا، ثمّ يختم:

«لم تعد هنا. عليك الرحيل لكي ترجع إلى الحاضر».

* * * *

حدث ما كنت قد خشيتُهُ. منذ فترة، كان يُخلّف لي تلميحات أنّ الأوان قد آن لأنطلق في الدرب المقدّسة الثالثة. تغيّرت حياتي كثيرًا منذ عام ١٩٨٦ البعيد، عندما وضعني حجّي إلى سانتياغو دي كومبوستيلا وجهًا لوجه أمام قدري، أو أمام «خطة الله. بعد ثلاث سنوات، تبِعتُ الدرب المزعومة إلى روما، في المنطقة حيث كنّا الآن؛ كانت عمليّة أليمة مُملّة دامت سبعين يومًا، استدعتني أن أمثّل، كلّ صباح، كلّ السخافات التي كنت قد حلمت بها الليلة التي سبقت (أذكر وقوفي في موقف حافلات لأربع ساعات كاملة، لم يحدث خلالها ما يسترعي الاهتمام).

مُذّاك، فعلتُ كل ما تطلّب عملي فعله. في النهاية، كان ذلك خياري وبركتي. رُحت أسافر كمجنون. والعِبر الأهم التي تعلّمت، كانت تحديدًا تلك التي علّمتني إياها أسفاري.

الحقيقة هي أنني لطالما سافرت كمجنون، مذ كنت يافعًا. لكن مؤخرًا، أصبحت أقضي حياتي في مطارات وفنادق، وقد تنحّى كلّ حسٍ بالمغامرة أمام موكب الملل العميق. متى تذمّرتُ من ارتحالي المطوّل، كان الناس يرتاعون، ويعلّق أحدهم: «لكنّ السفر رائع. ليتني كنتُ أملك مالاً لفعل ما تفعل!».

ليس السفر رهناً بالمال، بل بالشجاعة. قضيتُ جزءًا كبيرًا من شبابي أجوب العالم كهيبيّ، وكم من المال امتلكتُ حينها؟ ولا فلس. كدتُ لا أملك ما يكفي لتسديد أجرة النقل، ومع ذلك لا

أزال أعتبر تلك الأيام أفضل أيام شبابي: الإفراط في الأكل، والنوم في محطات القطار، والعجز عن التواصل لجهلي اللغة، والاعتماد على الغير مُكْرَهاً، لمجرّد إيجاد مكان أقضي فيه ليلتي.

بعد أسابيع وأنت تتجوّل وتصغي إلى لغةٍ لا تفهمها، وتتداول عملةً لا تفقه قيمتها، وتجوب شوارع لم تجبها من قبل، تكتشف أنّ «الأنا» القديمة فيك، إلى جانب كل شيء تعلّمته، لا جدوى منها مطلقًا أمام تلك التحديات الجديدة، وتبدأ بالإدراك، من موقع دفين في عقلك الباطن، أنّ فيك شخصًا أكثر تشويقًا، وأكثر مغامرةً، وأكثر انفتاحًا على العالم وعلى التجارب الجديدة.

ثمّ، يحلّ يومٌ تقول فيه: «كفى!».

«كفى! السفر في نظري بات رتابةً متواترة».

يقول ج.: «لا، لا يكفي، لن يكفي يومًا. حياتنا رحلة مستمرّة، من المهد إلى اللحد. يتغيّر المنظر الطبيعي، يتغيّر الناس، تتغيّر احتياجاتنا، غير أنّ القطار يواصل سيره. الحياة هي القطار، وليس المحطة. وما تفعله الآن ليس سفرًا، إنه مجرد تبديل للبلدان، وهذا أمر مختلف كليًا».

أهزّ رأسي.

«لا جدوى. إذا كان عليّ أن أصوّب خطأً ارتكبته في حياةٍ أخرى، وأنا واعٍ تمامًا لهذا الخطأ، أستطيع تصويبه فيها. في زنزانة السجن تلك، كنتُ أطيع أوامر شخصٍ بدا وكأنه يعرف الله: إنّه أنتَ. كما أنني سبق أن طلبت المغفرة من أربعة أشخاص على الأقل».

«لكنّكَ لم تكتشف أبدًا طبيعة اللعنة التي أُنزلت بك».

«نزلتْ عليك اللعنة أيضًا حينذاك. فهل اكتشفتَ ما كانت؟».

«نعم، فعلت. وأؤكد لك أنها كانت أقسى إلى حدٍّ بعيدٍ من لعنتك. أنتَ ارتكبت عملاً جبانًا واحدًا فقط، في حين أنني تصرّفتُ بإجحاف مرّات عديدة. لكنّ ذاك الاكتشاف أعتقني».

«إذا كان يتوجّب عليّ السفر في الزمن، فلِمَ يتوجّب عليّ السفر في الفضاء أيضاً؟».

يضحك ج.: «لأنّ لنا جميعاً احتمال الخلاص. ولحصول ذلك، علينا أن نجد مَنْ آذَينا ونسألهم المغفرة».

«إذًا، إلى أين يتعيّن عليّ الذهاب؟ إلى القدس؟».

«لا أعرف. أينما تعتزم الذهاب، إعرف ما الذي خلّفته غير مُنجزٍ وأنجزْه. الله سيرشدك، لأنّ كلّ ما اختبرته وستختبره موجود في الـ «هنا» و«الآن». العالم يُخلق ويهلك في هذه اللحظة بالذات. أيًّا يكن مَن التقيت، سيُعاود الظهور، أيًّا يكن من أضعت، سيعود. لا تخُنِ النعمة التي مُنحت. افهم ما يدور في خَلَدك وستفهم ما يدور في خَلَد الآخر.

لا تخالني أتيتُ لأُحِلّ السلام، بل جئتُ وسيفًا أحمل.

أقف تحت المطر وأنا أرتجف، وبِكرُ أفكاري أنني سأصاب بالزكام. أواسي نفسي بالتفكير في أنّ كلّ طبيب التقيته يومًا أكّد لي أنّ الزكام يتأتّى من فيروس وليس نتيجة قطرات ماء.

لا يمكن لي البقاء في الـ «الهُنا» و«الآن»، رأسي يدور. أين عليّ السعي؟ أين عليّ الذهاب؟ وماذا لو لم أتعرّف الأشخاص على دربي؟ لا بُدّ أنّ ذلك قد حدث من قبل ومقدّر له أن يحدث مجدّدًا، لو لم يحدث، لما كانت روحي في سلام.

بعد تسع وخمسين سنة على العيش مع نفسي، صرت أستطيع أن أتوقّع بعضًا من ردود أفعالي. عندما التقيتُ ج. للمرة الأولى، بدت كلماته وقد ملأها نور أسطع من شخصه. تقبّلتُ كل شيء بلا سؤال؛ سرتُ قُدُمًا بلا مهابة ولم أندم على ذلك ولو مرّة. غير أنّ الوقت مرّ، تعارفنا، وترافقتْ الأُلفة مع العادة. لم يخذلني يومًا بأي شكلٍ من الأشكال، لكن لا يسعني أن أراه الآن بالعين نفسها. مع أنه، وبداعي الواجب، كان عليّ أن أُطيع كلامه- وهو أمر كنت لأفعله بسرور في أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٩٢، بعد عشر سنين على لقائي به- لكني كففتُ عن إطاعته بالقناعة ذاتها.

أنا على خطأ. كان خياري أن أتّبع هذا التقليد السحري، فلمَ التشكيك به الآن. لي حرية التخلّي عنه متى أشاء، لكن ثمة ما

يدفعني. الأرجح أنه على حقّ، لكنّي تعوّدتُ الحياة التي أعيشها ولستُ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التحديات. أحتاج إلى السلام.

يُفترض بي أن أكون سعيدًا: أنا ناجحٌ في مهنتي المختارة، مهنتي التنافُسية للغاية، أنا متزوّجٌ من المرأة التي أحب منذ سبعٍ وعشرين سنة، أتمتّع بصحّة جيّدة، أحيا محاطًا بأشخاص هم أهل للثقة، أُقابَل بالتحيّة الودودة من قرّائي عندما ألتقيهم في الشارع. ومضى وقتٌ عندما كان ذلك يكفي، لكن خلال السنتين الأخيرتين، يبدو أنه لم يعد شيء يُرضيني.

هل هو مجرّد قلق عابر؟ ألن تكفي تلاوة الصلوات المعتادة فحسب، واحترام الطبيعة كما لو أنها صوت الله، وتأمّل الجمال من حولي؟ لـمَ المضي إلى أمام ما دمتُ على قناعة بأنني بلغتُ حدّي؟

لـمَ لا يسعني أن أكون كأصدقائي؟

يتساقط المطر وابلاً، وصوت الماء كلّ ما أسمع. أنا مُشبَعٌ بالبلل، لكني أعجز عن الحراك. لا أريد الرحيل لأني أجهل وجهتي. ج. على حقّ، فأنا تائه. لو أنني بلغتُ حدّي فعلاً، لولّى هذا الشعور بالذنب والإحباط، لكنه لا يزال هنا. خوفٌ وارتعاش. متى انتابك حسٌّ مستمرّ بعدم الرضا، يعني ذلك أنّ الله أوجده لسببٍ واحدٍ فقط: عليك أن تُغيّر كل شيء وتمضي.

سبق أن مررتُ بذلك. كلّما رفضتُ أن أتبع مصيري، يحدث شيء في حياتي يفوق الاحتمال. وهذه خشيتي الأكبر في هذه

اللحظة، أن تحصل مأساة ما. تُحدث المأساة على الدوام تغييرًا جذريًا في حياتنا، تغييرًا مرتبطًا بالمبدأ ذاته: الخسارة. عندما تواجهنا أي خسارة، لا جدوى من محاولة استعادة ما كان، ومن الأفضل أن نستفيد من الحيّز الأوسع الذي يُشرّع أمامنا ونملأه بشيء جديد. نظريًا، كل خسارة هي خير لنا، أما عمليًا، فنشكّك في وجود الله ونتساءل: «ما الذي فعلته لأستحق هذا؟».

ربّي، احفظني من المأساة وسوف أتبع مشيئتك.

في لحظة تفكيري هذه، يُدوّي رعدٌ عظيم ووميضٌ من برقٍ يُضيء السماء.

خوفٌ وارتعاش، مرة أخرى. إنّها إشارة. أحاول إقناع نفسي أنني أُقدّم أفضل ما فيها والطبيعة تقولُ لي العكس تمامًا: من يلتزم الحياة بجدّ، يواصل سيره أبدًا. السماء والأرض تلتقيان في عاصفة، تتبدّد تاركةً الهواء أنقى، والحقول أخصب. لكن قبل حصول ذلك، ثمّة منازل ستتدمّر، وأشجارٌ بعمر الأزمان ستهوي، وجنّات ستفيض.

يقترِبُ منّي شكلٌ أصفر.

أُسلّم نفسي للمطر. مزيدٌ من البرق، لكنّ شعورًا إيجابيًا يحلّ محلّ شعوري بالعجز، كما لو أنّ روحي كانت تتطهّر تدريجًا بماء المغفرة.

بارِك وستُبارك.

تنبعث هذه الكلمات منّي تلقائياً، حكمةً خَفي عليّ امتلاكها،

وأعلم أنها لا تنتمي إليّ، لكنها تتجلّى أحيانًا، وتُجلي الشك في كل ما تعلّمته على مدى السنين.

مشكلتي العُظمى هي أني، رغم لحظاتٍ مماثلة، أستمر في الشك.

الشكل الأصفر واقفٌ أمامي. إنها زوجتي، ترتدي رداءً صارخ اللون كالذي نرتديه عندما نذهب للمشي في أماكن نائية من الجبال. إن تهنا، سيكون إيجادنا سهلاً.

«هل نسيتَ أننا سنخرج للعشاء الليلة؟».

لا، لم أنسَ. أترك الماورائيات الكونيّة، حيث قصف الرعد يمثّل أصوات الآلهة، وأرجع إلى واقع قريةٍ ريفيّةٍ وعشاءٍ حول كأس نبيذ فاخر ولحم الغنم المشوي والحديث السار مع الأصدقاء، الذين سيخبروننا عن أحدث مغامراتهم وهم يمتطون درّاجاتهم، وهي من صنع هارلي-دايڤيدسون. أعود إلى المنزل لتبديل ملابسي وأُطلع زوجتي على موجز حديثي مع ج. ذلك العصر.

تسأل: «هل قال لك إلى أين يجب أن تذهب؟».

«قال لي أن أُقيم لنفسي التزامًا».

«وهل هذا جدّ صعب؟ كُفّ عن تمنُّعك إلى هذه الدرجة. أنت تتصرّف كعجوز».

دعا هيرڤي وڤيرونيك ضيفين آخرَين، ثنائيًا فرنسيًا في منتصف العمر. يُعرَّف أحدهما على أنه مُستبصر، التقياه في المغرب.

يبدو الرجل ما بين مَرِح وغير مرح، مجرّد غائب. ثـمّ، في منتصف العشاء، يقول لـڤيرونيك وكأنه دخل حالةً من الانخطاف:

«توخّي الحذر عند القيادة. سوف تتعرّضين لحادث».

أجد هذه الملاحظة أسوأ ما يمكن من الذوق، فإن أخذتها ڤيرونيك على محمل الجدّ، سيُفضي بخوفها إلى اجتذاب طاقة سلبية، وعندئذ قد تتحوّل الأمور فعلاً إلى المتوقّع.

أقول قبل أن يتمكّن الآخرون من ردّ الفعل: «كم هذا مثير للاهتمام. أنت قادر فرضيًا على السفر في الزمن، رجوعًا إلى الماضي وأمامًا إلى المستقبل. كنتُ أتحدّث في هذا الأمر بالتحديد مع صديق لي عصر اليوم».

«عندما يسمح لي الله، أستطيع أن أرى. أعرف ما كان عليه كلّ فرد إلى هذه الطاولة، وما يكون، وما سيكون. لا أفهم موهبتي، لكني تعلّمت منذ زمن بعيد أن أتقبّلها».

كان من المفترض أن يدور الحديث حول رحلة إلى صقلّية مع أصدقاء يتشاركون في شغفهم بدرّاجات هارلي-دايـڤيدسون التقليدية، لكن فجأة يبدو أنّه اتّخذ منحًى خطرًا، ناحية أمكنة لا أريد دخولها الآن. حالة من التزامن.

إنه دوري لأتكلّم:

«إذًا، تعرف أيضًا أنّ الله يسمح لنا برؤية أشياء مماثلة، فقط عندما يريد لشيء أن يتغيّر».

أتوجّه إلى ڤيرونيك وأقول: «توخّي العناية فحسب. عندما يوضع شيء من المستوى الفلكي على المستوى الأرضي، يفقد كثيرًا من قوّته. بعبارة أخرى، أنا على يقينٍ جازم من أن لا حادث سيقع».

تقدّم ڤيرونيك مزيدًا من النبيذ للجميع. تظنّ أن ثمّة عدائية بيني وبين المستبصر المغربي. ليست هذه هي الحال، يمكن للرجل أن يرى حقًا وهذا يُخيفني. سأتحدّث إلى هيرڤي عن ذلك لاحقًا.

لا يكاد الرجل ينظر إليّ، لا يزال متوشّحًا هيئة الغائب الذي دخل عن غير قصد بُعدًا آخر، والآن واجبه أن يوصل ما يختبره لسواه. يريد أن يقول لي شيئًا، لكنه يختار بدلاً من ذلك، التوجّه إلى زوجتي.

«روح تركيا سيمنح زوجك كلَّ الحب الذي تملكين، لكنه سيريق دمَهُ قبل أن يظهر له ما يسعى إليه».

أخالها إشارة أخرى تؤكّد أنه لا ينبغي لي السفر الآن، مع تمام معرفتي بأننا نحاول دومًا تفسير الأمور وفق ما نريد، لا وفق ما هي عليه.

أن أكونَ على متن هذا القطار المسافر من باريس إلى لندن، في طريقي إلى معرض الكتاب، بركة لي. كلّما زرت إنجلترا، أتذكّر عام ١٩٧٧، عندما تخلّيتُ عن عملي مع شركة تسجيل برازيلية، عاقدًا العزم، مذّاك فصاعدًا، على كسب عيشي ككاتب. استأجرتُ شقّة في شارع باسّت، أقمت لي عدّة صداقات، درستُ علم مصاصي الدماء، استكشفتُ المدينة مشيًا، وقعتُ في الحب، شاهدتُ كلّ فيلم سينمائي كان يُعرض، وقبل مرور عام، عُدت إلى ريو، عاجزًا عن كتابة ولو سطر.

هذه المرة، سأمكثُ في لندن لثلاثة أيام فقط. ستُقام جلسة توقيع كتاب، وستكون هناك وجبات في مطاعم هندية ولبنانية، ومحادثات في بهو الفندق حول الكتب، والمكتبات والمؤلّفين. لا أنوي العودة إلى منزلي في سان مارتان إلى حين نهاية السنة. من لندن، أعود جوّاً إلى ريو، حيث يمكنني ثانية أن أسمع لغتي الأم في الشوارع، وأتناول عصير الآساي كلّ ليلة، وأحدّق بلا كللٍ من نافذتي إلى المنظر الطبيعي الأجمل في العالم: شاطئ كوپاكابانا.

* * * *

قُبيل وصولنا، يدخل شابّ القطورة حاملاً باقةً من الورد ويروح ينظر حواليه. يا للغرابة، لم يسبق ان رايتُ بائعي زهرِ على متن يوروستار.

يقول: «احتاج إلى اثني عشر متطوّعًا. سيحمل كلّ متطوّعٍ وردةً ويقدّمها إلى المرأة التي تمثّل حبّ حياتي والتي ساطلب يدها للزواج».

يتطوّع عددٌ من الأشخاص، بمن فيهم انا، وإنْ لم اكن احد المختارين الاثني عشر. مع ذلك، وبتوقُّف القطار في المحطة، اقرّر ان اتبع بقية المتطوّعين. يُشير الشاب إلى فتاة عند مدخل المحطّة المسقوف. واحدٌ تلو واحد، يقدّم لها الركّاب وردهم الأحمر. أخيرًا، يُعلن حبّه لها، يصفّق الجميع، وتحمرّ الشابة خجلاً. ثمّ، يتبادل الثنائي القُبل ويرحلان، ذراعُ كلّ منهما تلفُّ الآخر.

يقول أحد العاملين القيّمين على المحطّة:

طوال فترة عملي هنا، لم تقع عيني على مشهدٍ رومانسيٍّ كهذا.

* * * *

تدوم جلسة توقيع الكتاب المقرّرة قرابة خمس ساعات، لكنها تغمرني بالطاقة الإيجابية، وتدفعني إلى التساؤل لمَ امتلكتني هذه الحالة كلّ تلك الشهور؟ إذا كان تقدّمي الروحاني قد بلغ حاجزًا لا يُعبَر، فلعلّني أحتاج إلى الصبر فحسب. لقد رايتُ اموراً وشعرتُ بأمورٍ ستراها وستشعر بها قلّة من الناس حولي.

قبل الانطلاق إلى لندن، زرتُ الكنيسة الصغيرة في مدينة باربازان-دوباه. فيها تضرّعتُ إلى سيّدتنا العذراء أن تُرشدني بحبّها وتُعينني على تحديد الإشارات التي سترُجعني إلى ذاتي. أعرفُ أنني في داخل كلّ من يحيطني، وأنهم فيَّ. معًا، نخطُّ كتاب الحياة، لقاءاتنا مرسومة من القَدَر، وأيدينا متشابكة في إيماننا بأنّ لنا أن نُحدث التغيير في هذا العالم. كلٌّ يُساهم في كلمة، في جملة، في صورة، ولكن في النهاية، كلُّ ذا يُشكّل معنىً: سعادة الواحد هي سعادة الجميع.

ستُطالعنا الأسئلة ذاتها دومًا. وسنحتاج دومًا إلى الإقلاع عن تكبُّرنا لكي نتقبّل أنّ قلوبنا على علمٍ بسبب وجودنا هنا. نعم، من الصعب أن نتحدّث إلى القلب منّا، ولعله ليس ضروريًا. علينا ببساطة أن نتحلّى بالثقة ونتبع الإشارات ونحيا أسطورتنا الشخصيّة، عاجلاً أم آجلاً، سنُدرك أننا جميعًا جزءٌ من شيء، حتّى وإنْ عجزنا عن أن نفهم، منطقًا، ماهيّة هذا الشيء. يُقال إنه في اللحظة التي تسبق الموت، يفهم كلٌّ منا السبب الحقيقي لوجوده، ومن تلك اللحظة يولد النعيم أو الجحيم.

الجحيم يكون عندما نستذكر جزء الثانية هذه، ونعرف أننا بدّدنا فرصة لإجلال معجزة الحياة. النعيم هو القدرة على القول في تلك اللحظة: «ارتكبتُ بعض الأخطاء، لكنني لم أكن جبانًا. عشتُ حياتي وفعلتُ ما وَجَبَ عليّ فعله».

لكن، لا داعيَ لأن أستبق جحيمي الخاص، وأواصل تذكير نفسي بحقيقة أنني لا أستطيع التقدّم أكثر فيما أستدلّ على أنه «سعيي الروحاني». يكفي أن أستمرّ في المحاولة. حتى أولئك الذين لم يفعلوا كلّ ما كان في وسعهم فعله، قد غُفر لهم، نالوا جزاءهم عندما كانوا أحياء بالعيش تُعساء، في حين كان بمقدورهم العيش بسلامٍ وتناغم. كلّنا إلى خلاص، وكلّنا أحرار لاتّباع الدرب التي لا بداية لها، وبلا نهاية ستكون.

* * * *

لم أجلب معي ما أقرأه. أثناء انتظاري الانضمام إلى ناشريَّ الروسيين لتناول العشاء، أتصفّح إحدى تلك المجلاّت التي توجد على الدوام في غرف الفنادق. أتصفّح مقالاً عن الخيزران الصيني. يبدو أن حين تنثر البذرة، لا ترى سوى برعم صغير على مدى خمس سنوات. يحدث النمو بأكمله تحت الأرض، حيث يتكوّن نظام جذري معقّد ينمو صعودًا وخارجًا. ثمّ، عند نهاية السنة الخامسة، يشبّ الخيزران عُلوّاً خمسة وعشرين مترًا. يا للموضوع المملّ! أقرّر أن أنزل وأشاهد الواصلين والمغادرين في البهو.

* * * *

أحتسي فنجان قهوة فيما أنتظر. تنضمّ مونيكا إلى طاولتي، هي وكيلتي وصديقتي الحميمة. نتحدّث في أمور لا أهمية لها. يبدو

عليها التعب بعد يومٍ من التعامل مع الناس من عالم الكتاب وتراقب جلسة توقيع الكتاب على الهاتف مع ناشري البريطاني.

بدأنا العمل معًا عندما كانت في العشرين من عمرها فحسب. كانت معجبةً بعملي ومقتنعةً بأنّه يمكن لأعمال كاتب برازيلي أن تُترجم بنجاح وتُنشر خارج البرازيل. تخلّت عن دراستها الهندسة الكيميائية في ريو، وانتقلت إلى إسبانيا مع حبيبها، وأخذت تجول قارعةً أبواب الناشرين وكاتبةً رسائل، تُخبرهم فيها أنّ عليهم قراءة عملي.

وإذ لم يُثمر ذلك البتّة، ذهبتُ إلى القرية الصغيرة في كاتالونيا حيث كانت تعيش، وابتعتُ لها المقهى ونصحتها أن تتخلّى عن الأمر برمّته وتُفكّر في حياتها ومستقبلها. رفضت وقالت إنها لا تستطيع العودة إلى البرازيل فاشلة. حاولت إقناعها بأنها لم تفشل، في النهاية، أثبتت لنفسها أنها قادرة على البقاء (بتوزيع المناشير والعمل كنادلة) والحصول على تجربةٍ فريدةٍ في العيش خارج الوطن. لم تكن مونيكا لتستسلم. تركتُ ذاك المقهى وبي إيمان راسخ بأنها كانت تهدر حياتها وبأنني مع ذلك لن أتمكن من ردعها لأنها كانت شديدة العناد. بعد ستة أشهر، تغيّر الوضع كليًا، وبعد ستة أشهر أخرى، كانت قد جنت ما يكفي من المال لشراء شقّة.

آمنتْ بالمستحيل، ولهذا السبب ربحت معركة اعتبرها الكلّ، بمن فيهم أنا، معركةً خاسرة. هذا ما يُميّز المحارب: معرفته أن الإرادة

والشجاعة ليستا واحدًا. يمكن للشجاعة أن تجتنب الخوف والإطراء المفرط، لكنّ قوة الإرادة تستدعي الصبر والالتزام. الرجال والنساء ممن يتمتّعون بقوة إرادة بالغة هم في العادة من الصنف الانعزالي الذي ينبعث منه نوع من البرودة. يظنّ الكثيرون، مخطئين، أنّ مونيكا باردة فعلاً، وهو ظنّ أبعد ما يكون عن الحقيقة. في قلبها تتّقد نارٌ سريّة، مستعرة، كما استعرت يوم التقينا في ذلك المقهى الكاتالوني. رغم كلّ ما حقّقته، لا تزال الحماسة تغمرها كحالها دومًا.

في اللحظة التي أهمّ بإخبارها عن حديثي الأخير مع ج.، يصل ناشراي من بلغاريا إلى البهو. ينزل كثير من المعنيين بمعرض الكتاب في الفندق نفسه. نتكلّم عن هذا وذاك، ثمّ تحوّل مونيكا الحديث إلى موضوع كتبي. في النهاية، ينظر أحد الناشرَين إليّ ويسألني السؤال النموذجي:

«إذًا متى ستزور بلدنا؟».

«الأسبوع المقبل إذا أمكن لك تنظيم ذلك. كل ما أطلبه هو حفلة بعد جلسة توقيع الكتاب عصرًا».

ينظر كلاهما إليّ مذهولاً.

الخيزران الصيني!

فيما تنظر مونيكا إليّ مرتاعة، تقول:

«من الأفضل أن نراجع المفكّرة....»

«...لكنني متأكّد أنني سأكون في صوفيا الأسبوع المقبل. أقولها فُجاءةً مُضيفًا بالبرتغالية: «سأشرح لاحقًا».

ترى مونيكا أنني جادّ، لكنّ الناشرَين يبدوان على غير يقين. يسألان إن كنت أفضّل الانتظار قليلاً لكي يتمكّنا من تنظيم حملة ترويجية ملائمة.

أقول مجدّدًا: «الأسبوع المقبل. وإلاّ سيكون علينا ترك ذلك إلى مناسبةٍ أخرى».

عندها فقط يدركان فعلاً أنني جادّ. يتوجّهان إلى مونيكا لمزيد من التفاصيل. وفي تلك اللحظة بالذات يصل ناشري الأسباني. ينقطع الحديث على الطاولة، تتمّ التعريفات، ويُطرح السؤال المعتاد:

«إذًا، متى سترجع إلى إسبانيا؟».

«مباشرةً بعد زيارتي إلى بلغاريا».

«ومتى ذلك؟».

«في غضون أسبوعين. يمكن لنا تنظيم جلسة توقيع كتاب في سانتياغو دي كومبوستيلا، وآخر في إقليم الباسك، تتبعه حفلة بالإمكان دعوة بعض قرّائي إليها».

تبدأ علامات الانزعاج بالظهور على الناشرَين البلغاريين مجددًا، وتتصنّع مونيكا ابتسامة.

«أقم التزامًا». كان ج. قد قال.

يبدأ البهو بالامتلاء. في معارض مماثلة، حيث تُروّج الكتب أو الآليّات الثقيلة، ينزع المحترفون إلى النزول في الفندقين أو الفنادق الثلاثة عينها، وتختتم معظم الصفقات في بهوٍ أو على عشاءٍ كالذي

تقرّر حصوله الليلة. أُحيي كلّ الناشرين واقبل اي دعوات تبدأ بالسؤال: «متى ستزور بلدنا؟». احاول ان ابقيهم يتكلّمون أطول وقتٍ ممكنٍ لاجتناب أن تسالني مونيكا: ما الذي يحدث بربّك. كلّ ما يمكن لها فعله هو تدوين الزيارات المختلفة التي التزمها في مفكّرتها.

هنا، اقطع حديثي مع ناشرٍ عربي لأعرف ما عدد الزيارات التي نظّمت.

تردّ بالبرتغالية، والغيظ بادٍ عليها: «انظر، أنت تضعني في موقف شديد الإرباك».

«ما عددها؟».

«ستة بلدان في خمسة أسابيع. هذه المعارض مخصّصة للمحترفين في النشر، كما تعلم، وليس للكتّاب. ليس عليك قبول اي دعوات، أنا أهتمّ ب...»

في تلك اللحظة يصل ناشري البرتغالي، فنعجز عن متابعة هذا الحديث الخاص. وإذ لا يقول شيئًا خارج الحديث البسيط المعتاد، أطرح السؤال بنفسي:

«ألَنْ تدعوني إلى البرتغال؟».

يعترف بأنه سمع من دون قصد حديثي مع مونيكا.

اقول: «لستُ امزح، اودّ فعلاً ان أُقيم جلسة توقيع كتاب في غيمارايس وآخر في فاطمة».

«طالما لن تُلغيه في آخر لحظة».

«لن ألغي، أعدك».

يوافق، وتُضيف مونيكا البرتغال إلى المفكرة: خمسة أيام إضافية.

أخيرًا، يأتي ناشراي الروسيّان- رجل وامرأة- ونتبادل التحية. تُطلق مونيكا تنهيدة ارتياح. الآن، يسعها أن تجرّني إلى المطعم.

فيما ننتظر سيارة الأجرة، تنتحي بي جانبًا.

«هل جُننت؟».

«آه، جُننت منذ سنوات. هل تعرفين شيئًا عن الخيزران الصيني؟ يظهر أنّه يظلّ برعمًا صغيرًا لخمس سنوات من نموّه، مستثمرًا ذلك الوقت لتطوير نظامه الجذري. ثمّ، من لحظة إلى أخرى، ينبثق دُفعة واحدة ويشهق إلى ارتفاع خمسة وعشرين مترًا.

«وما دخل هذا بمشهد الجنون الذي شهدته لتوّي؟».

«سأخبرك لاحقًا عن الحديث الذي أجريته منذ شهر مع ج. . لكن ما يهمّ الآن، هو تحديدًا ما يحصل لي منذ فترة: استثمرت العمل والوقت والجهد، حاولت أن أحثّ نموّي الخاص بالحبّ والتفاني، ولكن لم يحدث شيء. لم يحدث شيء لسنوات».

«ماذا تعني بقولك: لم يحصل شيء؟ هل نسيتَ من أنت؟».

تصل سيارة الأجرة. يفتح الناشر الروسي الباب لمونيكا.

«أتحدّث عن الجانب الروحاني من حياتي. أعتقد أنني أشبه ذلك الخيزران الصيني وأنّ سنتي الخامسة قد حلّت. حان الوقت لكي أستأنف النمو. سألتني إذا كنت قد جُننتُ وأجبتُ بنكتة. لكنّ

الحقّ أنني في جنونٍ منذ مدّة. كنت بدأت أعتقد أن لا شيء مما تعلّمته أرسى جذورًا».

لجزء من الثانية، فور وصول ناشريّ البلغاريين، شعرتُ بوجود ج. بقربي، ففهمتُ كلماته، مع أنّ البصيرة بذاتها كانت قد حلّت عليّ في لحظة ملل، بعد تصفُّحي مجلة حول البستنة. إن منفاي الذي فرضته على نفسي، والذي ساعدني في اكتشاف حقائق مهمّة حول ذاتي، كان له تأثيرٌ جانبي: عيب الوحدة. انحصر عالمي في بضعة أصدقاء محليين، في الإجابة عن الرسائل البريدية والإلكترونية ووهم أنّ بقية وقتي كانت لي وحدي. كنت، بالمختصر، أعيش حياةً خاليةً من أيّ مشكلاتٍ محتّمةٍ تنشأ من العيش مع بقية الناس، ومن التواصل البشري.

أهذا ما أصبو إليه؟ حياة بلا تحديات؟ لكن أين المتعة في البحث عن الله خارج الناس؟

أعرف كثيرين قاموا بذلك. كان لي ذات مرة حديثٌ جديٌّ ومضحكٌ في آن مع راهبة بوذية، قضت اثنتين وعشرين سنةً من حياتها وحدها في مغارة في النيبال. سألتها ماذا حقّقت فأجابت: «الانتشاء الروحاني»، فرددتُ عليها بأنّ ثمّة طرائق أسهل للوصول إلى الانتشاء.

لا يمكن لي أن أتبع هذه الدرب، فذلك خارج أفقي. ولن أتمكّن من قضاء بقية حياتي سعيًا إلى الانتشاءات الروحانية أو تأمّل شجرة

السنديان في حديقتي، منتظرًا الحكمة أن تنزل عليّ. يعرف ج. هذا، وهو من شجّعني على المضي في هذه الرحلة لكي أفهم أنّ دربي منعكسة في عيون الآخرين وأنني، إذا أردت أن أجد نفسي، أحتاج إلى هذه الخريطة.

أعتذر إلى الناشرَيْن الروسييْن وأقول إنني أحتاج إلى إنهاء حديث مع مونيكا بالبرتغالية. أبدأ بسرد قصّة عليها:

«يتعثّر رجلٌ ويسقط في حفرة. يطلب المساعدة إلى كاهنٍ عابر. يباركه الكاهن ويمضي. بعد ساعات، يصل طبيب. يطلب الرجل المساعدة، لكنّ الطبيب يعاين إصاباته من بعيد، ويحرّر له وصفة ويقول له أن يبتاع الدواء من الصيدلية الأقرب. أخيرًا، يظهر رجل غريب كليًا. مجدّدًا، يطلب الرجل المساعدة، فيقفز الغريب إلى الحفرة. يقول للرجل: «والآن ماذا سنفعل؟ الآن، كلانا عالق هنا. فيُجيب الرجل: لا لسنا كذلك. أنا من المنطقة وأعرف كيفية الخروج».

تسأل مونيكا: «والمقصود؟».

أشرح: «المقصود أنني أحتاج إلى غرباء على هذا المثال. جذوري جاهزة، لكنني لن أتمكّن من النمو من دون مساعدة الآخرين. ليس أنتِ أو ج. أو زوجتي فقط، بل أشخاص لم ألتقهم يومًا. أنا واثق من ذلك. لهذا السبب طلبتُ إقامة حفلة بعد جلسات توقيع الكتب».

تقول مونيكا بنبرة تذمّر: «أنتَ لا ترتضي أبدًا، أليس كذلك؟».

أقول مبتسماً: «لهذا السبب تحبينني كثيراً».

* * * *

في المطعم، نتحدّث عن شتى الأمور، نحتفي ببضعة نجاحات ونحاول صقل بعض التفاصيل. عليّ أن أكبح نفسي عن التدخّل، لأنّ مونيكا هي المسؤولة عن كل ما يتعلّق بالنشر. وفي وقتٍ ما، يُطرح السؤال نفسه:

«ومتى سيزور پاولو روسيا؟».

تشرع مونيكا بالتبرير أنّ مفكّرتي قد فاضت فجأة وأنّ لديّ سلسلةً من الالتزامات بدءًا من الأسبوع المقبل، فأقاطعها:

«أتدرين، لطالما عزّ عليّ حلمٌ، حاولتُ تحقيقه مرّتين من قبل ولكني لم أفلح. إذا ساعدتني على تحقيق حلمي، سأذهب إلى روسيا».

«وأيُّ حلم هو ذا؟».

«أن أعبر كامل روسيا في القطار وأخلص إلى المحيط الهادئ. نستطيع التوقّف في أماكن مختلفة على الدرب لإقامة جلسات توقيع. بهذه الطريقة، سنُظهر احترامنا لجميع القرّاء الذين لن يقدروا يومًا على بلوغ موسكو».

تشعّ عينا ناشري فرحًا. كان يتكلّم من توّه عن صعوبات التوزيع المتزايدة في بلدٍ شاسع لدرجة أنّ فيه تسع مناطق زمنية مختلفة.

تضحك مونيكا: «إنها فكرة رومنسية جدًا، فكرة من وحي

الخيزران الصيني. لكنها غير عمليةِ تماماً. كما تعلم جيدًا، لن أتمكّن من الذهاب برفقتك لأنّ لديّ ابناً لأعتني به الآن».

غير أنّ الناشر الروسي يبدو متحمّسًا. يطلب فنجانه الخامس من القهوة لليلة، قائلاً إنه سيهتمّ بكل شيء، وإنّ مساعِدة مونيكا تستطيع الحلول مكانها، وإنه لا داعي لها أن تقلق البتّة، فكل شيء سيسير على ما يرام.

وعليه، أملأ مفكَرتي بشهرين كاملين من السفر، تاركًا على الدرب كثيراً من الناس السعداء جدًا، ولكن المتوتّرين جدًا، ممن سيكون عليهم تنظيم كل شيء بسرعة البرق؛ صديقة ووكيلة تنظر إليّ الآن بمودّة واحترام؛ ومعلّم غير حاضر، لكنه يعرف أنني أقمتُ التزامًا، مع أنني لم أفهم مقصده حينذاك. إنها ليلة باردة وأختار أن أمشي وحدي عائداً إلى الفندق، شاعرًا بالرعب لما فعلت، وسعيدًا أيضًا، لأن نقطة الرجوع مستحيلة.

هذا ما أردت. إذا آمنتُ بأنني سأنتصر، سيؤمن النصر بي إذًا. لا حياة تكتمل من دون لمسة جنون، أو اقتباسًا عن ج.، ما أحتاج إلى فعله هو أن أستولي مجدّدًا على مملكتي. إذا استطعتُ أن أفهم ما يجري في العالم، سأستطيع فهم ما يجري في داخلي.

* * * *

في الفندق، تنتظرني رسالةٌ من زوجتي تقول فيها إنها كانت تحاول الاتصال بي وتطلب أن أهاتفها أسرع ما يمكن. يخفق قلبي،

إذ يندر أن تتّصل بي في أسفاري. أهاتفها على الفور. تبدو اللحظات الفاصلة بين كل رنّةٍ ورنّةٍ وكأنـها أبدية.

أخيرًا، ترفع الهاتف.

تقول بعصبيّة: «تعرّضت ڤيرونيك لحادث سيرٍ خطير. لا تقلق، فحالتها ليست خطرة».

أسألها إذا كان بوسعي الاتصال بڤيرونيك الآن، لكنها تجيب نفيًا. هي لا تزال في المستشفى.

تقول: «هل تتذكر ذاك المستبصِر؟».

طبعًا أذكر! لقد تنبّأ لي أيضًا. نُنهي الاتصال وأهاتف غرفة مونيكا على الفور. أسألها إن كنتُ، عرضيًا، قد نظّمتُ زيارةً إلى تركيا.

«ألا يسعك حتى أن تتذكّر الدعوات التي قبلتها؟».

أقول: «لا. كنتُ في حالةٍ غريبةٍ من السعادة الغامرة عندما أخذتُ أقول (نعم) لكل أولئك الناشرين».

«لكنك تتذكر الالتزامات التي أقمتها، أليس كذلك؟ لا يزال أمامك وقت لتُلغي، إذا أردت».

أقول لها إنني سعيد تمامًا بالالتزامات، ليست هذه هي المشكلة. الوقت متأخر لأن أشرح كل شيء عن المستبصر والتنبؤات وحادث ڤيرونيك. أسأل مونيكا مجددًا إنْ نظّمتُ زيارةً إلى تركيا.

تقول: «لا. الناشرون الأتراك ينزلون في فندق مختلف. وإلاّ.....»

ونضحك معاً. الآن أستطيع أن أنام بهناء.

قنديل الغريب

مرّ نحو شهرين من السفر، من الحجّ. عاد فرحي بالحياة لكنّني أستلقي مستيقظًا كل الليل متسائلاً إذا كان حسّ الفرح هذا سيلازمني عندما أعود إلى منزلي. هل إنني أفعل ما عليّ فعله لأجعل الخيزران الصيني ينمو؟ ذهبتُ إلى سبعة بلدان، قابلتُ قرّائي، حظيتُ بوقتٍ ممتع، وأزحتُ عنّي مؤقّتًا الاكتئاب الذي كان يُنذر بأن يغمرني. لكنّ شيئًا ما يُخبرني بأنني لم أستولِ مجددًا على مملكتي. حتى الآن، لم تختلف هذه الرحلة فعلاً عن مثيلاتها في السنين الماضية.

يبقى كلّ هذا الآن في روسيا. ماذا سأفعل بعد؟ أستمرُّ في إقامة التزامات لكي أواصل المضي، أو أتوقّف وأرى النتائج؟

لم أتوصّل إلى قرار بعد. أعرف فقط أنّ حياةً بلا سبب هي حياة بلا نتيجة. ولا أستطيع أن أدعَ ذلك يحصل لي. إنْ دعت الحاجة، سأقضي بقيّة السنة مسافرًا.

إنني في مدينة تونس الأفريقية، في بلاد تونس. الحوار على وشك أن يبدأ و- شكرًا لله- الغرفة مكتظّة. سيعرّف بي مفكّران محلّيان. في الاجتماع الموجز الذي عقدناه قبل ذلك، أراني أحدهما

نصًا سيستغرق دقيقتين فقط من القراءة، وأراني الآخر أطروحةً حقّةً حول عملي ستستغرق نصف ساعة على الأقل.

شرح المنسّق لهذا الأخير بطريقةٍ في غاية الكياسة أن الحدث من المفترض أن يدوم خمسين دقيقة كحدٍ أقصى، ولهذا لن يتّسع له الوقت لقراءة ما كتب. أتخيّل كم كدّ في إعداد المقالة، لكنّ المنسّق على حقّ، فالغرض من زيارتي تونس هو مقابلة قرّائي. يحدث نقاش وجيز يقول مؤلّف المقالة على أثره إنه لم يعد يرغب في المشاركة ويرحل.

يبدأ الحديث. يستغرق التعريف والشكر خمس دقائق فقط، والوقت الباقي حرٌّ للحوار المفتوح. اقول للحضور إنني لم آتِ لأشرح أي شيء، وإنّه، في الحال المثلى، يُفترض أن يدور الحدث حول المحادثة أكثر من العرض.

تسأل شابة عن الإشارات التي اتحدّث عنها في كتبي. ما الشكل الذي تتّخذه؟ أشرح أنّ الإشارات لغة شخصية بامتياز نطوّرها على امتداد حياتنا، بالتجربة والخطأ، إلى حين نبدأ نفهم أنّ الله يرشدنا. يسأل شخص آخر إنْ كانت إشارة ما دعتني إلى اجتياز كل هذه المسافة إلى تونس. فأقول إن الأمر هو كذلك، لكن من دون الغوص في أي تفصيل.

تستمر المحادثة، ويمرّ الوقت بسرعة وعليّ أن أختم. للسؤال الأخير، أختار عشوائيًا، من بين الحاضرين الستمئة، رجلاً في منتصف العمر بشاربٍ كثيف.

يقول: «لا أريد أن أطرح سؤالا. أريد ذكر اسمٍ فقط».

الاسم الذي يتلفّظ به هو باربازان-دوباه، كنيسة صغيرة في وسط اللامكان، بعيدة آلاف الكيلومترات من هنا، الكنيسة الصغيرة ذاتها حيث وضعتُ ذات يوم نقشًا مكتوبًا امتنانًا لمعجزة، والتي زرتها قبل الانطلاق في هذا الحجّ، لكي أرفع صلاتي إلى السيدة العذراء متضرّعًا حمايتها.

لا أدري بـمَ أجيب. الكلمات التالية من كتابة أحد الأشخاص الآخرين الذين كانوا معي على المنصّة.

في الغرفة، بدا الكون فجأةً وكأنه توقّف عن الحراك. حصلت أمورٌ كثيرة: رأيتُ دموعك ودموع زوجتك العزيزة، عندما لفظ ذلك القارىء المجهول الهوية اسم تلك الكنيسة الصغيرة البعيدة.

تعطّل عندك الكلام. تقنّع وجهك الباسم الجدّية. امتلأت عيناك دموعًا خجولة ارتجفت على رموشك، وكأنها تودّ الاعتذار لظهورها عنوة.

حتى أنا أحسستُ بغصّة، مع أنني لم أدرِ لـمَ. بحثتُ عن زوجتي وابنتي بين الحضور، لأنني ألجأ إليهما دومًا متى شعرتُ بأنني على شفير أمرٍ مجهول. كانتا هناك، لكنهما قبعتا صامتتين صمت كلّ من حضر، عيناهما مسمّرتان عليك، تحاولان إسنادك بنظراتهما المحدّقة، وكأنّ للتحديق القدرة على إسناد أيٍّ كان.

ثمّ، بحثتُ عن كريستينا لمساعدتي، محاولاً فهم ما كان يجري، وكيف أضع حدًا لذاك الصمت الذي بدا مديدًا. ورأيتُ أنها كانت تبكي بصمتٍ أيضًا، وكأنكما كنتما نوتتين من السمفونيّة نفسها، وكأنّ دموعكما تلامست، مع أنكما جلستما متباعدين كل البعد.

لثوانٍ طويلة، لم يوجد شيء، لا غرفة، لا حضور، لا شيء. انطلقتَ وزوجتكَ إلى مكان عجزنا عن اتّباعكما إليه، كلّ ما تبقّى كان فرح العيش، في تعبيرٍ من الصمت والوجدان.

الكلماتُ دموعٌ خُطّت. الدموعُ كلمات ينبغي أن تُذرف. من دونها، يفقد الفرح كلّ بريقه ويكون الحزن بلا منتهى. فأشكرك على دموعك.

كان عليّ أن أقول للشابة التي طرحت السؤال الأول عن الإشارات، إنّ هذه كانت إشارة تؤكّد أنني كنتُ حيثما عليّ أن أكون، في المكان المناسب، في الوقت المناسب، مع أنني لم أفهم ما الذي كان قد أتى بي إلى هنا.

اظنّ أنّه لم يكن من داعٍ لذلك. لا بدّ أنها فهمت بأي حال[1].

* * * *

(١) ملاحظة المؤلّف: بعد الحوار مباشرةً، بحثتُ عن الرجل ذي الشارب.كان اسمه كريستيان ديلليم. بعد ذلك، تبادلنا بضع رسائل إلكترونية، لكننا لم نلتقِ وجهًا لوجه ثانيةً. توفّي في ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠٩، في تربيس، فرنسا.

أمشي وزوجتي، يدًا بيد، عبر البازار في تونس، على بعد خمسة عشر كيلومترًا من آثار قرطاجة التي، قبل قرون، تحدّت عظمة روما. نتناقش في أمر المحارب القرطاجي العظيم، هنيبعل. بما أنّ بضعة كيلومترات من المياه كانت تفصل ما بين قرطاجة وروما، كان الرومان يتوقّعون معركة عبر البحر. لكنّ هنيبعل قاد جيشه الكبير وعَبَر الصحراء الأولى ثمّ مضيق جبل طارق، واجتاز إسبانيا وفرنسا، وتسلّق جبال الألب مع الجنود والفِيَلَة، وهاجم الرومان من الشمال، مسجّلاً بذلك أعظم الانتصارات العسكرية المدوّنة.

تغلّب على كل الأعداء على دربه ومع ذلك- ولأسباب لا نزال نعجز عن فهمها – لم يهاجم روما، وعندما قرر الهجوم كانت اللحظة غير مناسبة. ونتيجة ذلك التردّد، مُسحت قرطاجة عن الخارطة على يد الفيالق الرومانية.

مفكّرًا بصوت عالٍ، أقول: «توقّف هنيبعل وهُزم. أنا مسرور لأنني قادر على المضي، مع أنّ البداية كانت صعبة. بدأت أتعوّد الرحلة الآن».

تدّعي زوجتي عدم سماعي، لأنها تدرك أنني أحاول الاقتناع بشيء. نحن في طريقنا إلى مقهى للقاء أحد قرّائي، سميل، اختير عشوائيًا في الحفلة التالية للحوار. أطلب إليه أن يحيد عن كل المواقع الأثرية والسياحية المعتادة وأن يُرينا أين تقوم حياة المدينة الحقيقية.

يصطحبنا إلى مبنى جميل حيث، عام ١٧٥٤، قتل رجلٌ أخاه من لحمه ودمه. عزم والد الأخوين على بناء هذا القصر ليكون مدرسةً، كوسيلةٍ للإبقاء على ذكرى ابنه المقتول. أقول إن الرجل الذي ارتكب جريمة القتل سيُذكر أيضًا.

يقول سميل: «ليس الأمر كذلك تمامًا. في ثقافتنا، يتشارك المجرم الذنب مع كلّ من أتاح له ارتكاب الجرم. عندما يُقتل رجل، يكون الرجل الذي باع السلاح أيضًا مسؤولاً أمام الله. الطريقة الوحيدة التي أمكن للوالد أن يصحّح عبرها ما اعتبره خطأه كان تحويل مأساة إلى شيءٍ مفيدٍ للغير».

فجأة، يختفي كل شيء: القصر، الشارع، المدينة، أفريقيا. أثِبُ وثبةً عملاقةً إلى الظلمة وأدخل نفقًا يُفضي إلى برج محصّن معتم. أقف أمام ج. في واحدة من حيواتي السابقة الكثيرة، قبل مئتي سنة على حصول الجرم في ذلك المنزل. يُحدّق إليّ وفي عينيْه نظرات صارمة تحذيرية.

أرجع إلى الحاضر بالسرعة ذاتها. حصل كل ذلك في جزء من الثانية. أنا في القصر مجددًا، مع سميل وزوجتي وصخب الشارع في تونس. لكن ما كانت تلك الغطسة في الماضي؟ لماذا تصرّ جذور الخيزران الصيني على بثّ السمّ في النبتة؟ تلك الحياة قد عيشت والثمن دُفع.

«أنتَ ارتكبت عملاً جبانًا واحدًا فقط، في حين أنني تصرّفتُ

بإجحاف مرّات عدّة. لكنّ ذاك الاكتشاف أعتقني». هكذا قال لي ج. في سان مارتان، هو الذي لم يشجّعني يومًا على العودة إلى الماضي، والذي عارض بقوّة الكتب والكُتيّبات والممارسات التي علّمت أمورًا مماثلة.

يقول سميل: «بدلاً من اللجوء إلى الانتقام، الذي سيكون عقابًا لمرةٍ واحدةٍ لا غير، أوجد الوالد مدرسةً تـمّ تناقل الحكمة والعِلم فيها على مدى أكثر من قرنين».

لم أفوّت ولو كلمة مـمّا قال، ومع ذلك، وثبتُ تلك الوثبة العملاقة راجعاً في الزمن.

«هذا هو الأمر».

تسأل زوجتي: «ما هو؟».

«أنا أسير. أبدأ في الفهم. كل شيء يكتسب معنىً».

أشعر بسعادة غامرة. سميل مرتبك.

أسأل: «ماذا يقول الإسلام عن التجسُّد؟».

ينظر سميل إليّ متفاجئًا.

يقول: «لا فكرة لديّ، لستُ علاّمة».

أطلب إليه أن يستقصي. يتناول هاتفه الجوّال ويبدأ بطلب عددٍ من الناس. أذهب وكريستينا إلى حانة وأطلب فنجانين من القهوّة المركّزة. كلانا تَعِبٌ، لكننا سنتناول عشاءً من ثمار البحر لاحقًا، وعلينا مقاومة الإغواء بتناول وجبة خفيفة الآن.

أقول لها: «كأنني رأيت هذا من قبل».

تقول كريستينا ممازحة: «الكل يراها من وقتٍ لآخر. ليس عليك أن تكون مجوسيًا لتراها».

بالطبع لا، لكنّ هذه الرؤية أكثر من مجرّد تلك اللحظة، لحظة المفاجأة المنسية العابرة، المنسية آنيًا لأننا لا نشغل أنفسنا مطلقًا بالأمور التي لا معنى لها. هي تُظهر أنّ الزمن لا يمرّ. إنها وثبة إلى شيء سبق أن خبرناه وهو الآن يعاودنا.

اختفى سميل.

«عندما كان يخبرني عن القصر، انسحبتُ إلى الماضي لملّي من الثانية. أنا واثق أنّ ذلك حدث عندما كان يُخبرنا كيف أنّ أيَّ جرم ليس من مسؤولية القاتل وحده، بل كل أولئك الذين أوجدوا الشروط التي أمكن للجرم أن يحدث فيها. المرة الأولى التي التقيت فيها ج. عام ١٩٨٢، تحدّث عن الرابط الذي يربطني بوالده. لم يذكر الموضوع مطلقًا بعد ذلك، ونسيته أنا أيضًا. لكن، منذ لحظات معدودة، رأيتُ والده. وأفهم الآن ما عناه.

«في الحياة التي أخبرتني عن...؟».

«نعم، خلال محاكم التفتيش الإسبانية».

«ولّى هذا كلّه. لماذا تعذّب نفسك بشيء بات تاريخًا قديمًا الآن؟».

«لستُ أعذّب نفسي. تعلّمتُ منذ أمدٍ بعيد أنني، لكي أشفي

جراحي، عليّ أن أتحلّى بالشجاعة لمواجهتها. كما تعلّمتُ أن أصفح عن نفسي وأصوّب أخطائي. لكن، منذ بدأت هذه الرحلة، ينتابني إحساس بأنني في مواجهة أُحجية قطع هائلة، تتكشّف قطعها هذه الآن، قطع من الحب، من الحقد، من التضحية، من الغفران، من الفرح، من الأسى. لهذا السبب أنا معك هنا. أشعر بحالٍ أفضل بكثير الآن، كما لو أنني فعلاً في سعيٍ إلى روحي، إلى مملكتي، بدلاً من أن أقبع هنا وأتذمّر لأنني أعجز عن استيعاب كلّ ما تعلّمته. لا يسعني فعل هذا لأنني لا أفهمه تمامًا، لكن عندما أفعل، الحقّ سيحرّرني».

* * * *

يعود سميل حاملاً كتابًا. يجلس معنا، يُراجع ملاحظاته، ويُقلّب صفحات الكتاب بوقارٍ، متمتمًا كلماتٍ بالعربية.

يقول أخيرًا: «تحدّثتُ إلى ثلاثة فقهاء. قال اثنان منهم إنه بعد الموت، يذهب البارّ إلى الجنّة. غير أنّ الثالث قال لي بأن أرجع إلى آياتٍ من القرآن.

أرى أنّه متحمّس.

«إليك الآية الأولى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة البقرة ٢٨/٢).

يُقلّب صفحات القرآن الكريم بانفعالٍ جيّاش. ويترجم الآية التالية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

(سورة البقرة ١٥٤/٢)

«بالضبط!».

«ثـمّة آيات أخرى، لكن، صراحةً، لا أشعر بأنني مرتاح كثيرًا بالحديث عن هذا الآن. أفضّل أن أحدّثك عن تونس».

أقول: «أخبرتنا ما يكفي فعلاً. الناس لا يرحلون مطلقًا، نحنا هنا على الدوام في حيواتنا الماضية والمستقبلية. هذا مذكور في الإنجيل أيضًا. أذكر مقطعًا يُشير فيه يسوع إلى يوحنا المعمدان على أنه تجسيد إيليّا: (وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ تُصَدِّقُوا، فَإِنَّ [يُوحَنَّا] هَذَا، هُوَ إِيلِيَّا الَّذِي كَانَ رُجُوعُهُ مُنْتَظَراً). وثـمّة آيات أخرى في الموضوع نفسه».

يشرع في إخبارنا بعض الأساطير التي تحيط بتأسيس المدينة، وأفهم أنّ الوقت حان للذهاب ومواصلة سيرنا.

* * * *

فوق إحدى البوّابات في المدينة القديمة ثـمّة قنديل، يشرح سميل دلالته لنا:

«هذا أصل أحد أشهر الأمثال العربية: النور يقع على الغريب فقط».

يقول إنّ المثل يوافق وضعنا تـمامًا الآن. يودّ سميل أن يصبح كاتبًا وهو يكافح للحصول على التقدير في بلده، في حين أنني، الكاتب البرازيلي، معروف أصلاً هنا.

أقول له إنّ في ثقافتنا مثلاً مشابـهًا: «لا قيمة لنبيّ في أرضه». إنّنا

ننزع دومًا إلى تقدير ما يصلنا من بعيد، ولا نقدّر يومًا الجمال من حولنا».

أتابع: «مع أنّه أحيانًا، نحتاج إلى أن نكون غرباء عن أنفسنا. عندئذٍ، سيُنير النور في روحنا ما نحتاج إلى رؤيته».

تبدو زوجتي وكأنها لا تتابع الحديث، ولكن، في لحظة ما، تتوجّه إليّ وتقول:

«ثمّة أمر في هذا القنديل، لا يسعني أن أشرح تمامًا ماهيّته، لكنه أمر يرتبط بوضعك الآن. ما إن أتصوّر ما هو، سأخبرك».

* * * *

ننام لبعضٍ من الوقت، نتناول العشاء مع أصدقاء لنا، ونخرج في نزهة أخرى سيرًا في المدينة. عندئذٍ تتمكّن زوجتي من شرح ما شعرت به خلال عصر اليوم:

«أنت تسافر، لكنك في الوقت نفسه، لم تترك منزلك بعد. ما دمنا معًا، ستظلّ هذه هي الحال، لأنّ إلى جانبك شخصًا يعرفك، وهذا يمنحك حسًا زائفًا من الأُلفة. آن الأوان لتتابع وحدك. قد تجد الوحدة ثقيلة الوطأة، تفوق الاحتمال، لكن ذاك الشعور سيزول تدريجًا فيما تبقى على تواصل مع أناسٍ آخرين».

بعد وقفة، تُضيف:

«قرأتُ مرّة أنّه في غابة من مئة ألف شجرة، لا توجد ورقتان متشابهتان. ولا رحلتان على الدرب نفسه، متشابهتان. إذا استمرّينا

في السفر معًا، محاولَين أن نُوائم الأمور لتناسب نظرتنا إلى العالم، لن يستفيد أيٌّ منا. لذلك، أمنحك بركتي وأقول: سأراك في ألمانيا لحضور المباراة الأولى من كأس العالم!».

إنْ هبّت ريحٌ باردة

لدى وصولي إلى فندق موسكو مع ناشريّ ومحرّرتي، تكون شابة في انتظاري خارجًا. تتقدّم نحوي وتُمسك بيديّ بين يديها.

«أريد التحدّث إليك. قطعتُ كلّ المسافة من ييكاتيرينبرغ لفعل هذا فقط».

أنا تعب. استيقظتُ أبكر من المعتاد وكان عليّ تبديل الطائرات في باريس لعدم توافر رحلة مباشرة. حاولت أن أنام خلال الرحلة، لكن كلّما غلبني النوم، أقع في الحلم المتكرّر المزعج نفسه.

يقول لها ناشري إنّ جلسة توقيع كتاب ستُقام غدًا، وفي غضون ثلاثة أيام، سنكون في ييكاتيرينبرغ، المحطة الأولى من سفري في القطار. أمدّ يدي لأودّعها وألاحظ أنّ يدها باردة جدًا.

«لماذا لم تنتظريني في الداخل؟».

ما أودّ فعلاً سؤاله هو كيف عرفت في أي فندق أنزل؟ لكن لربما لن يكون ذلك بالغ الصعوبة، وهي ليست المرة الأولى التي يحصل فيها شيء مماثل.

«قرأتُ مدوّنتك منذ فترة وأدركتُ أنكَ كنتَ تتكلّم إليّ مباشرة».

كنت بدأت بكتابة خواطري عن الرحلة في مدوّنة.كانت لا

تزال في مرحلة تجريبية، وبما أنني كتبتُ المقاطع قبل الأوان، لم أدرِ إلى أيّ مقالة كانت تشير. ومع هذا، من المؤكّد أنّ ما من إشارة إليها في المقالة، لأنني التقيتها من بضع ثوانٍ فقط.

تُخرج قطعةً من ورقة تحتوي المقالة. أعرفها عن ظهر قلب، مع أنني لا أذكر من أخبرني القصة. رجلٌ يُدعى علي في حاجة إلى المال ويطلب إلى رئيسه في العمل أن يساعده. يضعه الرئيس أمام تحدٍ:

إن تمكّن من قضاء الليل بأكمله على قمة جبل، ينل مكافأة عظيمة، وإن أخفق، يكن عليه العمل بلا مقابل. تتابع القصة:

عندما ترك علي المحل، لاحظ هبوب ريح قارسة. خاف وقرّر أن يسأل صديقه الحميم عيدي إن كان يعتقد أنه مجنون لقبول الرهان. أجابه عيدي بعد التفكُّر في المسألة للحظة: «لا تقلق، سأساعدك. ليل الغد، عندما تقبع عند قمة الجبل، انظر أمامك مباشرة. سأكون على قمة الجبل المقابل، حيث سأُبقي على نار مشتعلة طول الليل لأجلك. انظر إلى النار وفكّر في صداقتنا، وسيُبقيك ذلك دافئًا. سوف تصمد الليل وما بعده، وسأطلب منك شيئًا في المقابل».

ربح علي الرهان، وحصل على المال، وذهب إلى منزل صديقه.

«قلتَ إنك أردتَ مكافأة ما في المقابل».

قال عيدي: «نعم، لكنها ليست مالاً. عِدني أنّكَ، إنْ حدث وهبّت ريحٌ باردة على حياتي، ستُشعل نار الصداقة من أجلي».

أشكر الشابة على لطفها وأخبرها أنني شديد الانشغال، لكن إنْ كانت تودّ حضور جلسة التوقيع الوحيدة التي سأقيمها في موسكو، أكن سعيدًا لتوقيع كتاب لها.

«ليس هذا سبب مجيئي. أعلم عن رحلتك في القطار عبر روسيا، وسأذهب معك. عندما قرأتُ أوّل كتبك، سمعتُ صوتًا يقول إنّك أشعلت يومًا نارًا مقدّسة من أجلي وإنّه يومًا ما سيكون عليّ أن أردّ الجميل. حلمتُ بتلك النار ليلةً تلو ليلة وحتى أنني فكرّت في الذهاب إلى البرازيل لأجدك. أعرف أنك في حاجة إلى المساعدة، ولهذا أنا هنا».

يضحك مَن معي. أحاول أن أكون مهذّبًا، فأقول إنني واثق من أننا سنرى بعضنا في اليوم التالي. يشرح ناشري لها أنّ أحدهم في انتظاري، وأتذرّع بذلك لأودّعها.

«اسمي هلال»، تقولها قبل أن ترحل.

بعد عشر دقائق، أنا في غرفتي في الفندق وقد نسيتُ الفتاة التي قاربتني خارج الفندق. أعجز حتّى عن تذكّر اسمها، وإذا التقيت بها الآن، فلن أتعرّفها. لكن، ثمّة ما جعلني شبه منزعج: في عينيْها، رأيت الحب والموت في آن.

أخلع ثيابي كلها، أفتح المرشة وأقف تحت الماء، أحد طقوسي المفضّلة.

أثبّت رأسي في وضعيّة بحيث لا أسمع سوى صوت الماء في أذنيّ، الماء يقتطعني من كلّ شيء، ينقلني إلى عالم مختلف. كقائد فرقة موسيقية يعي كلّ آلة في الأوركسترا، أبدأ بتمييز كلّ صوت، وكلّ صوت يصبح كلمة. أعجز عن فهم تلك الكلمات، لكني أعرف أنّها موجودة.

يزول التعب، والقلق والشعور بالضياع الذي يرافق زيارة كثيرٍ من البلدان المختلفة. مع كل يوم يمرّ، أستطيع أن أرى الرحلة الطويلة وهي تحقّق النتيجة المنشودة. كان ج. على حقّ. كنت أسمح لنفسي أن تسممّها الرتابة ببطء: الاستحمام كان مجرّد غسل لبشرتي كي تنظف، والطعام مجرّد غذاء لجسمي، والغرض الأوحد من المشي هو تفادي مشكلات في القلب مستقبلاً.

الآن، الأمور تتغيّر، لاحسيًا، لكنها تتغيّر. تناول الطعام هو وقت يمكنني فيه أن أبجّل وجود الأصدقاء وتعاليمهم؛ المشي هو مرّة أخرى تأمّل في اللحظة الحاضرة؛ وصوت الماء في أذنيّ يُسكت أفكاري، يُهدّئني ويجعلني أتعلّم من جديد أنّ هذه اللفتات اليومية الصغيرة هي ما يقرّبنا إلى الله، ما دام لي أن أعطي كلّ لفتة القيمة التي تستحقها.

عندما قال لي ج. «اترك حياتك المريحة واسعَ إلى مملكتك»، شعرتُ بالخيانة، بالارتباك، بالهجر. كنت آمل الحصول على حلّ أو إجابة عن شكوكي، شيء يُعزّيني ويساعدني على الشعور بسلام مع روحي من جديد. أولئك الذين ينطلقون سعيًا إلى مملكتهم يعرفون أنهم سيواجهون، عوضًا عنها، التحدّيات فقط، وفتراتٍ طويلةً من الانتظار، وتغيّراتٍ لا متوقّعة، أو اسوأ، لا شيء.

انا أبالغ. إنْ سعينا إلى شيء، فالشيء ذاته يسعى إلينا.

مع ذلك، عليك أن تكون مستعدًا لكل شيء. في هذه اللحظة، أتخذ القرار الذي كان عليّ اتخاذه؛ حتى ولو لم أجد شيئًا على هذه الرحلة في القطار، سأُكملها، لأنّني عرفتُ منذ لحظة الإدراك في الفندق في لندن أنّه، رغم جهوزية جذوري، فإنّ روحي لا تزال تتوق ببطء لشيء يصعب رصده للغاية، ويصعب أكثر حتى علاجه.

الرتابة.

لا دخل للرتابة بالتكرار. لكي تصبح ماهرًا في أي شيء، عليك أن تتمرّن وتُكرّر، تتمرّن وتُكرّر، إلى أن تصبح التقنية حدسيّة. تعلّمتُ هذا عندما كنت صغيرًا، في بلدة صغيرة في داخل البرازيل، حيث تعوّدت عائلتي قضاء عطلة الصيف. أدهشني عمل حدّاد كان يعيش على مقربة. كنتُ أجلس، لما كان يبدو وكأنه أبدية، أشاهدُ مطرقته ترتفع وتسقط على الحديد الحامي، مُبعثرة الشرارات في كل مكان كألعابِ نارية. ذات مرّة، قال لي:

«على الأرجح أنك تظن بأنني أقوم بالأمر نفسه مرارًا وتكرارًا، أليس كذلك؟».

قلتُ: «نعم».

قال: «أنت على خطأ. في كل مرة أُنزِل فيها المطرقة، تكون شِدّة الطَرق مختلفة. أحيانًا أشدّ، وأحيانًا أرقّ. لكنني لم أتعلّم هذا إلا بعد تكراري الحركة نفسها لسنوات عدّة، إلى حين حلّت اللحظة التي لم أعد أُضطّر إلى التفكير فيها، أترك يدي ببساطة تُرشد عملي».

لم أنسَ تلك الكلمات يومًا.

تشاركُ الأرواحِ

أنظرُ إلى كلِ من قرّائـي. أمدّ يدي وأشكرهم على حضورهم. قد يكون جسمي مسافرًا، ولكن عندما تحلّق روحي من مدينة إلى مدينة، لا أكون وحيدًا مطلقًا؛ أنا كلّ الناس الذين ألتقي والذين فهموا روحي عبر كُتبي. لستُ غريبًا هنا في موسكو، أو في لندن، أو صوفيا، أو تونس أو كييـف أو سانتياغو دي كومبوستيلا أو غيمارايس أو أيّ من المدن الأخرى التي زرتـها الشهر ونصف الشهر الماضي.

أسمع جدالاً من خلفي، لكنّني أحاول التركيز في ما أقوم به. غير أن الجدال لا يُبشّر بختام. أخيرًا، أستدير وأسأل ناشري ما المشكلة.

«إنـها فتاة الأمس. تقول إنـها تريد أن تكون بقربك».

لا أستطيع حتى تذكّر فتاة الأمس، لكني أطلب إليهما أن يكفّا عن الجدال. أواصل توقيع الكتب.

يجلس أحدهم قربي، ليأتي أحد حرّاس الأمن ويزيحه، ويُستأنف الجدال. أتوقّف عمّا أقوم به.

قربي الفتاة التي تتحدّث عيناها حبًا وموتاً. لأول مرّة، أنظر إليها نظرةً فاحصة: شعر داكن، ما بين الاثنين وعشرين والتسعة

وعشرين عاما (لا أجدي نفعًا في تقدير عمر الناس)، سترة جلدية رثّة، بنطال جينز وحذاء رياضي.

يقول رجل الأمن: «لقد تحقّقنا من حقيبة الظهر. ولا شيء يُقلق. لكنها لا تستطيع البقاء هنا».

تبتسم الفتاة وحسب. وقارىء ينتظر أن تنتهي هذه المحادثة لكي أوقّع كتبه. أدرك أنّ الفتاة لن تغادر.

«إسمي هلال، الا تذكر؟ جئتُ لأُشعل النار المقدّسة».

اكذب واقول: نعم، بالطبع أذكر. يبدا صبر الناس المصطفّين بالنفاد. يقول القارىء في أول الصف لها شيئًا ما بالروسية، ومن نبرة صوته، أُحسّ انه لم يكن مسروراً جدًا.

في اللغة البرتغالية قول مفاده: «ما لا يمكن علاجه، لا بدّ من تحمّله». بما أنني لا أملك الوقت للجدال الآن وعليّ أن أتّخذ قرارًا سريعًا، أطلب إليها ببساطة ان تتنحّى قليلاً، لكي أحصل على بعض الخصوصيّة مع الناس المنتظرين. تفعل ما طُلب، وتقف على مسافة معتدلة مني.

بعد ثوانٍ، أجدني نسيتُ مرّةً أخرى وجودها وأركّز على المهمّة بين يديّ. يشكرني الجميع وأردّ لهم الشكر، وتمرّ الساعات الأربع وكأنني في الجنّة. آخذ استراحة لتدخين سيجارة كل ساعة، لكنني لستُ تعبًا البتّة. أغادر كل جلسة توقيع كتاب وبطّارياتي معادة الشحن وطاقتي أشدّ من ذي قبل.

لاحقًا، أطلب التصفيق للمنظّمين. حان الوقت للانتقال إلى ارتباطي التالي. والفتاة التي نسيتُ وجودها، تتوجّه إليّ.

تقول: «ثمة أمر مهمّ لأريك إياه».

أقول: «لن يكون هذا ممكنًا. عليّ تلبية دعوة عشاء».

تردّ: «إنه ممكن تمامًا. إسمي هلال. كنت أنتظرك أمس خارج الفندق. وأستطيع أن أريك ما أريد أن أريك هنا والآن، فيما تنتظر موعد مغادرتك».

وقبل أن أتمكّن من الإجابة، تُخرج كمانًا من حقيبة ظهرها وتبدأ بالعزف.

القرّاء الذين بدأوا يتباعدون، يرجعون لحضور هذا الحفل الموسيقي الارتجالي. تعزف هلال وعيناها مغمضتان، كما لو أنها في حالة انخطاف. أشاهد قوس الكمان تتحرّك إلى أمام وخلف، تلامس الأوتار بخفّة وتبعث تلك الموسيقا التي، وإن لم أسمعها قط من قبل، فهي تقول لي ولجميع من حضر أنّ علينا الاستماع. أحيانًا تتوقّف لبرهة، أحيانًا تبدو وكأنها مُنتشية، أحيانًا يتراقص كامل كيانها مع الآلة، لكن في معظم الأحيان، ما يتحرّك هو أعلى جسمها ويداها.

كلّ نوتّة تترك في كلٍّ منا ذكرى، لكنّه النغم بكلّيته ما يُخبر قصة، قصة شخص ما يريد الاقتراب من آخر، ويثابر على محاولاته رغم الصدّ المتكرّر. فيما هلال تعزف، أتذكّر المناسبات الكثيرة التي

أتتني فيها المساعدة من أولئك الناس تحديدًا، الذين اعتقدتُ أنهم لا يملكون ما يضيفونه إلى حياتي.

عندما تتوقّف عن العزف، لا يعلو تصفيق، لا شيء، مجرّد صمت محسوس.

أقول: «أشكرك».

«لقد تشاركتُ بعضًا من روحي، ولكن لا يزال لديّ الكثير لأفعله قبل أن يتسنّى لي إنجاز مهمّتي. هل لي أن أرافقك؟».

عمومًا، يحثُّ اللّجوجون فيّ ردّيْ فعل: إما أن أدير ظهري وأبتعد، وإما أسمح لنفسي أن تنسلب. لا أستطيع أن أقول لأحدهم إنّ أحلامه مستحيلة. لا يملك الجميع القوّة الذهنية التي أبدتها مونيكا في المقهى في كاتالونيا، وإن كنتُ لأُقنع شخصًا واحدًا فقط أن يكفّ عن الكفاح من أجل شيء هو مقتنع بأنه جدير بالكفاح، سينتهي بي الأمر إلى إقناع نفسي، وستكبو حياتي كلّها.

كان هذا اليوم مُرْضيًا جدًا. أُهاتف السفير البرازيلي وأسأله إن كان يستطيع ضمّ ضيف إضافي إلى العشاء. يوافق بلطف كبير قائلاً إنّ قرّائي يُمثّلونني.

* * * *

على الرغم من الجو الرسمي، يتمكّن السفير من إراحة الجميع. تصل هلال مرتديةً لباسًا أعتبره يفتقر إلى الحدّ الأدنى من الذوق، كلّه ألوان مبهرجة، صارخة التباين مع لباس الضيوف الآخرين.

ولجهل المنظّمين أين لهم أن يُجلسوا هذه الواصلة في آخر لحظة، خلصوا إلى إجلاسها في مقعد الشرف، بجانب مُضيفنا.

قبل أن نجلس لتناول العشاء، يشرح لي صديقي الروسي الحميم- وهو صناعي- أننا سنواجه مشكلات مع الوكيلة الفرعية، التي قضت كامل حفلة الكوكتيل السابقة للعشاء تُجادل زوجها عبر الهاتف.

«عمّ تحديدًا؟».

«يبدو أنّك وافقت على الذهاب إلى النادي الذي يديره، لكنك ألغيت الموعد في آخر لحظة».

كان ثمة أمر ما في مفكّرتي إلى جانب هذا السطر «ناقش قائمة الطعام للرحلة عبر سيبيريا»، وقد كان آخر اهتماماتي في عصر يومٍ تلقّيتُ خلاله الطاقة الإيجابية وحسب. ألغيتُ الاجتماع لأنه بدا تافهًا للغاية، لم يسبق لي أن ناقشتُ قوائم الطعام في حياتي كلّها. فضّلتُ العودة إلى الفندق، والاستحمام، وترك صوت الماء يحملني إلى أماكن لا يسعني أن أفسّرها حتى لنفسي.

يُقدَّم العشاء، وتدور أحاديث متوازية حول المائدة. وفي لحظةٍ ما، تسأل زوجةُ السفير هلال عن نفسها.

«وُلدتُ في تركيا وأتيتُ ييكاتيرينبرغ لأدرس العزف على الكمان عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. أعتقد أنكِ تعرفين كيف يُصطفى الموسيقيون؟».

لا، زوجة السفير لا تعرف. فجأةً، تبدو الأحاديث المتوازية

في انـحسار. لربـما الجميع مهتمّون بتلك الشابة الغريبة بالثياب المبهرجة.

«أيُّ ولد يبدأ بالعزف على آلة، عليه أن يتمرّن لعددٍ معيّن من الساعات في الأسبوع. عند تلك المرحلة، يُعتبر كل هؤلاء الأولاد قادرين على الأداء في أوركسترا ذات يوم. فيما يكبرون، يبدأ البعض بالتمرّن أكثر من سواهم. في النهاية، تخرج مجموعة صغيرة فقط من الطلبة المتميّزين، ممن يتمرّنون نحو أربعين ساعة في الأسبوع. يزور مستكشفون من فرق الأوركسترا الكبرى معاهد الموسيقا بـحثًا عن مواهب جديدة، وتُستدعى هذه المواهب على أثره لتصبح محترفة. هذا ما جرى معي».

يقول السفير: «يبدو وكأنكِ وجدت دعوتك. لسنا جميعًا محظوظين هكذا».

«لـم تكن هذه دعوتي بالضبط. بدأتُ أتـمرّن كثيرًا لأنني تعرّضتُ إلى إساءة جنسية عندما كنتُ في العاشرة».

تتوقّف كل الأحاديث حول المائدة. يحاول السفير تغيير الموضوع ويتلفّظ بتعليق ما حول تفاوض البرازيل مع روسيا بشأن تصدير الآليات الثقيلة واستيرادها. لكن لا أحد، لا أحد البتّة، يبدي اهتمامًا بـميزانية بلدي التجارية. عليّ أن ألتقط طرف القصة.

«هلال، إن كنتِ لا تـمانعين، أعتقد أنّ الجميع هنا سيكونون مهتّمين بـمعرفة العلاقة بين امرئٍ كان ضحية إساءة جنسية في عمر يافع، واصبح ميّالاً للعزف على الكمان».

تسأل زوجة السفير، في محاولة أخيرة يائسة لإدارة دفّة الحديث في اتجاه آخر: «ما معنى اسمك؟».

«في اللغة التركية، يعني الـمُحاق. إنه الرمز الذي يعلو علمنا الوطني. والدي كان قوميًا مخلصًا. في الواقع، إنه اسم يشيع بين الفتيان أكثر منه بين الفتيات. له معانٍ أخرى بالعربية على ما يبدو، لكني أجهلها».

أرفضُ أن يتمّ تجاهلي.

«بالعودة إلى ما كنّا نتكلّم عنه، هل تمانعين أن تشرحي؟ إننا كعائلة».

عائلة؟! معظم الناس هنا تلاقوا للمرة الأولى على العشاء.

يبدو الجميع فجأة شديدي الانشغال بأطباقهم، وأدوات المائدة والكؤوس، يدّعون التركيز على الطعام، لكنهم توّاقون لمعرفة باقي القصة. تتكلّم هلال وكأن ما تتحدّث عنه هو أكثر الأمور طبيعيّة في العالم.

«كان جارًا لنا، ظنّه الجميع لطيفًا وخدومًا، رجلاً صالحًا يمكنهم اللجوء إليه في حالات الطوارئ. كان متزوجًا ولديه ابنتان بعمري. كلّما ذهبت إلى منزله لألعب معهما، كان يضعني على ركبته ويقصُّ عليّ قصصًا جميلة. وفيما كان يفعل هذا، كانت يده تهيم في أنحاء جسمي كلّها، بدايةً اعتبرت ذلك إشارة عطف. ولكن مع مرور الوقت، أخذ يلمسني بين ساقيّ ويطلب إليّ أن ألمس قضيبه، وأمورًا مشابهة».

تنظر هلال إلى النساء الخمس حول الطاولة وتقول:

«أمرٌ رائج، للأسف. ألا توافقنني الرأي؟».

لا يُجِبن، لكن غريزتي تقول لي إنّ واحدة، أو اثنتين، بينهن قد اختبرت أمرًا مماثلاً.

«على أي حال، لم تكن هذه هي المشكلة. الأسوأ أنني بدأت أستمتع بذلك، مع أنني علمتُ أنه خطأ. وذات يوم، قرّرت ألا أعود إلى هناك، مع أنّ والديّ قالا لي إنّه يجدر بي اللعب مع ابنتي الجيران. في ذلك الوقت كنت أتعلّم العزف على الكمان ولذلك قلت لهما إنني لم أكن أُبلي حسنًا في حصصي الصفّية وإن عليّ التمرّن أكثر. أخذتُ أعزف مكرهةً يائسةً».

لا أحد يأتي بحركة. لا أحد يعرف ما يقول.

«وبما أنني حملتُ كلّ ذلك الذنب، لأنّ الضحايا يخلصون دومًا إلى اعتبار أنفسهم المذنبين، قرّرتُ أنّ أواظب على معاقبة نفسي. لذا، في علاقاتي مع الرجال، سعيتُ دومًا إلى العذاب، والخلاف واليأس».

تنظر إليّ مباشرةً، ويلاحظ ذلك كلّ من إلى المائدة.

«لكن سيتغيّر هذا الآن، أليس كذلك؟».

وإذْ كنت ممسكًا بزمام الموقف حتى تلك اللحظة، أفقد السيطرة فجأة. كلّ ما أستطيع فعله هو التمتمة: «نعم، حسنٌ، آمل ذلك»، وأوجّه دفّة الحديث إلى المبنى الجميل الذي تحتلّه السفارة البرازيلية في روسيا.

* * * *

عند مغادرتنا، أسأل هلال أين تقيم، وأتأكد من صديقي الصناعي إن كان لا يُمانع في اصطحابها إلى المنزل قبل إيصالي إلى الفندق، فيوافق.

«أشكركِ على العزف، وأشكركِ على تشارك قصّتك مع مجموعة من الغرباء. كل صباح، عندما يكون ذهنك صافيًا، خصّصي وقتًا بسيطًا لله. في الهواء قوّة كونيّة تتفرد كل ثقافة بإعطائها اسمًا مختلفًا، لكن هذا لا يهمّ. المهمّ أن تفعلي ما أقوله لك الآن. خذي نفسًا عميقًا واسألي كلّ البركات في الهواء أن تدخل جسدك وتملأ كلّ خليّة فيه. ثمّ ازفري ببطء، مُسقطةً السعادة والسلام على ما حولك. كرّري هذا عشر مرّات. سوف تسهمين في شماء نفسك وفي شفاء العالم أيضًا».

«ما قصدك؟».

«لا شيء. قومي بالتمرين فحسب. سوف تستأصلين تدريجًا مشاعرك السلبية تجاه الحبّ. لا تدعي لقوّة، وُضعت في قلوبنا بحيث تجعل كل شيء أفضل، أن تدمّر نفسك. اشهقي، مُستنشقةً كلّ ما يوجد في السماوات وعلى الأرض. وازفري جمالاً وخصوبة. ثقي بي وستفلحين».

تقول هلال غاضبة: «لم آتِ إلى هنا لكي أتعلّم تمرينًا يسعني إيجاده في اي كتابٍ عن اليوغا».

في الخارج، مشاهد موسكو تعبر أمامنا. ما أودّه فعلاً هو الهيام

في الشوارع وتناول القهوة في مكان ما، لكنّ اليوم كان طويلا وعليّ النهوض باكرًا في الغد لإتمام سلسلة من الارتباطات.

«أستطيع مرافقتك إذًا؟».

ألا يسعها التحدّث في أمرٍ آخر؟ تعرّفت إليها منذ أقلّ من أربع وعشرين ساعة، إن كان للمرء أن يدعو هذا اللقاء الغريب معرفة. يضحك صديقي، لكني أحاول أن أظلّ جديًّا.

أقول بتردّد: «اسمعي، لقد اصطحبتكِ إلى العشاء الذي أقامه السفير، أوليس ذلك كافيًا؟ لا أقوم بهذه الرحلة لترويج كتبي. أفعل ذلك لأسباب شخصيّة».

«نعم، أعرف».

في أسلوب قولها ذلك ما يُشعرني أنّها تعرف بحقّ، لكني أختار ألاّ أتبع غريزتي.

تتابع هلال: «جعلتُ كثيراً من الرجال يعانون، وعانيتُ كثيرًا أيضًا. نور الحبّ يتدفّق خارج روحي، لكنّه يعجز عن الذهاب إلى أي مكان لأنّ الألم يعيقه. أستطيع أن أستنشق وأزفر كل صباحٍ ما حييت، لكنّ ذلك لن يحلّ أي شيء. حاولتُ التعبير عن حبّي عبر الكمان، لكنّ ذلك لا يكفي أيضًا. أعرف أنّ في وسعك شفائي وفي وسعي شفاؤك مما تشعر به. أشعلتُ النار على الجبل قبالتك، لكَ أن تعتمد عليّ».

ما الذي دعاها إلى قول ذلك؟

قالت: «ما يؤذينا يشفينا. قَسَتِ الحياةُ عليّ كثيرًا، ولكنْ في الوقت نفسه، علّمتني الكثير. أنتَ تعجز عن رؤية ذلك، لكنّ جسمي يطفح جراحًا مفتوحة نازفة أبدًا. أستيقظُ كلّ صباحٍ راغبةً في الموت قبل انقضاء النهار، لكنّي أحيا بعد، في معاناةٍ وكفاح، كفاحٍ ومعاناة، متشبّثةً بيقين أنّ كلّ هذا سينتهي يومًا ما. أرجوك، لا تتركني هنا وحدي. هذه الرحلة خلاصي».

يوقف صديقي السيارة، يضع يده في جيبه ويُعطي هلال رزمةً من الأوراق النقدية.

يقول: «هو لا يملك القطار. خذي هذه، لا بدّ أن تكون أكثر من كافيةٍ لشراء تذكرةٍ من الدرجة الثانية وثلاث وجبات في اليوم».

ومتوجّهًا إليّ، يقول:

«أنت تعرف مدى الألم الذي ينتابني الآن. المرأة التي أحبّها ماتت، وأستطيع انا أيضًا أن أستنشق وأزفر ما حييت، لكني لن أسعد فعلاً بعد اليوم. جراحي مفتوحة ونازفة أيضًا. أفهم بالضبط ما تقوله هذه الشابة. أعرف أنك تقوم بهذه الرحلة لأسباب شخصيّة تمامًا، لكن لا تتركها وحدها على هذه الحال. إن كنتَ تؤمن بالكلمات التي تكتب، دعِ الناس من حولك ينمون معك».

أقول لها: «حسنٌ، لا بأس. هو على حقّ، لا أملك القطار، لكني أريدك أن تعلمي أنني سأكون محاطًا بالناس معظم الوقت، لذلك لن نحظى بفرص كثيرة للكلام».

يُدير صديقي محرّك السيارة مجدّدًا ويقود لربع ساعة إضافية بصمت. نبلغ ساحة افترشها ورق الشجر. تشير إليه أين يتوقّف، تقفز من السيارة وتقول وداعاً. أخرجُ من السيارة وأرافقها إلى باب المنزل حيث تقيم مع أصدقاء لها.

تطبع قبلةً خاطفةً على شفتيّ.

تقول مبتسمة: «صديقك على خطأ، لكني لو بدوت شديدة السعادة، لاسترجع نقوده. معاناتي لا تُقارن بـمعاناته. وسعادتي الآن أكبر من أي سعادة عرفتها، لأنـّي تبعتُ الإشارات. كنتُ صبورة، وأعرف أنّ هذا سيُغيّر كل شيء».

تستدير وتدخل المبنى.

عندئذٍ فقط، فيما أمشي عائدًا إلى السيارة، أنظر إلى صديقي الذي خرج منها ليدخّن سيجارة مبتسمًا لأنه رأى تلك القبلة الخاطفة، عندئذٍ فقط، فيما أُصغي إلى الريح الـمنسلّة في الشجر الذي انبعثت فيه الحياة بقوّة الربيع، أعي أنني في مدينة لا أعرفها جيدًا، لكني أحبّها، عندئذٍ فقط، فيما أبحث عن سيجارة داخل جيبي، وأفكّر أنني سأنطلق غدًا في مغامرة طال حُلُمي بها، عندئذٍ فقط...

...عندئذٍ فقط تذكّرت تحذير المستبصر الذي التقيته في منزل فيرونيك. كان قد قال شيئًا عن تركيا، لكني لا أتذكّره.

٩٢٨٨

سكة الحديد ترانس-سيباريان إحدى أطول السكك الحديد في العالم، ولك أن تبدأ الرحلة من أي محطة في أوروبا. يبلغ طول القطاع الروسي ٩٢٨٨ كيلومترًا، واصلاً مئات المدن، صغيرةً وكبيرةً بعضها ببعض، ويجتاز ٧٦ في المئة من البلاد، ويعبر سبع مناطق زمنية مختلفة. بدخولي محطة القطار في موسكو، في الحادية عشرة ليلاً، كان الفجر قد طلع في ڤلاديڤوستوك، وجهتنا الأخيرة.

حتى نهاية القرن التاسع عشر، قلّ المسافرون الذين كانوا يغامرون في الذهاب إلى سيبيريا التي تحمل الرقم القياسي في الحرارة الأدنى المسجّلة تاريخًا في مكان مأهول دائمًا، إذ تبلغ في بلدة أومياكون ٧٢,٢ درجة تحت الصفر. كانت الأنهر- التي ربطت المنطقة بسائر العالم- وسيلة النقل الوحيدة، لكنها كانت تتجمّد على مدى ثمانية أشهر في السنة. عاش سكان آسيا الوسطى في عزلةٍ تامةٍ تقريبًا، مع أنها كانت مصدر معظم الثروة الطبيعية للأمبراطورية الروسية سابقًا. لأسباب استراتيجية وسياسية، وافق ألكسندر الثاني على تشييد السكة الحديد، والتي لم يضاهِها كلفةً سوى ميزانية الجيش الأمبراطوري العسكري خلال الحرب العالمية الأولى كلّها.

خلال الحرب الأهلية التي نشبت في أعقاب الثورة الشيوعية من عام ١٩١٧، أضحت السكة الحديد محور القتال. استخدمت القوات الموالية للأمبراطور المخلوع، وتعيينًا اللواء التشيكي، المقطورات المصفّحة، التي كانت بمثابة دبّابات على سكة، واستطاعت بذلك أن تردّ هجمات الجيش الأحمر بسهولة، طالما كانت تُمدّ بالذخائر والأسلحة والمؤن من الشرق. حدث هذا عندما أُرسل المخرّبون لنسف الجسور وقطع سبل المواصلات. ودُفع بالقوات الموالية للأمبراطور إلى خارج القطر الروسي واجتاز كثير منهم ألاسكا إلى كندا، ومنها تشتّتوا في بلدان أخرى.

عندما دخلت المحطة في موسكو، كان ثمن التذكرة من أوروبا إلى المحيط الهادىء في حجرة يتشاركها ثلاثة آخرون، يراوح بين ثلاثين يورو وستين.

* * * *

الصورة الأولى التي التقطتها كانت لوحة المغادرة وهي تشير إلى وقت مغادرة قطارنا عند الساعة الحادية عشرة والربع! كان قلبي يخفق بسرعة، كما لو أنني رجعتُ ولدًا، أشاهد قطاري اللعبة يتحرّك حول الغرفة مُحدثًا أصواتًا مدوّية، مرتحلاً بفكري إلى مناطق بعيدة كالتي أجد نفسي فيها الآن.

بدأ حديثي مع ج. في سان مارتان منذ ما يفوق ثلاثة أشهر فحسب، وكأنه قد حدث في تجسُّد سابق. يا للأسئلة الغبية التي

طُرحت! ما معنى الحياة؟ لـمَ أعجز عن التقدّم؟ لـمَ يـمضي العالم الروحاني أبعد وأبعد؟ لا يمكن للإجابة أن تكون أسهل، لأنني لم أكن أحيا فعلاً!

ما أحلى أن رجعتُ ولدًا، أشعر بدمي يجري في عروقي، وعينيّ تبرقان، مبتهجتين لرؤية مدخل المحطة المسقوف المكتظ ناسًا، ورائحة الزيت والطعام، وصفير المكابح، فيما يصل قطار إلى المحطة، وحدّة أصوات شاحنات الحقائب الصغيرة، والصافرات.

أن تعيش يعني أن تختبر أمورًا، لا أن تتقاعس وتفكّر في معنى الحياة. من الواضح أنّ عبور آسيا، أو اتخاذ الدرب إلى سانتياغو، حاجة مقتصرة على بعض الناس. عرفتُ رئيس ديرٍ في النمسا نادرًا ما غادر ديره في مدينة مِلك، لكنّه فهم العالم أفضل بكثير من مسافرين كثيرين التقيتهم. لي صديق اختبر تجلّياتٍ روحانيةً عظيمةً بمجرد مشاهدة أولاده ينامون. عندما تبدأ زوجتي العمل على لوحة رسمٍ جديدة، تدخل في نوعٍ من الانخطاف وتتحدّث إلى ملاكها الحارس.

لكنّي وُلدتُ حاجًا. حتى عندما أشعر بالكسل فعلاً أو أشتاق إلى وطني، كلّ ما يلزمني هو خطوة واحدة لتحملني حماسة الرحلة. في محطة ياروسلافل، في طريقي إلى المدخل المسقوف رقم ٥، أُدرك أنني لن أبلغ هدفي بالمكوث في المكان عينه كلّ الوقت. لا يسعني التحدّث إلى روحي، إلاّ عندما يكون كلانا قد انطلق مستكشفًا صحارى أو مدنًا أو جبالاً أو دروبًا.

سنكون في المقطورة الأخيرة، التي ستوصَل بغيرها وتُفصل عنها في محطات مختلفة على الدرب. لا أستطيع رؤية المحرّك حيث أنا، كلّ ما أراه هو أسلاك القطار الحديدية العملاقة وركّاب آخرون مختلفون- منغوليون، تتر، روس، صينيون- بعضهم جالسون على صناديق ضخمة، وكلّهم ينتظرون أن تنفتح الأبواب. يدنو الناس مني، لكني أبتعد. لا أريد التفكير في أي أمرٍ آخر، عدا واقع أنني هنا، الآن، مستعدّ لانطلاقة أخرى، لتحدّ جديد.

★★★★

لا بدَّ أن لحظة الانتشاء الطفولي هذه دامت خمس دقائق على الأبعد، لكني استوعبتُ كلّ تفصيلٍ، كلّ صوتٍ، كلّ رائحة. لن أتمكّن من تذكّر أي شيء بعدها، لكن ذلك قلّما يهمّ: ليس الوقت شريط مسجّلة يمكن لفّه وإعادة لفّه.

لا تفكّر في ما سيقوله الناس لاحقًا. الوقت هو الـ"الهنا" و"الآن". استفد منه إلى أقصى حدّ.

أُقارب باقي المجموعة وأُدرك أنّ أفرادها جميعًا على قدر حماستي. أُعرّف بالمترجم الذي سيرافقني في السفر. اسمه ياو. وُلد في الصين، لكنه ذهب إلى البرازيل لاجئًا خلال الحرب الأهلية في بلاده. ثمّ درس في اليابان، والآن هو أستاذ لغةٍ متقاعد من جامعة موسكو. لا بدّ أنه في السبعين من عمره تقريباً، طويل القامة، والوحيد في المجموعة المتأنّق ببذّةٍ وربطة عنق.

يقول، لكسر الجليد بيننا: «إسمي يعني: بعيدٌ جدًا».

أقول له مبتسمًا: «إسمي يعني:الصخرة الصغيرة». في الواقع، لا أزال على الابتسامة ذاتها منذ ليل أمس، لأني لم أكتحل بنومٍ لتفكيري بمغامرة اليوم. لا يعقل أن أكون في مزاجٍ أفضل.

هلال، الدائمة الحضور، تقف قرب المقطورة التي سأستقلّها، مع أنه لا بد أن تكون مقصورتها بعيدةً عن مقصورتي. لم أتفاجأ لرؤيتها هناك. افترضتُ ذلك. أبعثُ لها بقبلةٍ في الهواء وتردّ بابتسامة. في مرحلةٍ ما في الرحلة، أثق أننا سنُسرّ بمحادثة أو أكثر.

أقبع مكاني بلا حراك، مركّزًا في كلّ تفصيل حولي، كمثلِ ملاّحٍ على أهبّة الإبحار بحثًا عن بحر الأسرار. يحترم مترجمي صمتي، لكني أدرك أن ثمّة خطباً، فناشري يبدو منهمكًا. أسأل ياو ما الذي يجري، فيجيب أن من تمثّلني في روسيا لم تصل بعد. أتذكّر المحادثة مع صديقي الليلة السابقة، لكن ما الهمّ؟ إذا لم تأتِ، فهذه مشكلتها.

ألاحظ هلال تقول شيئًا لمحرّرتي. تتلقّى إجابة فظّة، لكنها لا تفقد برودة أعصابها، تمامًا كما فعلت عندما أخبرتها بأنه لا يمكن لنا أن نتقابل. بدأتُ أُعجب أكثر فأكثر بواقع أنها كذلك، يُعجبني عزمها، واتّزانها. المرأتان تتجادلان الآن.

أسأل المترجم مجددًا أن يشرح لي ما الذي يجري، فيقول إنّ محرّرتي طلبت إلى هلال أن تعود إلى مقطورتها. هذا أمر بعيد

الاحتمال، أُسِرُّ لنفسي، تلك الشابة ستفعل بالضبط ما تريد فعله. أستمتع بمراقبة الأمور التي أفهمها وحسب: النبرة ولغة الجسد. عندما خُيّل إليّ أنها اللحظة المناسبة، اتّجه إليهما، محتفظًا بابتسامتي.

«بربّكما، دعونا لا ننطلق بذبذبةٍ سلبية. جميعنا مسرورون ومتحمّسون للانطلاق في رحلة لم يقم بها أيٌّ منا من قبل».

«لكنها....»

«دعيها وشأنها فحسب. تستطيع أن تذهب إلى مقصورتها لاحقًا». فلا تصرّ.

تنفتح الأبواب بضجيج يدوّي صداه حتى مدخل المحطة، ويبدأ الناس بالتحرّك. من أولئك الذين يتسلّقون المقطورات؟ ماذا تعني هذه الرحلة لكلّ راكب؟ لـمّ شمل مع حبيب؟ ؟زيارة عائلية؟ سعي إلى الثراء؟، عودة ظافرة أم مخزية إلى الوطن؟، اكتشاف؟، مغامرة؟ حاجة إلى الهروب أو اللُقية؟ يمتلئ القطار بكلّ هذه الاحتمالات.

تلتقط هلال حقيبتيْها - حقيبة ظهرٍ وحقيبة صارخة الألوان- وتستعدّ لصعود المقطورة معنا. تبتسم المحرّرة كما لو أنها سُرّت بما آل إليه الجدال، لكني أعرف أنها ستنتهز أوّل فرصة لها للانتقام. لا جدوى من شرح أنّ كلّ ما نحقّقه بالانتقام هو مساواة انفسنا بأعدائنا، في حين اننا بالصفح عنهم، نُظهر حكمةً وذكاء. فيما عدا الرهبان في الهيمالايا والقديسين في الصحارى، أعتقد أنّ مشاعر

الانتقام تنتابنا جميعًا، لأنها جزءٌ أساسي من الحالة البشرية. لا ينبغي لنا أن نحكم على أنفسنا بهذه القسوة.

* * * *

تحوي مقطورتنا أربع مقصورات، وحمّامات، وحجرة جلوسٍ صغيرة، حيث أفترض أننا سنقضي معظم الوقت، ومطبخًا.

أذهب إلى مقصورتي التي تحوي سريرًا مزدوجًا، وخزانة ثياب، وطاولةً وكرسياً مقابل النافذة، وبابًا ينفتح على احد الحمّامات. في نهايته باب آخر. أتّجه إليه وأفتحه لأرى أنه يُفضي إلى غرفةٍ فارغة. يبدو أنّ مقصورتين تتشاركان الحمّام ذاته.

تصفر الصافرة، ويبدأ القطار بالتحرّك على مهل. نُسارع جميعًا إلى نافذة غرفة الجلوس ونلوّح بالوداع لأشخاص لم يسبق لنا أن رأيناهم. نشاهد مدخل المحطة يذوي سريعًا، والأضواء تعبر أسرع فأسرع، والسكك، والأسلاك الكهربائية الباهتة. يُدهشني مدى سكوت الجميع، لا يرغب أيّ منا في الكلام، وكلّنا نحلم بما قد يحصل، وأنا على ثقةٍ بان لا أحد يفكّر بما تركه، بل بما سياتي.

مع غرق السكة في سواد الليل، نجلس حول الطاولة. ثمّة سلّة من الفواكه لنا تناولها، لكننا تناولنا العشاء في موسكو، والشيء الوحيد الذي يوقظ اهتمام الجميع هو وهج زجاجة الڤودكا، التي نفتحها على الفور. نحتسي المشروب ونتحدّث في كلّ أمرٍ باستثناء الرحلة، لأنها الحاضر وليس الماضي. نحتسي المزيد ونبدأ

بالكشف عمّا نتوقعه جميعًا من الأيام المقبلة. نواصل الشرب، ويعمّ الغرفة فرحٌ مُعدٍ. وفجأة، نبدو وكأننا نعرف واحدنا الآخر طول حياتنا.

يُخبرني المترجم شيئًا من حياته وأهوائه: الأدب، والسفر، والفنون القتالية. في الواقع، تعلّمتُ فنّ الأيكيدو عندما كنتُ شابًا، ويقول إنّه في حال شعرنا بالضجر وتعطّل بيننا الكلام، يمكن لنا أن نتمرّن قليلاً في الممرّ الصغير إلى جانب المقصورات.

تتكلّم هلال مع المحرّرة التي لم ترغب في صعودها إلى المقطورة. أعلم أنّ كلاً منهما تحاول ترقيع سوء التفاهم بينهما، لكني أعلم أيضًا أنّ الغد يوم آخر، وأنّ وجودنا معًا في حيّزٍ صغيرٍ قد يزيد الخلافات، ومن المؤكّد اندلاع جدال آخر، ولكن ليس قبل فترة.

يبدو المترجم وكأنه قرأ أفكاري. يسكب مزيدًا من الفودكا للجميع ويتحدّث كيف تُحلّ الخلافات في الأيكيدو.

«لا يقوم الأيكيدو على القتال فعلاً. ما نصبو إليه هو تهدئة الروح وملامسة المصدر الذي منه يأتي كل شيء، بمحو كلّ أثر للمكر أو التبجّح بالأنا. إذا أمضيتم الكثير من الوقت تحاولون اكتشاف صالح شخصٍ آخر أو طالحه، ستنسون روحكم، والطاقة التي صرفتموها على حكم الآخرين سترهقكم وتغلبكم».

يبدو أنّ لا أحد مهتم بما لدى رجلٍ سبعيني أن يقوله. تتحوّل

السعادة الغامرة الأوّلية التي حثّتها الفودكا إلى إعياء جَماعي. في لحظةٍ ما، أنهض للذهاب إلى الحمّام، وبعودتي، تكون الغرفة فارغة.

باستثناء هلال، طبعًا.

أسأل: «أين الجميع؟».

«كانوا يتصرّفون بتهذيب منتظرين مغادرتك لكي يستطيعوا الخلود إلى الفراش».

«حريّ بكِ أن تفعلي مثلهم».

«لكن، ثمّة مقصورة فارغة هنا و...»

ألتقط حقيبة ظهرها والحقيبة الأخرى، أمسكها من ذراعها بلطف، وأقودها إلى مؤخّرة المقطورة.

«لا تطلبي الكثير. عمتِ مساءً».

تنظر إليّ، لكنها لا تقول شيئًا وتتّجه إلى مقطورتها، مع أنني لا أعرف مكانها.

أنسحب إلى غرفتي وتتحوّل حماستي إلى إعياء شديد. أضع حاسوبي على الطاولة وقدّيسيّ- الذين يرافقوني حيثما أذهب- إلى جانب السرير، ثمَّ أذهب إلى الحمّام لأغسل أسناني. يتبيّن أن غسلها مهمّة أشقّ بكثير مما خُيّل إليّ. كوب المياه المعدنية في ترنّح متواصل في يدي، مواكبًا حركة القطار. بعد عددٍ من المحاولات، أُحقّق هدفي.

ألبس البلوزة القطنية التي أرتديها للنوم، أدخّن سيجارة، أُطفئ

النور، أغمض عينيّ وأتخيّل أنَ تأرجح المقطورة كوجود المرء داخل الرّحم، وأنّني سأقضي ليلة هنيئة بنعمة الملائكة. لكنه أملٌ خاوٍ.

عينا هلال

مع طلوع فجر اليوم، أنـهض، أبدّل ملابسي وأتوجّه إلى غرفة الجلوس.

الجميع هناك أيضًا، بمن فيهم هلال.

تُعلن: «عليكَ أن تكتب ملاحظةً تجيز لي فيها الرجوع إلى هنا»، تقولها قبل أن تلقي السلام، وتُكمل: «صباح الخير. عانيتُ الكثير للوصول إلى هنا اليوم، وقال الحرّاس عند كلّ مقطورة أنّهم سيسمحون لي بالمرور إذا....».

أتجاهل كلماتها الأخيرة وأُحيي الآخرين. أسأل إن كانت ليلتهم هانئة.

«لا».. يجيب الجميع.

تقول هلال، غير مُدركةٍ أنّها تثير غيظ رفاقها المسافرين: «لقد نـمتُ جيدًا بالفعل. مقطورتي في وسط القطار تـمامًا، لذلك هي لا تتأرجح كثيرًا. هذه المقطورة أسوأ المقطورات للسفر».

يبدو ناشري وكأنه على وشك التلفّظ بتعليق فظّ، لكنه يكبح نفسه. تنظر زوجته خارج النافذة وتُشعل سيجارة لتخفي انزعاجها. ترتفع على وجه محرّرتي تعابير تُخبر ما تعجز الكلمات عن إيضاحه: «ألـم أقل لكَ أنها ستكون عقبة أمامنا؟».

يقول ياو، الذي يبدو أنه نام جيدًا هو أيضًا: «كلّ يومٍ سأدوّن خاطرةً، والصقها على المرآة».

يقف، يتجّه إلى المرآة في الغرفة، ويُلصق ورقةً مكتوباً عليها: «إن كنتَ ترغب في رؤية قوس قزح، فعليكَ أن تتعلّم حبّ المطر».

لا أحد مهتمّ بهذا القول التفاؤلي. لستَ في حاجة إلى أن تكون قارئ أفكار لتعرف ما يخطر في بال الجميع: «يا للمهزلة، هل سَيكون الأمر على هذه الحال لتسع آلاف كيلومترٍ أخرى؟».

تقول هلال: «أودّ أن أريكَ صورةً على هاتفي الجوّال. وجلبتُ كمانـي معي أيضًا إنْ كان أحدهم يرغب في الاستماع إلى بعض الموسيقا».

إننا نستمع أصلاً إلى الموسيقا عبر المذياع في المطبخ. التوتّر في المقطورة يزداد. في أي لحظة الآن، سينفجر أحدهم، ولن أستطيع فعل شيء حياله.

«اسمعي، دعينا نتناول الفطور بسلام وحسب. إن أردتِ الانضمام إلينا، فأهلاً بكِ. سأحاول ان أنام قليلاً. وسأرى الصورة لاحقًا».

يُدوّي ضجيجٌ كمثل الرعد. يـمرّ قطار مسافر في الاتجاه المعاكس، وهو ما حدث كلّ الليل، بانتظام مرعب. وكان تأرجح المقطورة أشبه بالتواجد داخل خلاّطة شرابٍ يدوية، وأبعد ما يكون عن تذكيري بـهزّة المهد الرقيقة. أشعر بتعبٍ جسديّ وبذنبٍ كبيرٍ لـجرّ كلّ هؤلاء الأشخاص إلى مرافقتي في هذه المغامرة. أفهم الآن

لماذا تُسمّى الأفعوانية في الملاهي بـ«مونتانيا روسّا» باللغة البرتغالية، أي الجبل الروسي.

تقوم هلال والمترجم ياو بمحاولات عدّة لبدء حديثٍ، ولكن لا يتلقّفها أيٌّ من الجالسين إلى المائدة: الناشر وزوجته، المحرّرة، والكاتب الذي طرح فكرة هذه الرحلة. نتناول الفطور بصمت. وفي الخارج، تتكرّر المناظر الطبيعيّة وتتكرّر: بلدات صغيرة، غابات، بلدات صغيرة، غابات. ..

يسأل أحد الناشرين ياو: متى نصل إلى ييكاتيرينبرغ؟».

«بُعَيْدَ منتصف الليل».

تُطلق تنهيدة ارتياح. لربما نستطيع العدول عن رأينا والقول كفانا. ليس عليكَ أن تتسلّق الجبل لكي تعرف أنه مرتفع، وليس عليكَ أن تجتاز المسافة كاملة إلى ڤلاديڤوستوك ليسعك القول إنّك سافرت على متن سكّة ترانس-سيباريان.

«حسنٌ، سأحاول أن أنام قليلاً».

أقف. وتقف هلال أيضًا.

«ماذا عن الورقة؟ والصورة على هاتفي الجوّال؟».

ورقة؟ آه، طبعًا، الإذن الذي تحتاج إليه لكي تتمكّن من زيارة مقطورتنا. قبل أن أتمكّن من قول أي شيء، يكون ياو قد كتب شيئًا بالروسيّة لكي أوقّعه. الكلّ- بمن فيهم أنا- نـحدّق إليه.

«هل تـمانع إضافة (مرّة في اليوم)، من فضلك؟».

يقوم ياو بذلك، ثمّ ينهض ويقول إنّه سيذهب لإيجاد حارس يقبل ختم المستند.

«وماذا عن الصورة؟».

سأوافق الآن على أي شيء إذا أُتيح لي أن أعود إلى مقصورتي وأنام، لكنني لا أريد أن أزعج رفاقي الذين دفعوا لقاء هذه الرحلة. أطلب إلى هلال أن ترافقني إلى الطرف الآخر من المقطورة. نفتح الباب الأول ونجد أنفسنا في مساحة صغيرة ببابين خارجيين، وثالثٍ يُفضي إلى المقطورة التالية. الضجّة في هذه الردهة لا تُحتمل، من الجلبة التي تُحدثها العجلات على السكك، إلى احتكاك الصفائح المعدنية التي تربط المقطورات.

تُريني هلال الصورة على هاتفها الجوّال، وقد التُقطت، على وجه الاحتمال، بُعَيْدَ بزوغ الفجر. إنها صورة غيمة طويلة في السماء.

«أترى؟».

نعم، أستطيع رؤية غيمة.

«لدينا رِفقة في هذه الرحلة».

لدينا غيمة ستطول رفقتها لنا. أستمر في الإذعان، على أمل أن تنتهي المحادثة قريبًا.

«نعم، أنتِ على حق. لكن، فلنتحدّث في ذلك لاحقًا. الآن، ارجعي إلى مقصورتك».

«لا أستطيع. لقد أذنتَ لي بالمجيء إلى هنا مرّة في اليوم فقط».

لا بُدّ أنّ التعب يؤثّر على قواي الفكرية، لأنني أدرك الآن أنني أوجدتُ وحشًا. إذا كان لها أن تأتي مرّة في اليوم فقط، ستصل صباحًا ولن تغادر إلا ليلاً. إنها غلطة عليّ تصويبها لاحقًا.

«إسمعي، أنا ضيف أيضًا في هذه الرحلة. يسرّني فعلاً أن أكون بصحبتكِ طوال الوقت، لأنك مليئة بالطاقة على الدوام ولا تقبلين بـ«لا» إجابةً، لكن، تعرفين...»

هاتان العينان. خضراوان من دون أيّ أثرٍ للتبرّج.

«...تعرفين...»

ربما أنني مرهق فحسب. بعد أكثر من يومٍ بلا نوم، تسقط كلّ دفاعاتنا تقريبًا. هذه هي حالي الآن. الردهة الخالية من أي أثاث، والمصنوعة من زجاج وحديد فقط، تبدو مشوّشة. الضجّة في انحباس، وتركيزي في تبدُّد، ولستُ واثقًا تمامًا مَن أنا أو أين أنا. أعلم أنني أسألها التعاون، أسألها العودة من حيث أتت، لكنّ الكلمات التي تخرج من فمي ليس لها صلة بما أرى.

أنظر إلى النور، إلى مكانٍ مقدّس، إلى موجةٍ تغمرني وتملؤني سلامًا وحبًا، وهما أمران نادرًا ما يترافقان. أستطيع أن أرى نفسي، وفي الوقت نفسه، أستطيع أن أرى فِيَلَةً في أفريقيا تلوّح بخراطيمها، جِمالاً في الصحراء، أشخاصًا يتحادثون في حانة في بوينس أيريس، كلبًا يعبر الشارع، فرشاةَ رسمٍ في يد امرأةٍ تُنهي لوحة وردة، ثلجًا يذوب من على جبلٍ في سويسرا، رهبانًا يُنشدون تراتيل غريبة،

حاجًا يصل إلى الكاتدرائية في سانتياغو دي كومپوستيلا، راعيا مع نعجته، جنودًا استيقظوا من توّهم ويستعدّون للحرب، سمكاً في المحيط، مدن العالم وغاباته، وكلّ منها شديد الوضوح، شديد الاتّساع، شديد الصِغر، شديد الهدوء تزامنًا.

أنا في الألِف، نقطة التقاء كل شيء في نفس المكان والزمان.

أنا قبالة النافذة أُلقي بنظري على العالم وأمكنته السرّية، الشِعر هائمّ في الزمن والكلمات متروكة، وقد عَلِقَت في الفضاء. هاتان العينان تخبرانني عن أمور لا نعلم حتى أنها موجودة، غير أنها هناك، رهن الاكتشاف، رهن المعرفة، بالأرواح لا بالأجساد. جُمَلٌ مفهومة تمامًا، حتى وإن لم تُقَلْ. مشاعر تسمو بنا وتُطبق علينا في آن.

أنا أقف قبالةَ أبوابٍ تنفتح لجزءٍ من الثانية وتنغلق من جديد، لكن ذلك يُعطيني لمحة عمّا يختبئ خلفها. الكنوز والأشراك، الدروب التي لم تُسلَك يومًا، والرحلات التي لم تخطر يومًا في بال.

«لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ لماذا تُريني عيناك كلّ هذا؟».

لستُ من يسأل، بل الفتاة أو المرأة الواقفة أمامي. استحالت أعيننا مرايا روحَينا، مرايا روحَينا وأرواح كلّ من في هذا الكوكب، وعلى الأرجح، الذين في هذه اللحظة يمشون، يتحابون، يولدون، يموتون، يتألّمون أو يحلمون.

«لستُ أنا...إنه مجرّد....»

أعجز عن إنهاء الجملة، تُواصل الأبواب انفتاحها وكشف

أسرارها. أرى أكاذيب وحقائق، رقصات غريبة تؤدّى أمام من تبدو صورة إلهة، بحّارة يُقاتلون البحر الشرس، اثنين يجلسان على الشاطئ وينظران إلى البحر ذاتِه، الذي يبدو هادئًا ومرحّبًا. تواصل الأبواب انفتاحها، أبواب عيني هلال، وأبدأ أرى نفسي، كما لو أنّ واحدنا يعرف الآخر منذ زمنٍ بعيدٍ، بعيد...

تسأل: «ماذا تفعل؟».

«الألِف...»

دموع تلك الفتاة أو المرأة الواقفة أمامي يبدو أنها تريد الرحيل عبر تلك الأبواب ذاتها. قال أحدهم ذات مرّة إنّ الدموع دماء الروح، وهذا ما بدأتُ أراه الآن. لأني دخلتُ نفقًا، أنا في عودةٍ إلى الماضي، وهي في انتظاري هناك أيضًا، يداها متشابكتان بشدّة كما لو أنها تتلو أكثر الصلوات قدسيّةً ممّا أنزله الله على بني البشر. نعم، إنها هنا، أمامي، تجثو على الأرض، تبتسم وتقول لي إنّ الحبّ كفيل بخلاص كلّ شيء، لكنّي أنظر إلى ثيابي، إلى يديّ، حاملاً في إحداها ريشة كتابة...

أصرخ: «توقّفي!».

تُغمض هلال عينيْها.

أنا من جديد في قطارٍ مسافرٍ إلى سيبيريا وما بعدها، إلى المحيط الهادئ. أشعر بأني أكثر إعياءً من قبل، ومع أنني أفهم تمامًا ما جرى، إلاّ أنّني أعجز عن تفسيره.

تُعانقني. أعانقها وأمسح على شعرها.

تقول: «عرفتُ. عرفتُ أنّني سبق أن التقيتكَ. عرفتُ عندما رأيتُ صورتك للمرةَ الأولى. وكأننا كان لا بُدّ أن نلتقي مجدّدًا في مرحلةٍ ما من هذه الحياة. تحدّثتُ إلى أصدقائي عن الأمر، لكنّهم خالوني مجنونة، ولا بُدّ أنّ آلاف الناس يقولون الأمر ذاته عن آلاف الناس الآخرين كلّ يوم. ظننتُ أنّهم لا بدّ أن يكونوا على حقّ، لكنّ الحياة...الحياة أتت بكَ إليّ. أتيتَ لتجدني، أليس كذلك؟».

أتعافى تدريجًا ممّا خبرته لتوّي. أعلم عمّا تتحدّث، لأنّني منذ قرون، عبرتُ أحد تلك الأبواب التي رأيتها من برهةٍ في عينيها. كانت هناك هي أيضًا، إلى جانب أشخاص آخرين. بحذرٍ، أسألها ما الذي رأته.

«كلّ شيء. أشكَ في أنني سأتمكّن من تفسير هذا يومًا، ولكن لحظة أغمضتُ عينيّ، كنتُ في مكانٍ آمن مريح، كما لو أنني في منزلي».

لا، هي لا تعلم ما تقول. لا تعلم بعد. لكنّي أعلم. ألتقط حقيبتيها عن الأُرض وأُعيدها إلى غرفة الجلوس.

«لا طاقة فيَّ الآن لأفكّر أو أتكلّم. اجلسي هناك، اقرأي شيئًا، دعيني أسترح وسأعود. وإن قال أحدهم شيئًا لك، قولي له إنّني طلبت إليك البقاء».

تفعل ما طُلب منها. أذهب إلى مقصورتي، وأهوي على السرير بملابسي كاملةً وأغطّ في نومٍ عميق.

يطرق أحدهم الباب.

«سنصل خلال عشر دقائق».

أفتح عينيّ. إنّه الليل خارجًا، أو بالأحرى، ساعات الصباح الأولى. لقد نـمتُ كلّ اليوم والآن سيصعب عليّ النوم من جديد.

يقول الصوت: «سوف يفصلون المقطورة ويتركونها عند خطّ فرعيّ من السكّة، لذلك خُذ ما تحتاج إليه لقضاء ليلتين في المدينة».

أفتح دُرف النافذة. تبدأ الأضواء بالظهور، القطار يُبطئ سيره، إننا نصل فعلاً. أغسل وجهي وأوضّب بسرعة ما أحتاج إليه لقضاء ليلتين في ييكاتيرينبرغ. ما سبق واختبرته يعاودني تدريجًا.

بمغادرتي المقصورة، أرى الجميع يقفون في الممرّ، باستثناء هلال، التي لا تزال جالسة حيث تركتها. لا تبتسم، لكنها تريني ورقةً ببساطة.

«استحصل لي ياو على الإذن».

ينظر إليّ ياو ويهمس:

«هل سبق أن قرأت تاو تا تشين؟».

«نعم، بالطبع فعلت، ككلّ مَن هو مِن جيلي تقريبًا».

«إذًا ستذكر هذه الكلمات: وسّع طاقاتك وستظلّ فتيًا».

يومِئ قليلا باتجاه الفتاة، التي لا تزال جالسة. أجد هذه الملاحظة قليلة الذوق.

«إن كنتَ تلمّح إلى...»

«لا أُلـمّح إلى أيّ شيء. إن أسأتَ فهمي، فلا بُدّ أن الفكرة في بالك. ما عنيتُه، بـما أنّك لا تفقه كلمات لاو تزو، هو: فلتُخرِج كلّ مشاعرك من نفسك وسوف تتجدّد. كما أرى أنـها الشخص المناسب لمساعدتك».

هل كانا يتحادثان؟ هل مرّ ياو بنا ونحن ندخل الألِف؟ هل رأى ما حدث؟

أسأل: «هل تؤمن بعالمٍ روحاني، بكونٍ موازٍ، حيث الزمان والمكان خالديْن ودائميْ الحضور؟».

تبدأ المكابح تصفر. يومِئ ياو، لكني أرى أنّه يزن كلماته. أخيرًا يقول:

«لا أؤمن بالقدر كما تتخيّله، لكنّي أؤمن بأمورٍ كثيرةٍ لن يسعك أن تحلم بـها يومًا. ما لم تكن منشغلاً ليل الغد، نتمشّى معاً».

يتوقّف القطار. تنهض هلال وتتقدّم لتنضمّ إلينا. يبتسم ياو ويعانقها. نلبس معاطفنا جميعًا، وعند الساعة الواحدة وأربع دقائق، نطأ أرض بيكاتيرينبرغ.

دارة إيپاتييف

هلال الدائمة الحضور اختفت.

أنزلُ من غرفتي، مفترضًا أنني سأجدها في بهو الفندق، لكنها ليست هنا. رغم قضاء معظم يوم أمس مستلقياً في سريري، تمكّنتُ من النوم جيدًا ما إن وطأنا «تيرًا فيرما» (اليابسة). أهاتف غرفة ياو ونذهب لنتمشّى في المدينة. هذا بالضبط ما أحتاج إلى فعله الآن: أن أمشي، وأمشي، وأمشي، وأتنشّق بعض الهواء النقي، وأجول بنظرةٍ على مدينة لم يسبق لي أن زرتها، وأستمتع بالشعور أنها ملكي.

يُخبرني ياو عن بعض الوقائع التاريخية: ييكاتيرينبرغ هي ثالث أكبر مدينة في روسيا، وفيها ثروة معدنية، أي نوع الحقائق التي يمكن لأيٍّ كان أن يجدها في نشرة تعريفِ سياحية.لكنني لستُ مهتمًا بها ولو قليلاً. من ثمّ، نتوقّف خارج ما يظهر أنه كنيسة أرثوذوكسية ضخمة.

«هذه كاتدرائية الدم، بُنيت على موقع دارة كان يملكها رجل يُدعى نيكولاي إيپاتييف. فلندخُل».

أشعر بالبرد، ولذا أفعل ما يقترحه. ندخل إلى ما يظهر أنه متحف صغير، حيث كل الملحوظات مكتوبة باللغة الروسية.

ينظر إليّ ياو، كما لو أنه يُفترض بي أن أعرف ما يجري، لكنني لا أعرف.

«ألا تشعر بأي شيء؟».

أقول لا. فيبدو وقد خاب أمله.

«تقصد أنكَ أنت الذي يؤمن بوجود عوالم متوازية وبأبدية اللحظة الحاضرة، لا تشعر بأي شيء بالمطلق؟».

أشعر بميل إلى إخباره أنّ السبب الأهم لمجيئي إلى روسيا محادثتي مع ج. حول هذا الأمر بالضبط، عجزي عن التواصل مع جانبي الروحاني. باستثناء أنّ هذا لم يعد صحيحًا. منذ غادرت لندن، تحوّلتُ إلى شخصٍ مختلف، شاعرًا بالهدوء والسعادة في رحلة العودة إلى مملكتي وروحي. لجزءٍ من الثانية، أتذكّر المشهد في القطار وعينيّ هلال، لكني أزيح الذكرى من ذهني سريعًا.

«واقع أنني أعجز عن الشعور بأي شيء، لا يعني أنني منقطع. ربما كانت طاقاتي في هذه اللحظة منبّهة لاكتشافات أخرى. نحن في ما يبدو أنها كاتدرائية شُيّدت مؤخَرًا. ما الذي جرى هنا بالضبط؟».

«انتهى الأمر بالأمبراطورية الروسية في دارة نيكولاي إيپاتييف. ليل ١٦ تموز/يوليو ١٩١٨، أُعدمت عائلة نيكولاس الثاني، آخر قياصرة الروس أجمعين، إلى جانب طبيبه وثلاثة خدم. بدأوا بالقيصر بذاته الذي تلقّى ثلاث رصاصات في الرأس والصدر. آخر من مات هنّ أنستازيا، تاتيانا، أولغا، ماريا، اللائي طُعنّ بحراب البندقيات حتى الموت. يُقال إنّ

أشباحهنّ لا تزال تسكن هذا المكان، تبحث عن المجوهرات التي تركنها.
يقول الناس أيضًا إن بوريس يلتسن، عندما كان رئيسًا لروسيا، قرّر هدم الدارة القديمة وتشييد كنيسة مكانها، لكي ترحل الأشباح، وتتمكّن روسيا من استئناف نموّها».

«لماذا جئتَ بي إلى هنا؟».

للمرة الأولى منذ لقائنا في موسكو، يبدو ياو محرَجًا.

يُخبرني ياو: «لأنك أمس سألتني إنْ كنت أؤمن بالله. آمنتُ إلى أن أخذ مني الشخص الذي أحببت أكثر ما أحببت في العالم، أي زوجتي. طالما ظننتُ أنني سأموت قبلها، لكن هذا لم يكن ما حدث. يوم التقينا، شعرت بثقة أنني عرفتها قبل أن أولد. كانت تُمطر وابلاً، ورفضتْ دعوتي لها لشرب الشاي، لكني عرفتُ أننا كغيمتين تملآن السماء لدرجة تعجز معها عن معرفة أين تبدأ الأولى وأين تنتهي الأخرى. تزوّجنا بعد عام، كما لو أن ذلك أكثر الأمور طبيعية وبداهة في العالم. رُزقنا بأولاد، فشكرنا الله والعائلة، ثمّ، ذات يوم، هبّت ريح وباعدت بين الغيمتين».

أنتظره إلى أن ينهي ما لديه ليقول.

«ليس عدلاً. لم يكن عدلاً. قد يبدو هذا من السُخف، لكنّي كنتُ أفضّل لو كان لنا الرحيل جميعًا إلى الحياة التالية، كالقيصر وعائلته».

لا، لم يقل بعد كلّ ما يريد. ينتظرني لكي أقول شيئًا، لكنّي أبقى على صمتي. يبدو أنّ أشباح الموتى حاضرة فعلاً معنا هنا.

«وعندما رأيتك والشابة تنظران إلى بعضكما في القطار، في الردهة بين المقطورات، تذكّرت زوجتي والنظرة الأولى التي تبادلناها، وكيف أنّ، قبل أن نتحدّث، ثمّة من قال لي: نحن معًا من جديد، لذا أردتُ المجيء بك إلى هنا، لأسأل إن كنت تستطيع رؤية ما نعجز عن رؤيته، إن كنت تعرف أين هي الآن».

إذًا، شهدَ على اللحظة التي دخلتُ وهلال فيها الألِف.

أنظر مدار المكان ثانيةً، أشكره على المجيء بي إلى هنا وأسأله إذا كان بإمكاننا مواصلة المشي.

يقول: «لا تدعْ تلك الشابة تتعذّب. كلّما أراها تنظر إليك، يبدو لي أنّكما تعرفان بعضكما منذ زمن».

أفكّر في نفسي بأن الأمر ليس بجدّ في موقع أن يشغلني.

أسأل: «سألتني في القطار إن كنتُ أرغب في الذهاب برفقتك الليلة إلى مكانٍ ما. هل هذا العرض لا يزال قائمًا؟ يمكن لنا التحدّث في كلّ هذا لاحقًا. لو كان لك أن تراني أراقب زوجتي وهي نائمة، لاستطعتَ أن تقرأ عينيّ وتفهم لماذا مضى على زواجنا قرابة ثلاثين سنة».

* * * *

المشي يفعل العجائب للجسد والروح. أنا مركّز تمامًا في اللحظة الحاضرة، إذ فيها يمكن إيجاد كلّ الإشارات، والعوالم المتوازية والمعجزات. الزمن لا يوجد بالمعنى الصحيح. يمكن لياو

أن يتحدّث عن موت القيصر كما لو أنه حدث أمس وأن يُريني جراح حبّه كما لو أنها ظهرت منذ دقائق، فيما أتذكّر المدخل المسقوف في محطّة موسكو كما لو أنه من الماضي السحيق.

نجلس في متنزَّهٍ ونراقب الناس يمرّون. نساء مع أولاد، رجال في عجلة، فتيان يقفون حول مذياع يُصدر موسيقا مرتفعة، فتيات متجمّعات قبالتهم يتحدّثن بحماسة حول أمر لا أهميّة له البتّة، وأشخاص أكبر سنًا يرتدون معاطف شتوية، مع أنه الربيع. يشتري لي وله شطيرتيْ نقانق وينضمّ إليّ من جديد.

يسأل: «هل الكتابة صعبة؟».

«لا. هل تعلُّم الكثير من اللغات الأجنبية صعب؟».

«لا، ليس فعلاً. كلّ ما عليك فعله هو الانتباه».

«أنتبه كلّ الوقت، لكني لم أتخطّ ما تعلّمته فتيًا».

«ولم أحاولْ يومًا أن أكتب. فتيًا، قيل لي إنّ عليّ أن أدرس بجدّ، أن أقرأ الكثير من الكتب المملّة وأتخالط بالمفكرين. وأنا أكره المفكّرين».

لا أدري إن كانت هذه الملاحظة موجّهة إليّ أم لا. فمي ملآن بالنقانق ولذلك لا أردّ عليه. أفكّر مجدّدًا بهلال وبالألِف. لربما وجدتْ التجربة مرعبة لدرجة أنها عادت إلى منزلها وقرّرت العدول عن متابعة الرحلة. منذ أشهر قليلة، كان ليجنّ جنوني لو أنّ عمليّة كهذه قد فشلت في أن تجري مجراها كاملاً، معتقدًا أن

تدرّبي كلّه رهنٌ بها. لكنّه يومٌ مشمس، وإن كان العالم يبدو في سلام، فذلك يعود للشمس.

يسأل ياو: «إلامَ تحتاج لكي تقدر على الكتابة؟».

«أن أحبّ. كما أحببت زوجتك، أو، بالأحرى، كما تحبّها».

«أهذا كلّ شيء؟».

«أترى هذا المتنزّه؟ كلّ أنواع القصص فيه. ومع أنها رُويت مرّات عدّة، هي تستحقّ أن تُروى ثانية. الكاتب، المغنّي، الجنائني، المترجم، كلّنا مرآة زماننا. كلّنا نسكب حبّنا في عملنا. في حالتي، بداهةً، المطالعة مهمّة جدًا، لكن أيًا يكن من يضع كلّ إيمانه في المجلّدات الأكاديمية وحصص الكتابة الإبداعية، تفوته الغاية: الكلمات حياةٌ تُخطُّ على ورق. لذا، إسعَ إلى رفقة الآخرين».

«كلما اطّلعت على حصص الأدب في الجامعة حيثُ كنت أعلّم، كانت تبدو لي شديدة...»

«...التكلّف؟»، أسأله، متمّمًا الجملة، «لا يسع أحدٌ أن يتعلّم الحب باتّباع كتيّب، ولا يسع أحدٌ أن يتعلّم الكتابة باتّباع حصص دراسية. لا أقول لك أن تبحث عن كتّاب آخرين، بل أن تجد أناسًا يملكون مهاراتٍ تختلف عن مهاراتك، لأنّ الكتابة لا تختلف عن أي نشاط آخر يُنجز بفرحٍ وحماسة».

«ماذا عن تأليف كتاب عن آخر أيام نيكولاس الثاني؟».

«ليس موضوعًا يثير اهتمامي فعلاً. إنها قصة غير عادية، لكن

بالنسبة إليّ، الكتابة، فوق كل شيء، تدور حول اكتشاف نفسي. إن كان عليّ أن أقدّم لك نصيحة واحدة، فستكون التالية: لا تدع آراء الآخرين تخيفك. وحده التواضع يقين، لذلك اركب المخاطر وقم بما تريد أن تقوم بما فعلاً. ابحث عن الأشخاص الذين لا يخافون من ارتكاب الأخطاء والذين، بالتالي، يرتكبونها. لهذا السبب، لا يكون عملهم في الغالب مقدّرًا، لكنهم تحديدًا نوع الأشخاص الذي يغيّر العالم، وبعد كثير من الأخطاء، يقومون بشيءٍ سيغيّر مجتمعهم تمامًا».

«مثل هلال».

«نعم، مثل هلال. لكن دعني أقلْ أمرًا واحدًا: ما شعرتَ به تجاه زوجتك، أشعر به تجاه زوجتي. لستُ قدّيسًا، ولا نيّة عندي أن أكون قدّيسًا، لكن، باستخدام عبارتك، كنّا غيمتين والآن نحن واحدة. كنّا قطعتي ثلج ذوّبهما نور الشمس والآن نحن ماءٌ واحدٌ يجري بحرّية».

«ومع ذلك، عندما كنتُ مارًا ورأيتك وهلال تنظران إلى بعضكما...».

لا أجيب، ويُقفل هو الموضوع.

في المتنزّه، لا ينظر الفتيان بالمطلق إلى الفتيات الواقفات على بعد أمتار قليلة منهم، مع أنّ المجموعتين مأخوذتان بوضوح، إحداهما بالأخرى. يمرّ الأشخاص الأكبر سنًا، ويفكّرون في طفولتهم. تبتسم الأمّهات لأولادهنّ كما لو كانوا جميعًا فنّانين

مستقبليين، أو أصحاب مليارات، أو رؤساء جمهوريات. المشهد أمامنا توليفة للسلوك البشري.

يقول ياو: «عِشتُ في بلدانٍ كثيرة. وبداهة، مررتُ بأوقات صعبة. عرفت الظلم، وسقطتُ سقوطًا مريعاً في الوقت الذي توقّع فيه الجميع منّي أن أعطي أفضل ما عندي. لكن تلك الذكريات لا صلة لها بحياتي. الأمور المهمّة التي تلازمنا هي اللحظات التي قضيناها نستمع إلى أشخاص يُغنّون، يُخبرون القصص، يستمتعون بالحياة. فقدتُ زوجتي منذ عشرين سنة، ومع ذلك، يبدو وكأنه حدث أمس. هي لا تزال هنا، تجلس على المقعد معنا، تتذكّر الأوقات السعيدة التي قضيناها معًا».

نعم، هي لا تزال هنا، ولو أمكنني إيجاد الكلمات لفسّرت ذلك له.

أضحت مشاعري طافية تقريبًا مُذ رأيتُ **الألِف** وفهمتُ مقصد ج.. لا أدري إن كنتُ سأتمكّن من حلّ هذه المشكلة، لكني على الأقلّ أعي وجودها.

«يفضّلُ دومًا رواية قصّةٍ ما، حتى وإن رويتها لعائلتك فحسب. كم ولدًا لديك؟».

«صبيّان وابنتان. لكنّ قصصي لا تثير اهتمامهم. يقولون إنّهم سبق أن سمعوها كلّها. هل ستؤلّف كتابًا عن رحلتك على متن ترانس-سيبيريان؟».

«لا».

حتى وإن أردتُ ذلك، فكيف لي أن أصفَ **الألِف**؟

هلال الدائمة الحضور لم تظهر بعد.

بعد أن احتفظتُ بمشاعري لنفسي على امتداد وجبة العشاء، معبّرًا عن مدى نجاح جلسة التوقيع، شاكرًا الجميع على ذلك وعلى الموسيقا الروسية والرقص اللذين نُظّما من أجلي في الحفلة التي أعقبت التوقيع (لطالما نزعت الفرق الموسيقيّة في موسكو وفي بلدان أخرى إلى التزام المخزون الموسيقي الدولي)، أسأل أخيرًا إنْ كان قد خطر لأحدهم تزويدها بعنوان المطعم.

يُحدّقون إليّ مذهولين. بالطبع لم يفعلوا! ظنّوا جميعًا أنني وجدت الفتاة بغيضة حقًا. وكان من الحظ أنها لم تظهر خلال جلسة التوقيع.

تقول محرّرتي: «لا بدّ أنها قامت بأداءٍ موسيقي آخر على كمانها، آملة أن تسرق الأضواء ثانيةً».

يراقبني ياو من الجهة المقابلة للطاولة. يعرف أنني أقصد العكس بالضبط، وأنّ وجودها هنا يروق لي فعلاً. لكن لماذا؟ ألكي أتمكّن من زيارة **الألِف** مجدّدًا وأعبر بابًا يأتي إليّ أبدًا بذكريات سيّئة؟ أعرف إلى أين يُفضي ذلك الباب. عبرته أربع مرّات من قبل ولم أستطع قط

أن أجد الإجابة التي أحتاج إليها. لم يكن ذلك ما أتيت سعيًا وراءه عندما بدأت رحلتي الطويلة عائداً إلى مملكتي.

ننتهي من العشاء. يلتقط ممثّلا القرّاء، اللذان اختيرا عشوائيًا، الصور ويسألانني إن كنت أودّ أن يُرياني المدينة. أقول لهما، نعم أودّ.

يقول ياو: «لدينا موعد محدّد مسبقًا».

وانزعاج ناشريّ، الذي كان موجّهًا إلى هلال من قبل- بإصرارها على البقاء معي طول الوقت- يتحوّل إلى ترجماني، الذي استخدماه والذي يطلب حضوري الآن، في حين يجب أن يكون الأمر معكوسًا.

يقول ناشري: «أعتقد أنّ پاولو يشعر بالتعب. كان يومًا طويلاً».

«ليس تعبًا. مستويات طاقته على ما يرام بعد كلّ الذبذبات المُحبّة التي عمّت أمسية اليوم».

ناشراي على حقّ بشأن ياو. يبدو حقًا أنه يريد أن يُظهر للجميع أنه يشغل مكانة امتياز في «مملكتي». أفهم أساه على فقدان المرأة التي أحبّ، عندما تحين اللحظة، سأجد الكلمات المناسبة لقول هذا. لكن أخشى أنه قد يودّ إخباري «قصة مذهلة ستشكّل مادّة لكتاب رائع». سمعتُ بذلك مرّات كثيرة من قبل، خاصّة من أشخاص فقدوا أحدًا يحبّونه.

أقرّر المحاولة، وتسلية الجميع:

«سوف أعود إلى الفندق مشيًا برفقة ياو. بعدها، أحتاج إلى بعض الوقت لأكون بمفردي». ستكون هذه ليلتي الأولى على انفراد مُذ انطلقنا.

* * * *

انخفضت الحرارة أكثر ممّا تخيّلنا، الريح تهبّ وهي شديدة البرد. نمشي على مرّ شارع مكتظّ وارى أنني لستُ الوحيد الذي يريد العودة مباشرة إلى منزله. أبواب المتاجر تُقفل، الكراسي تُكدّس فوق الطاولات، وتبدا أضواء النيون في الانطفاء. مع ذلك، بعد يوم ونصف اليوم محبوسًا في قطار، وعلى دراية بأنه لا يزال أمامنا الكثير والكثير من الكيلومترات، أحتاج إلى انتهاز كلّ فرصة للقيام ببعض التمارين البدنيّة.

يتوقّف ياو إلى جانب حافلة صغيرة تبيع المشروبات ويطلب كوبين من عصير الليمون. لا أرغب في شرب اي شيء، ولكن لعل الحصول على القليل من الفيتامين سي، سيكون فكرة جيدة في هذا الطقس البارد.

«لا ترمِ الكوب».

لا افهم تمامًا مقصده، لكنّي أفعل ما يقول. نواصل مشينا على طول ما يجدر به أن يكون الشارع الأساسي في ييكاتيرنبرغ. في لحظة ما، نتوقّف خارج سينما.

«تمام. بقلنسوتك ووشاحك، لن يتعرّف عليك أحد. فلنتسوّل قليلاً».

«التسوّل؟! اسمع، لم أفعل هذا منذ أيام حياتي الهيبّية، وإلى هذا، سيكون ذلك إهانة للأشخاص المحتاجين فعلاً».

«لكنك محتاج فعلاً. عندما زرنا دارة إيـپـاتييـف، مرّت لحظات لم تكن حاضرًا فيها، لحظات بدوتَ فيها بعيدًا، عالقًا في الماضي، مقيّدًا بكلّ ما أنجزته، وتحاول بكلّ قواك أن تتشبّث به. أنا قلق على الفتاة كذلك، لكن إذا أردتَ حقًا أن تتغيّر، سيساعدك التسوّل في أن تصبح أكثر براءة، وأكثر انفتاحًا».

أنا فعلاً قلق على هلال، لكنني أقول له- فيما أفهم ما يقوله-أنّ أحد دوافعي الكثيرة للقيام بهذه الرحلة هو العودة إلى الماضي، إلى ما يقبع في أسفل، إلى جذوري.

أنا على وشك أن أخبره عن الخيزران الصيني، لكنّي أعدل.

«أنت العالق في الزمن. ترفض تقبُّل أنّ زوجتك ميتة، ولهذا هي لا تزال هنا بقربك، تحاول مواساتك، بينما، الآن، عليها المضي للقاء النور الإلهي. لا أحد يخسر أحدًا أبدًا. جميعنا روح واحدة تحتاج إلى مواصلة نموّها ونمائها لكي يتمكّن العالم من المتابعة، ولكي نتمكّن جميعًا من الالتقاء ثانيةً. الأسى لا يساعد فعلاً».

يفكّر في ما قلته، ثمّ يقول:

«لكن، لا يمكن لهذا أن يكون كل الإجابة».

أوافقه: «لا، ليس كلها. عندما يحين الوقت المناسب، سأفسّر تفسيراً أوفى. والآن، فلنعد إلى الفندق».

يمدّ ياو كوبه ويبدأ بتسوّل المال من المارّة. يقترح أن أفعل مثله.

«أخبرني بعض الرهبان البوذيين الزِنْ في اليابان عن التاكوهاتسو: حجّ التسوّل. فإلى جانب إعانة الأديرة، التي يعتمد وجودها على الهبات، هو يعلّم الراهب التلميذ التواضع. وله غاية أخرى أيضًا، وهي تطهير البلدة التي يعيش فيها الراهب. والسبب أنه، بالاستناد إلى فلسفة الزِنْ، الواهب، والمتسوّل، ومال الصدقات بذاته، تشكّل كلّها جزءًا من سلسلة مهمّة من التوازن. من يتسوّل، يفعل ذلك لأنه محتاج، لكنّ الواهب يفعل ذلك أيضًا من باب الاحتياج. ومال الصدقات هو الرابط بين هاتين الحاجتين، والجو في البلدة يتحسّن لأن الجميع يستطيعون التصرّف بالأسلوب الذي يلزمهم للتصرّف. أنتَ في حجّ، والوقت حان لكي تفعل شيئًا للمدن التي تزورها».

أنا متفاجىء لدرجة أنني لا أدري ما أقول. ولإدراكه أنّه قد ذهب بعيدًا، يهمّ ياو بوضع الكوب في جيبه.

أقول: «لا! إنها فكرة جيّدة حقًّا!».

نقف هناك للدقائق العشر التالية، على رصيفين متقابلين، ننقّل قدمينا لدرء البرد، نمدّ كوبينا إلى المارّة. في البداية، لا أقول شيئًا، لكن تدريجًا أُسقط موانعي وأبدأ بطلب المعونة، كفقيرٍ غريبٍ تائه.

لم أشعر قط بالحرج من طلب المعونة. عرفتُ أشخاصاً كثرًا يهتمّون لآخرين وهم كرماء إلى أقصى الحدود متى تعلّق الأمر بالعطاء، ويشعرون ببهجة حقّة عندما يطلب منهم أحد نصيحةً أو مساعدة. ولا بأس بذلك، أن تساعد جارك فهذا شيء جيد. من جهة أخرى، أعرف أشخاصاً لا يمكنهم الأخذ، وإنّ كان العطاء بحبّ وسخاء. كما لو أنّ الأخذ يشعرهم بالدونية، والاعتماد على الآخر يسلبهم كرامتهم. يفكّرون: إن أعطانا أحدهم شيئًا، فهذا لأننا عاجزون عن الحصول عليه لأنفسنا. أو: الشخص الذي يعطيني هذا الآن سيطلبه مني يومًا ما مع فائدة. أو أسوأ: لا أستحقّ أن أُعامل معاملةً جيدة.

لكن تلك الدقائق العشر تذكّرني بالشخص الذي كنته. إنّها تعلّمني وتُعتقني. في النهاية، عندما أجتاز الشارع للانضمام إلى باو، يكون في كوبي البلاستيكي ما يعادل أحد عشر دولارًا. وفي كوب باو المبلغ ذاته تقريباً. وخلافًا لما ظنّه، كانت فعلاً عودةً ممتعةً إلى الماضي بالنسبة إليّ، وعيشُ شيء من جديد لم أختبره منذ زمن بعيد، مجدِّدًا بذلك المدينة، كما نفسي.

أسأل: «ماذا يتوجّب أن نفعل بالمال؟».

تتغيّر نظرتي إليه من جديد. هو يعرف بعض الأمور وأنا أعرف سواها، ولا سبب يدعونا إلى التوقّف عن تجربة التعلّم المتبادل هذه.

«نظريًا، المال لنا، لأنّه أُعطي لنا، ولكن من الأفضل الاحتفاظ به في مكان مستقلّ، وصرفه على أمر تجده مهماً».

أضع النقود المعدنية في جيبي اليسرى، وفي نيّتي أن أفعل بالضبط ما قاله. نسرّع خطانا بالعودة إلى الفندق لأنّ الوقت الذي قضيناه في الخارج قد أحرق كلّ السعرات الحرارية التي أخذناها من العشاء.

* * * *

ببلوغنا بهو الفندق، تكون هلال الدائمة الحضور في انتظارنا. إلى جانبها تقف امرأة في غاية الجمال ورجل متأنّق ببذّةٍ وربطة عنق.

أقول لهلال: «مرحبا. أتفهّم أنّك عدت إلى منزلك، لكن اجتياز المرحلة الأولى من هذه الرحلة برفقتك، كان مسرّة لي. أهذان والداك؟».

لا يظهر الرجل رد فعل، أما المرأة الجميلة، فتضحك.

«حبّذا لو كنّا! معجزة هي، هذه الفتاة. للأسف، لا تستطيع صرف وقت أكثر على دعوتها. والعالم يفوته فنّانة عظيمة!».

تبدو هلال وكأنها لم تسمع هذه الملاحظة. تتوجّه إليّ وتقول: «مرحبا؟! أهذا كلّ ما لديك لتقوله لي بعد ما حصل على متن القطار؟».

تبدو المرأة مصدومة. أتخيّل ما تفكّر فيه: ماذا حصل بالضبط

على متن القطار؟ أوَلا أعي أنني كبير السنّ بما يكفي لأكون بعمر والد هلال؟

يقول ياو إنّ الوقت حان ليذهب إلى غرفته. يحافظ الرجل بالبذّة وربطة العنق على جموده، ربما لأنه لا يفهم الإنجليزية.

«لم يحصل شيء على متن القطار، أقلّه ليس ما تتخيّلينه. أما أنتِ، يا هلال، فماذا كنتِ تتوقّعين أن أقول؟ أنني اشتقتُ إليكِ؟ قضيت كلّ النهار قلقًا عليك.

تترجم المرأة ذلك للرجل بالبذّة وربطة العنق، ويبتسم الجميع، وهلال من ضمنهم. فهمتْ من ردّي أنني اشتقتُ إليها فعلاً، بما أنّني قلتُ ذلك بعفوية واضحة.

أطلب إلى ياو أن يبقى قليلاً لأنني لا أدري إلى أين ستفضي هذه المحادثة. نجلس ونطلب بعض الشاي. تعرّف المرأة بنفسها على أنّها معلّمة الكمان وتشرح أنّ الرجل الذي معهما هو مدير المعهد العالي المحلّي للموسيقا.

تقول المعلّمة: «أعتقد أنّ هلال تفرّط بمواهبها. هي غير واثقة البتّة بنفسها. قلت لها هذا مرارًا وتكرارًا وسأقوله مجدّدًا. لا ثقة لديها بما تفعله. تظنّ أن لا أحد يقدّر قيمتها، وأنّ ما تعزفه لا يروق للناس. لكن هذا غير صحيح».

هلال غير واثقة بنفسها؟ نادرًا ما التقيتُ بشخصٍ على هذا القدر من العزم.

تتابع المعلّمة، محدّقة فيَّ بعينيها الرقيقتين المسكّنتين: «ولنقُلْ إنها، كسائر الحسّاسين، مضطربة قليلاً».

تقول هلال بصوتٍ مرتفع: «مضطربة! هذا أسلوب مهذّب لقول: مجنونة!».

تلتفت المعلّمة إليها بحنوٍ، ومن ثمّ إليّ، متوقّعة مني أن أقول شيئًا، فلا أقول شيئًا.

«أعرف أنه بإمكانك مساعدتها. أفهم أنّك سمعتها تعزف الكمان في موسكو، وأنّها لاقت ترحيبًا هناك. ذاك يعطيك بعض الفكرة كم هي موهوبة، لأنّ الناس في موسكو يمتلكون بصيرةً نافذةً بخصوص الموسيقا. هلال شديدة الانضباط وتجتهد أكثر من الغالبية. عزفت مع أوركسترات كبيرة هنا في روسيا وسافرت إلى الخارج مع إحداها. لكن فجأة، يبدو أن شيئًا ما حدث، ولا يسعها تحقيق أيّ تقدّم».

أثق بقلق هذه المرأة الحنون تجاه هلال. أظنّ أنها تريد مساعدتها فعلاً، ومساعدتنا جميعًا. لكن صدى تلك الكلمات لكن فجأة، يبدو أن شيئًا ما حدث، ولا يسعها تحقيق أيّ تقدّم يدوّي في قلبي. أنا هنا للسبب ذاته.

الرجل بالبذّة وربطة العنق لا يتحدّث. لا بدّ أنّ وجوده هو تأمين الدعم المعنوي لعازفة الكمان الموهوبة والمرأة الحسناء ذات العينين اللطيفتين. يدّعي ياو أنّه يركّز على كوب الشاي خاصّته.

«لكن ماذا يمكن لي أن أفعل؟».

«تعرف ماذا يمكن لك أن تفعل. لم تعد طفلة، لكنّ والديها قلقان عليها. لا يمكنها أن تتخلّى عن مسيرتها المهنيّة في عزّ التدريب، لتتبع وهمًا».

تتوقّف قليلاً عن الكلام، مُدركةً أنها لم تقل القول المناسب تمامًا.

«قصدي أنها تستطيع أن تسافر إلى ساحل المحيط الهادئ متى تشاء، ولكن ليس الآن، أثناء تدرّبنا على حفل موسيقي».

أوافق. ما أقوله لا يهمّ. ستفعل هلال ما تريده هي بالضبط. أتساءل إن كانت قد أحضرت هذين الشخصين لتضعني تحت الاختبار، لتكتشف إن كانت فعلاً مُرَحَّبًا بها أم يجدر بها إيقاف الرحلة الآن.

أقول فيما أنهض: «أشكرك جدًا على المجيء لرؤيتي. أحترم قلقك والتزامك الموسيقا. لكن، لستُ أنا من دعا هلال إلى هذه الرحلة. لم أدفع ثمن تذكرتها. حتى أنني لا أعرفها جيدًا».

«كاذب»، تقول عينا هلال، لكني أتابع:

«لذا، إن كانت على متن القطار المتوجّه إلى نوفوسيبيرسك غدًا، فهذه ليست مسؤوليتي. في ما يعنيني، يمكن لها أن تبقى، وإذا استطعتِ إقناعها بذلك، سأكون وكثيرون على متن القطار ممتنّين جدًا».

ينفجر ياو وهلال ضحكًا.

تشكرني المرأة الجميلة، تقول إنها تتفهّم موقفي تمامًا وإنها ستتحدّث إلى هلال أكثر وتشرح لها القليل بعد عن حقائق الحياة. نودّع جميعًا واحدنا الآخر، ويشدّ الرجل بالبذّة وربطة العنق يدي. يبتسم، ولسببٍ من الأسباب، يترك لديَّ الانطباع الجليّ بأنّه يودّ أن تكمل هلال رحلتها. لا بدّ أنها تشكّل مشكلة للأوركسترا برمّتها.

يشكرني ياو على الأمسية المميّزة جدًا ويصعد إلى غرفته.

تبقى هلال بلا حراك.

أقول: «سوف أخلد إلى النوم. سمعتِ المحادثة. لا أدري حقًا لماذا ذهبتِ إلى المعهد العالي للموسيقا. أكان لطلب الإذن بمتابعة الرحلة أم لتجعلي زميليك يغاران بإخبارهما أنكِ مسافرة معنا؟».

«ذهبتُ إلى هناك لأعرف إنْ كنت موجودة فعلاً. بعد ما حصل على متن القطار، لم أعد واثقة من أي شيء بعد الآن. ما كان ذلك؟».

أعرف مقصدها. أتذكّر تجربتي الأولى مع **الألِف**، التي حدثت بمحض مصادفة في معتقل داخاو، في ألمانيا، عام ١٩٨٢. شعرتُ بأنني مشوّش وتائه تمامًا بعده، ولو لم تعاكسني زوجتي الرأي، لافترضتُ بأنني أُصبتُ بسكتة دماغية.

أسأل: «ماذا حدث لكِ بالضبط؟».

«أخذ قلبي يخفق ثائرًا، وشعرت كما لو أنني لم أعد في هذا العالم. كنتُ في حالة تامّة من الذعر، وظننتُ أنني قد أموت في أي لحظة. كلّ شيءٍ من حولي بدا غريبًا، وأظن أنني، لو لم تجذبني من ذراعي، لما استطعتُ أنّ أتحرّك. انتابني إحساس بأنّ أمورًا شديدة الأهميّة كانت تتجلّى على مرأى منّي، لكنّي عجزتُ عن فهمها».

أودّ أن أقول لها: «تعوّدي الأمر».

أقول: «**الألِف**».

«نعم، في لحظةٍ من اللحظات، خلال ذلك الانخطاف الذي بدا أزليًا، وخلافًا لكلّ ما سبق أن خبرته، سمعتُكَ تقول تلك الكلمة».

بمجرد استذكار ما حصل، امتلأتُ بالخوف ثانيةً. إنه الوقت لانتهاز اللحظة:

«أتعتقدين أنّه ينبغي لكِ متابعة الرحلة؟».

«آه، نعم، أكثر من أي وقتٍ مضى. لطالما افتُتنت بالرعب. هل تذكر القصة التي رويتها لك في السفارة...»

أطلب إليها التوجّه إلى المشرب وطلب بعض القهوة. أرسلتها وحدها لأننا الزبونان الوحيدان الباقيان، ولا بُدّ أنّ الساقي يتوق إلى إطفاء الأنوار. تواجه بعض المتاعب في إقناعه، لكنها تعود أخيرًا وفي يديها فنجانان من القهوة التركية. كمعظم البرازيليين، لا أقلق أبدًا من شرب القهوة السوداء المركّزة في وقتٍ متأخّر من الليل: أنْ أنام هنيئًا أم لا، هذا رهن بأمور أخرى.

«يستحيل وصف الألِف، كما رأيتِ بنفسك، ولكن في التقليد السحري، فهو يتجلّى بطريقتين. الأولى كنقطة في الكون تحوي كل النقاط الأخرى، الحاضر والماضي، الكبير والصغير. تختبرينه في العادة مصادفةً، كما فعلنا على متن القطار. ولكي يحصل ذلك، على الشخص أو الأشخاص، أن يكونوا في مكان وجود الألِف الفعلي. ندعو ذلك ألِفًا صغيرًا».

«أتقصد أنّ أي شخص يصعد إلى تلك المقطورة ويقف في ذلك المكان بالتعيين قد يشعر بما شعرنا؟».

«إن تركتني أُنهي كلامي قد تفهمين. نعم، سيشعرون، لكن ليس كما خبرناه. لا شكّ في أنّكِ ارتدتِ حفلة وشعرتِ بأنكِ أفضل بكثير، وأكثر أمانًا في جزءٍ واحد من الغرفة أكثر من سواه. ذاك مجرّد محاكاة ضعيفة لماهيّة الألِف، لكنّ الكلّ يختبر الطاقة الإلهية بشكل مختلف عن الآخر. إذا استطعتِ إيجاد المكان المناسب في حفلة، فإنّ تلك الطاقة ستساعدك على الشعور بمزيدٍ من الثقة ومزيدٍ من الحضور. لو كان لأحدهم أن يمرّ عبر تلك النقطة في المقطورة، لانتابه إحساس غريب، كما لو أنّه بات فجاة يعرف كلّ شيء، لكنه ما كان ليتوقّف لمعاينة ذاك الشعور، والتأثير سيتلاشى في اللحظة التالية».

«كم يوجد من هذه النقاط في العالم؟».

«لا أدري كم بالضبط، لكنها على الأرجح ملايين».

«ما الطريقة الثانية التي يتجلّى بها؟».

«دعيني أُنهي ما كنت أقوله أولاً. المثل الذي ضربته لكِ عن الحفلة مجرّد مقارنة. الألِف الصغير يتجلّى دومًا مصادفةً. تمشين في الشارع أو تجلسين في مكان ما، وفجاة تجدين الكون كلّه هناك. أوّل شيء تشعرين به هو رغبة جامحة في البكاء، ليس بداعي الحزن أو

السعادة بل بداعي الحماسة الصافية. تعلمين أنّكِ تفهمين شيئًا لا يسعك تفسيره حتّى لنفسك».

يتقدّم الساقي نحونا، يقول شيئًا بالروسية ويُعطيني ملاحظة لكي أوقّعها. تشرح هلال أنّه علينا الرحيل. نمشي ناحية الباب.

ها قد خلّصتني صفّارة الحكم!

«تابع. ما الطريقة الثانية؟».

يبدو أنّ اللعبة لم تنتهِ بعد.

«إنّه الألِف العظيم».

من الأفضل أن أشرح كلّ شيء الآن، ثمّ، يمكن لها أن تعود إلى المعهد العالي للموسيقا وتنسى كلّ ما حدث.

«يحدث الألِف العظيم عندما يصدف أن يجد شخصان متآلفان بشدّة، أو أكثر، أنفسهما في الألِف الصغير. تكمّل طاقتاهما المختلفتان إحداهما الأخرى وتُحدثان تفاعلات متسلسلة. طاقتاهما...»

لا أدري إنْ كان عليّ أن أتابع، لكن لا خيار لديّ. تكمل هلال الجملة عنّي:

«هما القطبان الموجب والسالب، اللذان تجدهما في البطارية، والشحنة ما يجعل اللمبة تُضيء. هما يتحوّلان إلى الضوء ذاته. كواكب تتجاذب وينتهي بها الأمر إلى الاصطدام واحدها بالآخر. أحبّاء يلتقون بعد وقت طويل، طويل. ويحدث الألِف الثاني مصادفة عندما يلتقي شخصان، اختارهما القدر لـمهمّة محدّدة، في المكان المناسب».

بالضبط، لكني أريد أن أتأكّد أنّها فهمت حقًا.

أسأل: «ماذا تقصدين بـ«المكان المناسب»؟».

«أقصد أنه يمكن لشخصين أن يقضيا حياتهما يعيشان ويعملان معًا أو أن يلتقيا مرّة واحدة فقط ويفترقا إلى الأبد لمجرّد أنهما لم يعبرا النقطة الفيزيائية التي تحثّ على تدفّق ما جمعهما في هذا العالم. لذلك، يتباعدان من دون أن يفهما تـمامًا ما الذي جعلهما يلتقيان. لكن، إن شاء الله، أولئك الذين عرفوا الحب يومًا، سيلتقون من جديد».

«ليس بالضرورة، لكن الأشخاص الذين تشاركوا في تآلفهم، مثلي ومعلّمي .....»

تقاطعني ثانيةً، قائلة: «...من قبل، في حيواتٍ ماضية. أو من يلتقون، مثلاً في الحفلة التي استخدمتها مثالاً، في الأِلف الصغير، ويقعون في الحب من توّهم. الحب الشهير من النظرة الأولى».

أقرّر أن أتابع المثل الذي استخدمته.

مع ذلك، فهو لا يكون طبعًا «من النظرة الأولى»، لكنه يرتبط بسلسلة كاملة من الأمور التي حدثت في الماضي. ذاك لا يعني أنّ كلّ لقاء مماثل على صلة بالحب الرومانسي. يحدث معظمها بسبب الأمور التي بقيت من دون حلول، وإننا نحتاج إلى تجسُّدٍ جديدٍ لكي نُنهي أمرًا بقي غير مُنجز. أنت تستدلّين أمورًا عن الوضع، هي في الواقع غير موجودة».

«أحبّكَ».

أتعجّب بغيظ: «لا، ليس هذا ما أعنيه. سبق لي أن التقيتُ المرأة التي احتجتُ إليها في إطار هذا التجسُّد. استغرقني الأمر ثلاث زيجات قبل أن أجدها، ولا أنوي بكل تأكيد أن أهجرها من أجل أخرى. التقينا منذ قرون بعيدة، وسنظلّ معًا على مدى القرون الآتية».

لكنها لا تريد أن تسمع ما عندي لأقوله. وتمامًا كما فعلت في موسكو، تودِع قبلةً خاطفةً على شفتيّ، وتنطلق في ليل ييكاتيرينبرغ القارس.

الحالمون لا يمكن ترويضهم أبداً

الحياة هي القطار، لا المحطّة. وبعد يومين تقريبًا من السفر، يحلّ الإعياء والتشوّش والحنين إلى الأيام التي قضيناها في بيكاتيرينبرغ، والتوتّر المتزايد بين مجموعة من الأشخاص المحتبسين معًا في مكان واحد.

قبل أن ننطلق من جديد، وجدتُ ملاحظة من ياو لدى مكتب الاستقبال في الفندق، يسألني فيها إذا كنت أرغب في القيام ببعض تمرينات الأيكيدو، لكني لم أردّ. فقد كنت محتاجاً إلى البقاء على انفراد لبضع ساعات.

قضيت الصباح بطوله محاولاً التمرّن بدنيًا قدر ما أستطيع على الركض والمشي. هكذا، مع عودتي إلى القطار، ساكون متعبًا فأنام. تمكّنت من مهاتفة زوجتي- لم يكن هاتفي الجوّال يعمل على متن القطار- وأسرّيتُ إليها بأن الشكوك تساورني حول منفعة هذه الرحلة عبر ترانس-سيبباريان، مضيفًا أنني قد لا أكمل الرحلة حتى النهاية، مع أنها كانت تجربةً مفيدةً حتى الآن.

قالت إنّها ستكون مرتاحةً لقراري مهما يكن ودعتني الاّ أقلق. كانت شديدة الانشغال برسوماتها. في تلك الأثناء، كان حلمٌ قد راودها وعجزت عن فهمه. حلمتْ أنني كنت على الشاطئ وأنّ

شخصًا طلع من البحر وقال لي إنني في صدد إنجاز مهمّتي. ثمّ اختفى هذا الشخص.

سألتها إن كان هذا الشخص ذكرًا أم أنثى. قالت إنها لم تعرف، وإنّ وجه الشخص كان مغطّى. ثمّ دعت لي خيرًا وطمأنتني ثانية، قائلة ألاّ أقلق. قالت إن ريو كانت شديدة الحرّ كفرن. ثمّ، نصحتني أن أتبع حدسي وألاّ آخذ بما يقوله الآخرون.

«في ذلك الحلم نفسه، كان ثمّة امرأة أو فتاة، لستُ واثقة تحديدًا أيّهما، إلى جانبك على الشاطئ».

«ثمّة شابة معي هنا على متن القطار. لا أعرف كم عمرها، لكنها قطعًا تحت الثلاثين».

«ثِق بها».

* * * *

عصرًا، اجتمعتُ بناشريّ وأجريت بعض المقابلات، ثمّ تناولنا العشاء في مطعم ممتاز، ونحو الحادية عشرة ليلاً توجّهنا إلى المحطّة. عبرنا جبال الأورال- سلسلة الجبال التي تفصل أوروبا عن آسيا- في عزّ الظلمة، فلم يرَ أحدٌ شيئًا.

مذّاك، عادت الرتابة المعتادة. مع طلوع النهار، حضرنا جميعًا إلى مائدة الفطور، كما لو أنّ جرسًا صامتًا استدعانا. مرةً أخرى، لم يتمكّن أحد من النوم ولو غمضة عين، ولا حتى ياو، الذي بدا متعوّدًا هذا النوع من الرحلات. أخذ يبدو أكثر إعياءً وتعبًا مما كان يومًا.

كالعادة، كانت هلال هناك، منتظرة، وقد نامت أفضل حالاً من الجميع. عند الفطور، بدأنا محادثتنا بالتذمّر عن تأرجح المقطورة المستمر، ثمّ عدتُ إلى غرفتي لكي أحاول النوم. استيقظتُ مجدّدًا بعد بضع ساعات، وعدتُ إلى غرفة الجلوس، حيث لقيتُ الأشخاص أنفسهم، ومعًا ندبنا آلاف الكيلومترات التي لا تزال أمامنا. ثمّ، أخذنا نحدّق إلى الخارج من النافذة، ندخّن، ونستمع إلى الموسيقا الأنبوبية المزعجة المنبعثة من مكبّرات الصوت في القطار.

بالكاد قالت هلال كلمة وقتها. كانت تجلس كل الوقت في الزاوية ذاتها، تفتح كتابها وتروح تقرأ، منتزعةً نفسها من المجموعة. لا أحد، ما عداي، بدا منزعجًا من ذلك، لكني وجدتُ سلوكها فظًا للغاية بالفعل. عندما نظرتُ في بديل سلوكها- أي ميلها إلى الإدلاء بملاحظات غير ملائمة- قرّرت ألاّ أقول شيئًا.

كنت أُنهي وجبة طعامي، وأرجع إلى مقصورتي لأنام أو أغفو أو أكتب. وبإجماع الكلّ، كنا جميعًا نفقد تتبّعنا لأي زمن. قلّما همّنا إن كان نهارًا أو ليلاً، كانت أيامنا تُقاس بأوقات وجبات الطعام، كأيام كل المساجين على ما أظنّ.

كنّا نحضر إلى غرفة الجلوس لنجد أن وجبة العشاء قد جُهزت. شربنا من الفودكا أكثر مما شربنا من المياه المعدنية، والتزمنا الصمت أكثر من الحديث. قال لي ناشري إنّ هلال عزفت الكمان إيماءً، في غيابي، كما لو أنّها كانت تتمرّن. أعرف أنّ لاعبي

الشطرنج يقومون بذلك، يؤدّون العابًا كاملةً في أذهانهم، من دون الحاجة إلى لوح.

،نعم، إنها تعزف موسيقا صامتة لكيانات غير مرئية. لعلهم يحتاجون إليها،.

* * * *

فطور آخر. لكن الأمور مختلفة اليوم. بدأنا نتعوّد أسلوب حياتنا الجديد. يتذمّر ناشري من أنّ هاتفه الجوّال لا يعمل جيدًا (هاتفي لا يعمل إطلاقًا). ترتدي زوجته ملابس تبدو فيها كجاريةٍ، فيصدمني ذلك لكونه ممتعًا وسخيفًا في آن. هي لا تتكلّم الإنجليزية، لكننا نتمكّن بطريقة ما من فهم واحدنا الآخر جيدًا عبر النظرات والحركات. تقرّر هلال أن تنخرط في محادثة هذا الصباح وتصف بعض الصعوبات التي يواجهها الموسيقيون في كفاحهم لكسب العيش. لعلّها مهنة مهيبة، لكن معظم الموسيقيين يكسبون أقلّ مما يكسب سائق سيارة أجرة.

تسأل محرّرتي: ،كم عمركِ؟،.

،إحدى وعشرون سنة،.

،لا تبدين كذلك،.

تقولها بطريقة تُلمّح فيها إلى أنها تبدو أكبر سنًا بكثير. وهي كذلك حقًا. لم يخطر لي مطلقًا أن تكون صغيرة السن هكذا.

تقول المحرّرة: ،أتى مدير المعهد العالي للموسيقا لرؤيتي في

الفندق في بيكاتيرينبرغ. قال إنّكِ أحد أكثر عازفي الكمان موهبة، ممن عرفهم، وإنّك فقدتِ فجاةً كل اهتمام بالموسيقا».

تردّ هلال، مجتنبةً النظر في عينيّ:كان الألِف.

ينظر إليها الجميع متفاجئين. واتظاهر بانني لم أسمع.

«نعم، الألِف. لم أستطع إيجاده، وتوقّفت طاقتي عن التدفّق. شيء ما في ماضيَّ كان يعوّقها».

يبدو أنّ المحادثة قد أخذت منحًى سورياليًا. التزم صمتي أكثر، لكن ناشري يحاول ترطيب الأجواء:

«نشرتُ كتابًا في الرياضيات وقد حمل تلك الكلمة عنوانًا. في الاصطلاح اللغوي التقني، هي تعني الرقم الذي يحوي كلّ شيء. ويظهر أنّ الرياضيات تستخدم الألِف لتمثيل أهميّة مجموعات الأعداد اللامتناهية....».

يبدو أن لا أحد يتابع هذا الشرح. فيتوقّف في منتصف حديثه.

أقول، كما لو انني امسكتُ بطرف الحديث من توّي: «هو موجود في سِفر الرؤيا كذلك. حيث الحمل يوصف على أنه البداية والنهاية، على انه الشيء الذي يتعدّى نطاق الزمن. كما أنّه الحرف الأوّل من الأبجدية العبرية والعربية والآرامية».

تندم المحرّرة على جعل هلال محور الانتباه وتقرّر ان تحطّ منها قليلاً.

«مع ذلك، فإن فتاةً في الحادية والعشرين، خرجت لتوّها من

مدرسة الموسيقا، وأمامها مسيرة مهنيّة لامعة، لا بدّ أن السفر على طول الدرب، من موسكو إلى ييكاتيرينبرغ، يكفي».

تقول هلال: «خاصة بالنسبة إلى سبالاّ *spalla*».

لاحظت هلال الارتباك الذي أحدثه استعمالها كلمةألف وهي مغتبطة لإرباك المحرّرة أيضاً بمصطلحٍ غامضٍ آخر.

يزداد التوتّر، فيتدخّل ياو.

«أصبحتِ سبالاّ؟ تهانيّ!».

ثمّ يضيف متوجّهًا إلى باقي المجموعة:

«كما تعلمون جميعًا، **السباللاّ** هو الكمان الأول في الأوركسترا، العازف الأخير الذي يدخل المنصّة قبل قائد الأوركسترا، والذي يُجلس دومًا في الصفّ الأوّل إلى يسار. عازف السبالاّ مسؤول عن التأكّد من أنّ كافة الآلات الأخرى متناغمة. في الواقع، أعرف قصة مشوّقة عن الموضوع، حدثت عندما كنت في نوفُوسيبيرسك، وقفتنا التالية. أتودّون سماعها؟».

يوافق الجميع، كما لو أنهم عرفوا حقًا معنى كلمة سبالاّ.

يتبيّن أنّ قصة ياو لم تكن مشوّقة تحديدًا، ولكن اجتُنب التواجه بين هلال والمحرّرة. بعد أطروحة مملّة عن روائع نو فوسيبيرسك، يهدأ الجميع ويفكّرون في العودة إلى مقصوراتهم ومحاولة الارتياح قليلاً، في حين أندم مجددًا على فكرة عبور قارّة بأكملها عبر القطار.

يقول ياو: «آه، نسيتُ إلصاق فكرة اليوم».

يكتب على ورقة لاصقة: «الحالمون لا يمكن ترويضهم أبداً»، ويلصقها على المرآة إلى جانب «فكرة» اليوم السابق.

يقول ناشري: «ثمّة مراسل تلفزيوني في إحدى المحطات التالية وهو يودّ مقابلتك».

أقول «جيّد»، مسرورًا بأي إلهاء، أي شيء يساعد على مرور الوقت.

يقول ناشري: اكتب عن الأرق. من يدري، قد يساعدك على النوم.

تقول هلال: «أريد أن أجري مقابلة معك». أرى أنّها قد تعافت تمامًا من خمولها.

أقول لها: «حدّدي موعدًا مع ناشري».

أذهب إلى مقصورتي وأستلقي، ثمّ، كالعادة، أقضي الساعتين التاليتين وأنا أتقلّب وأتبرّم. ساعتي الأحيائية خارج حالتها الطبيعية كليًا، وعلى غرار كل من يعاني الأرق، أُطمئن نفسي تفاؤلاً بأنني أستطيع استثمار الوقت في التفكير بأمورٍ مثيرةٍ للاهتمام، لكن بالطبع، يثبت استحالة ذلك.

فجأة، أسمع موسيقا. بدايةً، أظنّ أن إدراكي للعالم الروحاني قد عاودني بسهولة، بطريقة ما، لكني أعي أنني إلى جانب الموسيقا، أستطيع سماع العجلات على السكّة، وأرى الأشياء ترتجّ على طاولتي.

الموسيقا حقيقية. وهي تصدر من الحمّام. أنهض وأفتح الباب.

هلال واقفة، إحدى رجليها في حوض الاستحمام والأخرى خارجه، محاولةً أن تُوازن نفسها بأفضل ما يكون، تعزف الكمان. تبتسم حين تراني، لأنني عارٍ إلا سروالي الداخلي. ومع ذلك، يبدو لي الوضع طبيعيًا جدًا ومألوفًا جدًا، لدرجة لا أبذل معها أي جهد لكي أرتدي بنطلوني.

«كيف دخلتِ إلى هنا؟».

تواصل العزف، لكنّها تشير بإيماءة من رأسها إلى الباب المؤدّي إلى المقصورة التالية، التي أتشاطر معها الحمّام. تقول:

«استيقظتُ هذا الصباح عارفةً أنّ مساعدتك في استرجاع صلتك بطاقة الكون رهنٌ بي. عَبَرَ الله روحي وقال لي إن نجحتَ في ذلك، فسأنجح أنا أيضًا. وطلب إليّ أن آتي إلى هنا وأعزف لك حتى تنام».

لم أذكر قط أنني فقدت صلتي بتلك الطاقة، وقلقها عليّ حرّك مشاعري. يجاهد كلانا للحفاظ على توازنه في المقطورة المتواصلة التأرجح، يلامس قوسها الأوتار، تُصدر الأوتار صوتًا، يملأ الصوت المكان، ويتحوّل المكان إلى زمانٍ موسيقيّ، ويفيض سلامًا ونورًا إلهيًا ينبعث من كلّ ما هو حيوي وحيّ، وكلّ هذا بفضل كمان هلال.

روح هلال في كلّ نوتة، في كل وتر. كشف لي الألِف بعضًا من المرأة الواقفة أمامي. لا يسعني تذكّر كلّ تفصيل من قصّتنا

لكني أعلم أننا التقينا من قبل. آمل فقط ألا تعلم في أي ظروف حدث ذلك اللقاء. في هذه اللحظة بالذات، هي تلفّني بطاقة الحب، كما يمكن لها أن تكون قد فعلت ماضيًا. ولها أن تطيل ذلك، لأنّ الحب هو الوحيد الذي سيخلّصنا، بمعزل عن أي أخطاء قد نقترفها. الحب أقوى دومًا.

أبدأ بإلباسها، في ذهني، ما كانت ترتديه عندما التقيتها في المرة الفائتة التي كنّا فيها معًا وحيدين، قبل مجيء رجال آخرين إلى المدينة وتغيير القصّة كلّها: صدريّةً مطرّزة، قميصاً أبيض مخرّماً، تنّورةً طويلةً حتى الكاحل من المخمل الأسود، مطرّزةً بخيط ذهبي. أصغي إلى كلامها وهي تتحدّث إلى العصافير، وما لدى العصافير لتقوله لبني البشر، مع أنّ الناس يعجزون عن السمع والفهم. في تلك اللحظة، أنا صديقها، أنا سامع اعترافاتها، أنا...

أتوقّف. لا أريد أن أفتح ذاك الباب ما لم تدعُ إليه الضرورة الملحّة. سبق أن دخلته أربع مرّات ولم يُفضِ بي إلى مكان. نعم، أذكر النساء الثماني اللائي كنّ هناك، وأعرف أنني، يومًا ما، سأسمع الإجابة الناقصة، لكن، حتى الآن، لم يمنعني ذلك قط من مواصلة حياتي الحالية. عندما حدث للمرة الأولى، ارتعبتُ بحقّ، لكني أدركتُ بعدها أنّ الغفران يُجدي فقط إن تقبّلته.

وهذا ما فعلتُ.

ثمّة لحظة في الإنجيل، أثناء العشاء الأخير، عندما يتنبّأ يسوع

بأنّ واحدًا من تلامذته سوف ينكره وواحدًا سيخونه. يعتبر الجريمتين على القدر ذاته من الخطورة. يخونه يهوذا ويشنق نفسه بعد أن تآكله الذنب. ينكره بطرس، لا مرةً واحدةً بل ثلاث. كان لديه الوقت ليفكّر بما كان يفعل، لكنه واظب على غلطه. مع ذلك، بدلاً من معاقبة نفسه على ذلك، يجعل من ضعفه قوةً، ويصبح المبشّر الأوّل الأعظم للرسالة التي علّمه إياها الرجل الذي أنكره ساعة حاجته إليه.

كانت رسالة الحب أعظم من الخطيئة. لم يفلح يهوذا في فهم ذلك، لكنّ بطرس استخدمها كأداة عمل.

لا أريد أن أفتح ذلك الباب، لأنّه كمثل سدٍّ يصدّ المحيط. مجرّد ثقبٍ صغيرٍ قد يكفي لكي يدمّر ضغط المياه كلّ شيء، ويفيض على ما لا يجدر به أن يفيض عليه غرقًا. إنني على متن قطار والشيء الوحيد الموجود هو امرأة تركية تدعى هلال، عازفة كمان أولى في أوركسترا، وهي واقفة الآن في حمّامي تعزف موسيقاها. أشعر بالنعاس، فالعلاج يعطي مفعوله. رأسي يرتخي، وعيناي تغمضان. تتوقّف هلال عن العزف وتطلب إليّ أن أستلقي، فأطيع.

تجلس في الكرسي وتتابع العزف. فجأة لم أعدْ في القطار، ولا في تلك الحديقة حيث رأيتها بالقميص الأبيض المخرّم، أسافر في نفقٍ طويلٍ وعميقٍ يودي بي إلى العدم، إلى نومٍ ثقيل يخلو من الأحلام.

آخر ما أذكره قبل خلودي إلى النوم هو الجملة التي علقها ياو على المرآة ذاك الصباح.

* * * *

ياو يتّصل بي.

«المراسل هنا».

لا يزال ضوء النهار طالعًا، والقطار متوقّفاً في محطّة. أنهض، ورأسي يدور. أشقّ الباب وأجد ناشري ينتظرني خارجًا.

«كم مضى على نومي؟».

«طول النهار على ما أعتقد. إنها الخامسة بعد الظهر».

أخبره أنني أحتاج إلى بعض الوقت لكي أستحمّ وأصحو جيدًا لئلا أقول أشياء أندم عليها لاحقًا.

«لا تقلق. سيكون القطار هنا على مدى الساعة المقبلة».

لحسن حظي أننا متوقّفون: الاستحمام فيما القطار يتحرّك مهمّة صعبة وخطرة. قد أنزلق بسهولة وأؤذي نفسي وأُنهي الرحلة بأكثر الطرق سخفًا، على عكّاز. كلّما دخلت حوض الاستحمام، شعرت بأنني أمارس ركوب الأمواج. أما اليوم، فالأمر سهل.

بعد خمس عشرة دقيقة أخرج، أحتسي القهوة مع الآخرين، وأتعرّف من ثمّ إلى المراسل. أسأله كم من الوقت يحتاج لإجراء المقابلة معي.

«نستطيع أن نحدّد وقتًا. فكّرتُ في إمكانية سفري معك حتى المحطّة المقبلة و...»

«عشر دقائق ستفي بالغرض. ثمّ، يمكنك أن تنزل هنا. لا أريد أنَ أعرّضك إلى متاعب لا لزوم لها».

«لكنَك لا...»

أكرّر: «لا، حقًا، لا أريد أنَ أعرّضك إلى أيّ متاعب». لم يكن يجدر بي الموافقة على إجراء هذه المقابلة؛ من الواضح أنني لم أكن أفكّر بطريقة صائبة عندما قلت «نعم». هدفي من هذه الرحلة مختلف تمامًا.

ينظر المراسل إلى ناشري الذي يشيح بنظره ويحدّق بثبات إلى خارج النافذة. يسأل ياو إن كانت الطاولة مناسبة لفريق التصوير.

«كنتُ أفضّل المساحة بين المقطورات، إلى جانب أبواب القطار».

ترمقني هلال بنظرة خاطفة. هناك الألِف.

أوَلم تتعب هلال من الجلوس إلى الطاولة نفسها كلّ الوقت؟ بعد أن أرسلتني إلى ذلك الموضع خلف الزمان والمكان، هل بقيت في المقصورة يا تُرى، تراقبني فيما أنام؟ سيكون لدينا ما يكفي من الوقت للتحدّث لاحقًا.

أقول: «حسن جهّز آلة التصوير. لكن، وبداعي الفضول البحت، ما داعي اختيارك مساحةً صغيرةً صاخبةً في حين أن بوسعنا البقاء هنا؟».

المراسل والمصوّر يتّجهان أصلاً إلى آخر المقصورة، فنتبعهما.

أسأل مجدّدًا فيما هما يركّبان المعدّات:لـمَ هذه المساحة الصغيرة جدًا؟.

«لكي نـمنح المشاهد حسًا من الواقع. إنه ههنا، حيث كلّ شيء يحدث. يغادر الناس مقصوراتـهم ويأتون إلى هنا للتحدّث لأنّ الممرّ شديد الضيق. يلتقي المدخّنون هنا. قد يشكّل لشخص آخر، مكانًا لموعدٍ سرّي. لكلّ المقطورات هذه الردهات».

الآن، يشغل المساحة كلٌّ مني، المراسل، المصوّر، الناشر، ياو، هلال وطبّاخ أتى لكي يشاهد المقابلة.

أسأل: «هلاّ حصلنا على بعض الخصوصيّة هنا؟».

المقابلة التلفزيونية هي أقلّ الأمور خصوصيّة في العالم. يغادر الناشر والطبّاخ. لا تبرح هلال وياو مكانيهما.

«أيمكن لكَ التنحّي قليلاً إلى اليسار؟».

لا، لا يمكن لي. هناك الألِف، الذي أوجده كثير من الناس الذين وقفوا هناك في الماضي. ومع أنّ هلال تقف على مسافة آمنة، ومع أنني أعرف أننا لن نغوص في تلك النقطة الواحدة من جديد ما لم نقف متقاربَيْن، أشعر أن من الأفضل عدم القيام بأي مخاطر.

آلة التصوير تعمل.

«قبل أن نبدأ، ذكرتَ أنّ المقابلات والدعاية ليستا الغاية الأساسية من هذه الرحلة. هلاّ شرحتَ لنا لـمَ قرّرت السفر على متن سكّة ترانس-سيباريان؟».

«لأنني أردتُ ذلك. كان حلمًا رافقني منذ مراهقتي. هذا كلّ شيء».

«كما أرى، إنّ قطارًا كهذا ليس تمامًا وسيلة النقل الأريح».

أتحوّل إلى مجيب آلي وأروح أردّ على أسئلته من دون تفكير. تتتابع الأسئلة، حول التجربة بذاتها، توقّعاتي، لقاءاتي مع قرّائي. أردّ بصبرٍ، باحترام، لكني أتوق طوال الوقت إلى انتهاء كلّ هذا. أفكّر أنّه لا بدّ للدقائق العشر المشترَطة أن تكون قد مرّت الآن، لكنه يواصل طرح الأسئلة. يبدو منزعجًا قليلاً، لكنّه يواصل الكلام مع ذلك.

«أتسافر وحدك؟».

ها إنّ إشارةً ضوئيةً تومِض: يبدو أنّ الشائعة قد انتشرت. أُدرك أنّ هذا هو السبب الوحيد لهذه المقابلة غير المتوقّعة.

«لا، بالطبع لا. رأيتَ كم هم كُثُرٌ الأشخاص حول الطاولة هناك».

«لكن، الظاهر أنّ عازفة الكمان الأولى من المعهد العالي للموسيقا في ييكاتيرنبرغ...».

كأي مراسل جيّد، لقد ترك السؤال الأصعب إلى الآخِر. تبعد هذه المقابلة عن كونها الأولى التي أجريت، فأقاطعه قائلاً: «نعم، صدف أنها كانت مسافرة على القطار نفسه، وعندما علمتُ بذلك، دعوتها إلى الانضمام إلينا متى شاءت. أحبُّ الموسيقا. هي شابّة

موهوبة للغاية، ونُسرّ بين الحين والحين بسماعها تعزف. أتودّ إجراء مقابلة معها؟ أنا واثق أنها ستُسعد بالإجابة عن أسئلتك».

«نعم، إنّ كان الوقت يسمح».

لم يأتِ إلى هنا لكي يتحدّث عن الموسيقا، لكنّه يقرّر ألاّ يشدّد على هذه النقطة ويبدّل الموضوع.

«ماذا يعني لك الله؟

«كلّ من يعرف الله يعجز عن وصفه. وكلّ من يقدر على وصف الله لا يعرفه».

واو!

كلماتي تفاجئني. سُئلتُ هذا مرّات ومرّات، والمجيب الآلي فـيّ يردّ دومًا: «عندما تكلّم الله مع موسى، قال «أنا»، لذا فإنّ الله ليس الـمُرسِل ولا الـمُرسَل إليه، بل هو الرسالة والفعل».

يلتفت ياو إليّ.

«حسناً، سنُنهي المقابلة عند هذا الحدّ. شكرًا جزيلاً على وقتك».

مثل دموعٍ في المطر

أرجع إلى مقصورتي وأدوّن بانفعال كلّ ما كنت أتحدّث عنه من توّي مع الآخرين. سنصل قريبًا إلى نوفوسيبيرسك. لا يجدر بي نسيان أي شيء، ولا أي تفصيل. قلّما يهمّ من سأل ماذا. إنْ تسنَّ لي تسجيل ردودي، فستشكّل مادّة ممتازة للتفكير التراجعي.

★ ★ ★ ★

مع انتهاء المقابلة، وافتراض أنّ المراسل سيبقى لبعض الوقت، أطلب إلى هلال أن تجلب كمانها. بتلك الطريقة، يمكن للمصوّر أن يصوّرها، وسيصل عملها إلى شريحة أكبر من الناس. لكن المراسل يقول إنّ عليه المغادرة على الفور لإرسال المقابلة إلى مكتب التحرير.

في هذه الأثناء، ترجع هلال مع كمانها، الذي كانت قد تركته في المقطورة الفارغة إلى جانب مقطورتي. فيكون ردّ فعل محرّرتي سيئًا.

«إذا كنتِ ستمكثين في تلك المقصورة، سيكون عليك تقاسم كلفة إيجار المقطورة. أنتِ تحتلّين ما لنا من مساحة ضيقة».

ثمّ، ترى النظرة في عينيّ وتُقفل الموضوع.

يقول ياو لهلال: «بما أنّك جاهزة، فلمَ لا تعزفين لنا شيئًا؟».

أطلب فصل مكبّرات الصوت في المقطورة وأقترح على هلال أن تعزف شيئًا وجيزًا جدًا، فتفعل ما طُلب.

يسكن الجو فجأة. لا بدّ أنها حال الجميع، لأنّ التعب المستمرّ الذي كان يلحق بنا، يختفي كليًا ببساطة. يملؤني إحساس عميق بالسلام، أعمق من السلام الذي اختبرته لفترة قصيرة من قبل في مقصورتي.

لماذا كنت أتذمّر طول الأشهر الماضية بأنني لست على صلة بالطاقة الإلهية؟ يا للكلام الفارغ! نحن على صلة بها دومًا، هي الرتابة وحسب ما يحول دون شعورنا بها.

أقول: «أحتاج إلى التحدّث، لكن لا أدري عن أي شيء بالضبط، لذا سلوني ما شئتم».

لن أكون أنا من يتحدّث، لكن لا نفع من التفسير.

تسأل هلال: «هل التقيتني في مكانٍ ما ماضيًا؟».

أتودّ فعلاً أن أجيب عن ذلك هنا بالذات، أمام الجميع؟

«لا يهمّ. عليكِ التفكير بمكان كلٍّ منّا الآن، في اللحظة الحاضرة. نحن متعوّدون أن نقيس الزمن كما نقيس المسافة بين موسكو وفلاديفوستوك، لكن الأمر ليس على هذا النحو. الزمن لا يتحرّك وليس ثابتًا أيضًا. الزمن يتغيّر. ونحن نشغل نقطة في ذلك الزمن المتحوّل، نشغل ألِفنا. يكون لفكرة مرور الزمن أهميّة حين تحتاجين إلى معرفة وقت مغادرة قطارٍ ما، لكن عدا ذلك، هي

لا تنفع إطلاقا، ولا حتى عندما تطهين. في النهاية، مهما أعددت وصفة طعام مرارًا، تكون مختلفة في كلَ مرة. أتتابعينني؟».

والآن، بعد أن كسرت هلال الجليد، يبدأ الجميع بطرح أسئلة:

«أنحن نتيجة ما نتعلّمه؟».

«نتعلّم في الماضي، لكننا لسنا نتيجة ذلك. في الماضي عانينا، في الماضي أحببنا، في الماضي بكينا وضحكنا، لكن لا جدوى من ذلك بالنسبة إلى الحاضر. للحاضر تحدّياته، جانباه الجيد والسيىء. لا يمكن لنا أن نلوم الماضي أو نـمتنّ للماضي على ما يحصل الآن. كل تجربة حبّ جديدة لا دخل لها، لا من بعيدٍ ولا قريب، بالتجارب الماضية، هي جديدة على الدوام».

أتكلّم معهم، ولكن مع نفسي أيضًا. أتساءل بصوتٍ عالٍ:

«أيُحتمل أن نثبّت الحبّ ونجعله يتوقّف في الزمن؟ نستطيع المحاولة، لكن سيقلب ذلك حياتنا جحيمًا. لـم يدم على زواجي بالمرأة نفسها أكثر من عشرين سنة، لأنّ كلاً منا لم يبقَ على حاله، لهذا علاقتنا أكثر حياةً من أي وقتٍ مضى. لا أتوقّع منها أن تتصرّف بالطريقة نفسها كما عندما التقينا بدايةً. ولا حتى هي تريدني أن أكون الشخص ذاته الذي كنته عندما وجدتها. الحبّ يتخطّى الزمن، أو بالأحرى، الحبّ هو الزمان والمكان معًا، لكنّه مركَز على نقطة واحدة مستديمة التطوّر، هي الألِف».

«الناس لا يألفون طريقة التفكير تلك. يريدون أن يبقى كلّ شيء كما هو...».

أقول، مقاطعًا المتكلم: «...وعاقبة ذلك الألم. لسنا الشخص الذي يتمنّى الآخرون أن نكونه. نحن من نقرّر أن نكون. يسهل دومًا ملامة الآخرين. يمكن لكم أن تقضوا حياةً كاملةً تلومون فيها العالَم، لكنّ نجاحاتكم أو سقطاتكم من مسؤوليتكم وحدكم بالكامل. لكم أن تحاولوا إيقاف الزمن، لكنّه هدر تام للطاقة».

يتوقّف القطار فجأة، على غفلة، وينذهل الجميع. أواصل استيعابي معنى ما أقول، مع أنني لستُ واثقًا من أنّ الجميع يواكبونني.

«تخيّلوا أنّ القطار لم يتوقّف في الزمن المناسب، وأنّ حادثًا نهائيًا مميتًا قد وقع. كلّ هذه اللحظات ستتيه في الزمن، كمثل دموعٍ في المطر، كما قال الأندرويد (الشبيه الآلي للإنسان) في فيلم «برايد رانر». لكن هل ستتيه فعلاً؟ لا، لأنّ لا شيء يختفي، كلّ شيء يُخزَّن في الزمن. أين حُفظت قبلتي الأولى؟ أفي زاوية مستترة من دماغي؟ أفي سلسلة من السيّالات الكهربائية التي تمّ تعطيلها؟ قبلتي الأولى أكثر حياةً من أي وقتٍ مضى. هي هنا، حولي. هي تشكّل جزءًا من ألِفي».

«لكنني أحتاج الآن إلى حلّ كلّ أنواع المشكلات».

«هي تقبع في ما تسمّونه (الماضي) وتنتظر قرارًا يُتّخذ فيما تسمّونه المستقبل. إنها تعوّق ذهنكم وتبطّئكم، ولن تدعكم تفهمون الحاضر. إنّ عوّلتم على تجربةٍ واحدةٍ فحسب، ستواصلون ببساطة تطبيق حلول قديمة على مشكلات جديدة. أعرف الكثير من الناس

ممن يشعرون أنّ لهم هويّةً فقط عندما يتحدّثون عن مشكلاتهم. بتلك الطريقة، يكونون موجودين، لأنّ مشكلاتهم مرتبطة بما يعتبرونه (تاريخهم).

عندما لا يعلّق أحد على هذا، أتابع:

«أن تُعتقوا أنفسكم من الذاكرة يستدعي مجهودًا هائلاً، لكن عندما تنجحون، تبدأون إدراك أنّكم قادرون على أكثر مما تخيّلتم بكثير. أنتم تحيون في هذا المجسّم الواسع الذي يُسمّى الكون، والذي يحوي كلّ الحلول وكلّ المشكلات. زوروا روحكم ولا تزوروا الماضي. يمرّ الكون بتحوّلات كثيرة ويحمل الماضي معه. نُسمّي كلاً من هذه التحولات «حياة»، وكما تتبدّل الخلايا في أجسامكم لكنكم تبقون كما أنتم، كذلك الزمن يبقى بلا مرور، هو يتبدّل فحسب. تخالون أنكم لا تزالون الشخص ذاته الذي كنتموه في بيكاتيرينبرغ، لكنكم لستم كذلك. لم أعد الشخص ذاته الذي كنته عندما شرعتُ أتكلّم. ولا القطار في المكان نفسه عندما عزفت هلال على كمانها. كلّ شيء قد تغيّر، ولكن لا يسعنا رؤية ذلك».

يقول ياو: «لكن، يومًا ما، ستحين نهاية زمننا الشخصي».

«نهاية؟ لكنّ الموت مجرّد باب إلى بُعدٍ آخر».

«ومع ذلك، رغم ما تقوله، سيختفي أحبّاؤنا وسنختفي يومًا».

«مطلقًا. لا نفقد أحبّاءنا مطلقًا. هم يرافقوننا، هم لا يختفون من حياتنا. إننا في غرفٍ مختلفة فحسب. مثلاً، لا يسعني أن أرى

مَن في المقطورة التالية، لكنها تضمّ أشخاصًا يسافرون في الزمن نفسه الذي أسافر فيه، الذي تسافر أنتَ فيه، الذي يسافر الجميع فيه. واقع أننا نعجز عن التحدّث إليهم أو معرفة ما يجري في تلك المقطورة الأخرى، أمر لا يمتّ إلى الموضوع بصلة أبدًا. إنهم هناك. لذا، ما ندعوه «الحياة» هي قطار بمقطورات عدّة. أحيانًا، نكون في واحدة منها، وأحيانًا في أخرى، وأحيانًا نعبر من الواحدة إلى الأخرى عندما نحلم أو عندما نجيز لأنفسنا أن ترتحل مع ما هو استثنائي».

«لكننا لا نستطيع التواصل معهم».

«بلى، نستطيع. كلّ ليلة ننتقل إلى صعيدٍ آخر فيما ننام. نتحدّث مع الأحياء، مع أولئك الذين نعتقدهم أمواتًا، مع أولئك الذين يحيون في بُعدٍ آخر، ومع أنفسنا، مع الأشخاص الذين كنّاهم ذات مرّة، والأشخاص الذين سنكونهم».

تصبح الطاقة أكثر انسيابًا، وأعرف أنّني قد أفقد الاتصال في أي لحظة.

«الحب ينتصر دومًا على ما نسمّيه الموت. لذلك، لا داعي لكي نحزن على أحبّائنا، لأنّنا سنظّل على حبّنا لهم وسيظلّون قربنا. يصعب علينا تقبّل الأمر. إن كنتم لا تؤمنون به، فإذًا لا نفع في أن أستمرّ في تفسيره».

ألاحظ ياو يجلس الآن برأسٍ مطأطىء. السؤال الذي سبق أن طرحه، يُجاوَب عنه الآن.

«وماذا عن الناس الذين نكرههم؟».

أردّ: «لا يجدر بنا أن نقلّل من شأن أعدائنا الذين انتقلوا إلى الضفّة الأخرى. في التقليد السحري، يُستعمل اسم (المسافرين) المثير للفضول. لا أقول إنّهم قادرون على الأذية هنا، هم لا يستطيعون، إلاّ إن سمحتم لهم. لأنّ الواقع هو أننا هناك معهم، وهم ههنا معنا. في القطار نفسه. الطريقة الوحيدة لحلّ المشكلة هي تصويب الأخطاء وحلّ النزاعات. وسيحصل ذلك في مرحلةٍ ما، حتى وإن استلزم «حيوات» عديدة قبل أن يحصل. إننا نواظب على التلاقي والتوديع إلى أبدية. رحيل تخلُفه عودة، وعودة يخلفها رحيل».

«لكنّك قلتَ إننا جزء من كلّ. هل يعني ذلك أننا لا نوجد؟».

«لا، نحن نوجد، ولكن شأننا شأن وجود خليّة. يمكن للخليّة أن تُحدث سرطانًا مدمّرًا يغزو متعضّيًا، ويمكن لها أيضاً أن تطلق عناصر كيميائية تبعث على السعادة والهناء، لكنّ الخليّة ليست الشخص».

«ما سبب كثيرٍ من النزاعات القائمة إذًا؟».

«لأن العالم يمكن أن يتطوّر، ولأن الجسد يمكن أن يتغيّر، فهي ليست مسألة شخصية. أصغوا».

هم يُصغون، ولكنهم لا يسمعون. كان الأفضل لي أن أفسّر الأمور بوضوح أكثر.

«في هذه اللحظة، سكك القطار وعجلاته في نزاع، ونستطيع

سماع ضجيج ذلك الاحتكاك بين الحديد. لكنّ السكّة تبرّر وجود العجلة والعكس بالعكس. لا علاقة للضجيج الذي يحدثه الحديد، هو مجرّد تجلٍّ، وليس صرخة تذمّر».

تبدّدت الطاقة تقريبًا الآن. يواصل الآخرون طرح أسئلة، لكني أعجز عن الإجابة بأسلوب متماسك. يدركون جميعًا أنّ الوقت حان للتوقّف.

يقول ياو: «أشكرك».

«لا تشكرني. كنت أُصغي أيضًا».

«تقصد...».

«آه، كلّ شيء ولا شيء. لا بدّ أنكم لاحظتم أنّي بدّلت رأيي في هلال. لا يجدر بي قول هذا هنا، لأنّه لن يفيدها على الإطلاق؛ على العكس، قد يُخالج روحاً ضعيفةً انفعالٌ ما من شأنه أن يحطّ من قدر أي إنسان، وتعيينًا، الغيرة. لكنّ لقاء هلال فتح بابًا، ليس الباب الذي أردت أن أفتحه، بل باب آخر. عبرت إلى بُعدٍ آخر في حياتي، إلى مقطورة أخرى ملؤها النزاعات المحتدمة. الناس في انتظاري هنا، وعليّ الانضمام إليهم».

«مستوى آخر، مقطورةٌ أخرى...».

«بالضبط. نحن عالقون أبدًا في القطار نفسه، إلى أن يقرّر الله إيقافه لأسباب لا يعلمها سواه. ولكن، بما أنّه يستحيل علينا البقاء

في مقصورتنا، نسير صعودًا ونزولاً، من حياةٍ إلى حياة، كما لو أنّها تحدث بالتتابع. لكنها لا تتتابع: أنا من كنتُ ومن سأكون».

عندما التقيتُ هلال خارج الفندق في موسكو، ذكرتْ قصّة كنتُ قد كتبتها عن نارٍ في أعلى قمّة جبل. ثـمّة قصة أخرى عن النار المقدّسة.

الآن أنا من يتكلّم، وليس الطاقة الإلهية، لكن حتّى وإن كنت لا أعرف كيف أُعيد إشعال النار المقدّسة، أو لـمَ أُشعلت، يمكن لي أقلّه أن أروي قصّة.

أقول للآخرين: «كونوا لطفاء معها».

تدّعي هلال أنها لم تسمع. ومثلها يفعل الجميع.

شيكاغو سيبيريا

كلّنا أرواح هائمة في الكون، وفي الوقت ذاته، نعيش حياتنا، لكن بإحساس أننا نعبر من تجسُّد إلى آخر. إنْ لمس شيءٌ رمزَ روحنا، تبقى ذكراه إلى أبد وتؤثّر في كلّ ما يتبع لاحقًا.

أحدّق بحبّ إلى هلال، حبّ ينعكس عبر الزمن، أو ما نتخيّل أنه الزمن، كما لو كان عبر مرآة. لم تكن يومًا لي ولن تكون أبدًا، هذا ما هو الأمر عليه. نحن خالقون ومخلوقون في آن، لكننا كذلك دمى في أيدي الله، وثمّة حدّ لا يمكن لنا تخطّيه، حدّ رُسم لأسباب نعجز عن معرفتها. لنا أن نقترب من ماء النهر وحتى أن نبلّل أصابعنا فيه، لكننا ممنوعون من الغطس فيه وترك أنفسنا تنساب مع التيار.

أشعر بامتنان للحياة، أولاً لأنّها أتاحت لي أن أجد هلال من جديد عند حاجتي إليها. وأبدأ أخيرًا بتقبّل فكرة أنّه عليّ دخول ذاك الباب للمرّة الخامسة، حتى وإن لم أجد الإجابة بعد. ثانيًا، أنا ممتنّ للحياة لأنني كنت خائفًا من قبل، والآن زال خوفي. وثالثًا، أنا ممتنّ للحياة لأنني أقوم بهذه الرحلة.

يُسلّيني أن أرى أنها غيورة الليلة. رغم كونها عازفة كمان لامعة، ومحاربة في فنّ الحصول على ما تريد، هي لا تزال طفلةً وستظل، كما سأظلّ أنا وسيظلّ كلّ أولئك الذين يريدون فعلاً

الحصول على أفضل ما يمكن للحياة أن تقدّمه، لأنّ للطفل فقط الحصول عليه.

سوف أستفزّ غيرتها لأنها ستعرف عندئذٍ ماذا تفعل للتعامل مع غيرة الآخرين. سوف أقبل حبّها اللامشروط لأنها عندما ستحبّ أحدًا بلا شروط، ستعرف عندئذٍ ما الذي يواجهها.

* * * *

«يدعوها البعض شيكاغو سيبيريا».

شيكاغو سيبيريا...تكون مثل هذه المقارنات مُمعنة في الخطأ عادةً. قبل تشييد السكة ترانس-سيباريان، كان عدد ساكني نوڤوسيبيرسك أقل من ثمانية آلاف. الآن، ارتفع عدد السكان إلى ما يُجاوز ١,٤ مليون، بفضل جسر يسمح للقطار بمتابعة سيره الفولاذي البُخاري قُدمًا إلى المحيط الهادئ.

تحكي الأسطورة أنّ النساء في نوڤوسيبيرسك هنّ الأجمل في روسيا كلّها. وانطلاقًا ممّا أرى، يظهر أنّ الأسطورة صحيحة، مع أنه لم يكن ليخطر لي أن أقارن ذلك مع أماكن أخرى زرتها. تقف هلال وأنا وإحدى الفاتنات المحلّيات قبالة ما يبدو أنه شذوذ ضخم عن القاعدة: تمثالٌ عملاق للينين، الرجل الذي جعل من نظرية الشيوعية واقعًا. ما الذي يمكن أن يكون أقلّ رومانسية من النظر إلى هذا الرجل، بلحيته القصيرة المصوّبة إلى المستقبل، والعاجز عن الترجّل عن قاعدة تمثاله وتغيير العالم.

كانت الفاتنة التي ذكرت شيكاغو، مهندسة اسمها تاتيانا، لها من العمر ثلاثون سنة أو نحو ذلك، والتي، بعد العشاء والحفل، قرّرت أن ترافقنا في مشيتنا. العودة إلى اليابسة أشبه بكون المرء على كوكب آخر. أجد صعوبةً في التعوّد على أني في مكانٍ لا يتحرّك البتّة.

«فلنبحث عن حانة نشرب فيها ونرقص.كلنا في حاجةٍ إلى ما أمكن لنا من التمارين».

تقول هلال: «لكننا متعبتان».

في لحظات مماثلة، أتحوّل إلى المرأة التي تعلّمت أن أكون، وأن أقرأ بين السطور. قصدها: «أنت تريد البقاء مع هذه المرأة الأخرى».

«إن كنتِ متعبةً، تستطيعين العودة إلى الفندق. سأبقى مع تاتيانا».

تُغيّر هلال وجهة الحديث:

«أريد أن أريك شيئًا».

«أرني إذًا. لا داعي لكي نكون وحدنا. ولقد تعارفنا منذ عشرة أيام فقط».

يُطيح ردّي مكانتها، ففي خلدها تقول « أنا برفقته». تنفش تاتيانا ريشها، مع أنّه لا صلة مباشرة للأمر بي، بل بالأحرى بالتنافس الطبيعي الذي يدور أحيانًا بين النساء. تقول إنها ستكون مسرورة للغاية بأن تُريني حياة الليل في شيكاغو سيبيريا.

يحدّق لينين بتجرّد إلينا، كما لو أنّه رأى هذا كلّه من قبل. لو أنّه، بدلاً من رغبته في خلق جنّة للطبقة الكادحة، ارتأى ديكتاتورية من الحبّ، لكانت الأمور قد خلصت إلى أفضل.

تقول هلال: «تعالوا معي».

«تعالوا معي»؟! ها هي هلال تمشي بخطوات سريعة أمامنا قبل أن أتمكّن حتى من الردّ. تريد أن تقلب الطاولة على رأسينا وأن تحوّر اتجاه الضربة، فتأكل تاتيانا الطعم. ننطلق في الجادّة الواسعة المؤدّية إلى الجسر.

تسأل الفاتنة، متفاجئةً بما معناه: «تعرفين المدينة إذًا؟».

«هذا وقفٌ على ما تقصدين بـ«أعرف». نعرف كلّ شيء. عندما أعزف الكمان، أعي وجود الـ....»

تبحث عن الكلمة المناسبة، ثمّ تجد مفردة سأفهمها، لكنّها ستُقصي تاتيانا من المحادثة.

«أعي وجود «حقل معلومات» واسعٍ وقويٍّ من حولي. ليس أمرًا يسعني التحكّم فيه؛ بل هو الذي يتحكّم فيَّ بالأحرى ويُرشدني إلى الوتر المناسب كلّما تردّدت. لا أحتاج إلى معرفة المدينة؛ ببساطة كلّ ما عليّ هو أن أدعها تأخذني إلى حيث تريد».

تمشي هلال أسرع فأسرع. لدهشتي، فهمت تاتيانا قصد هلال بالضبط.

تقول: «أحبّ الرسم، ومهنتي الهندسة لكنني عندما أقف قبالة

لوحة قماشٍ خام، أجد أنّ كل حركةٍ من الريشة أشبه بالتأمّل البصري، رحلة تنقلني إلى حالة من السعادة التي لا أجدها مطلقًا في عملي والتي آمل ألاّ أفقدها أبدًا».

لا بدّ أنّ لينين قد شهد على مشاهد مماثلة من قبل، لقاء قوّتين تتنازعان على قوّة ثالثة يجب إمّا صونها وإمّا الاستيلاء عليها. لا يطول الأمر بتينك القوّتين أن تتحالفا، تاركتين القوة الثالثة منسيّة أو، ببساطة، لا محلّ لها. أنا مجرّد مرافق لهاتين الشابتين، اللتين تبدوان الآن وكأنهما تعرفان بعضهما منذ الطفولة وتتحدّثان بحماسةٍ باللغة الروسيّة، غافلتين عن وجودي. لا يزال الطقس باردًا- بما أننا في سيبيريا، على الأرجح أنّ البرد يدوم مدار السنة- لكنّ المشي يفيدني الآن؛ كلّ خطوة ترفع من معنوياتي، وكلّ كيلومتر يعيدني إلى مملكتي. مرّت لحظة في تونس، خطر لي فيها أنّ هذا لن يحصل مطلقًا، لكنّ زوجتي كانت على حقّ: وجودي وحيداً قد يجعلني أكثر ضعفًا، ولكن أكثر انفتاحًا.

أبدأ بالتململ من المشي في أعقاب هاتين المرأتين. في الغد، سأترك ملاحظةً لياو، أقترح فيها ممارسة ببعض الأيكيدو. فذهني يكدّ أكثر من جسدي.

* * * *

نتوقّف في وسط اللامكان، في ساحةٍ مهجورةٍ تتوسّطها نافورة ماء. لا يزال الماء متجمّدًا. تتنفس هلال بسرعة، وإن ثابرت على

ذلك، ستستحثّ إحساسًا بالعوم، نوعًا من الانخطاف المستحثّ اصطناعًا والذي لم يعد يبهرني.

هي الآن ربّة طقوس مشهدٍ لا أعرف عنه شيئًا. تطلب إلينا أن نشابك أيدينا وننظر إلى النافورة.

تبدأ هلال بالقول، فيما تواصل تنفّسها السريع:الله الكلّي القدرة، ابعث رسُلك إلى أولادك الواقفين أمامك بقلوب منفتحةٍ لاستقبالهم.

تتابع هذا الاستحضار المألوف، وألاحظ أنّ يد تاتيانا تروح ترتجف كما لو أنها هي أيضًا تدخل في الانخطاف. يبدو أنّ هلال على اتصال بالكون، أو بما أسمته «حقل المعلومات». تتابع صلواتها، وتكفّ يد تاتيانا عن الارتجاف وتُحكم قبضتها على يدي. بعد عشر دقائق، ينتهي الطقس.

لستُ واثقًا إن كان عليّ أن أخبرها بما يدور في بالي، لكنّ هلال مليئة بالكرم والحبّ لدرجة تستحقّ معها أن تستمع إلى ما عندي لأقوله.

أسأل: «ما كان هذا؟».

تبدو مرهقةً.

تشرح: «كان طقسًا يُقرّبنا من الأرواح».

«وأين تعلّمته؟».

«في كتاب».

أعليّ أن أتابع أم أنتظر إلى حين نكون وحدنا؟ بما أنّ تاتيانا كانت أيضًا جزءًا من الطقس، أقرّر المتابعة.

«مع كلّ احترامي لأبحاثك ولمَن وضع الكتاب، أعتقد أنّك أمسكتِ بطرف الخيط الخطأ تمامًا. ما الهدف من طقسٍ مماثل؟ أرى ملايين وملايين من الناس المقتنعين بأنّهم يتواصلون مع الكون، وبذلك يُنقذون جنس البشر. وفي كلّ مرة يفشل فيها تواصلهم، لأنّه محكوم بالفشل دومًا، يفقدون بعض الأمل. ويعود إليهم الأمل مع ما يلي من كتابٍ جديدٍ أو حلقة بحث. لكن بعد مرور أسابيع عدةّ، ينسون ما تعلّموه ويتلاشى الأمل».

تتفاجأ هلال. أرادت أن تُريني شيئًا أبعد من موهبتها كعازفة كمان، لكنّها اقتربت من منطقة خطر، حيث درجة تساهلي فيها لا تعدو الصفر. لا بدّ أنّ تاتيانا تخالني فظًا جدًا، لهذا تتكلّم دفاعًا باسم صديقتها الجديدة:

«لكن، أليست الصلاة طريقة تقرّبنا من الله؟».

«اسمحي لي أن أجيب بسؤالٍ آخر: هل ستؤدّي صلواتنا جمعاء إلى شروق الشمس غدًا؟ بالطبع لا. تشرق الشمس طوعًا لقانون كوني. الله على مقربة منا دومًا، صلّينا له أم لم نصلِّ».

تقول تاتيانا: «أتقول إنّ صلواتنا غير مجدية؟».

«مطلقًا. إن لم تنهضي باكرًا، لن يسعك رؤية شروق الشمس. إن لم تصلّي، قد يكون الله قريبًا، لكنّك لن تشعري بوجوده. مع ذلك، إن كنتِ تؤمنين بأنّ الأدعية كالدعاء الذي تلوته من توّك هو الطريقة الوحيدة أمامك، إذًا حريّ بك أن تنتقلي إلى صحراء

سونوران في أميركا أو إلى مُعتَكَفٍ في الهند. في العالم الحقيقي، من الأسهل إيجاد الله عبر كمان هلال».

تنفجر تاتيانا بكاءً. أجهل ما عليّ فعله بالضبط، وكذلك هلال. ننتظرها إلى أن تنتهي من البكاء لتخبرنا بـما تشعر.

تقول: «أشكرك. ومع أنّه في رأيك، لم يُجدِ الطقس نفعًا، أشكرك. أحمل مئات الجراح أينما حللت، ومع ذلك أنا مضطرّة إلى التصرّف وكأنني أسعد البشر في العالم. اليوم، أقلّه، شعرتُ أنّ أحدًا يـمدّ لي يده ويقول: لستِ وحدك، تعالي معنا، أرنـي ما تعرفينه. شعرتُ بأنني محبوبة، ونافعة، ومهمّة».

تلتفت إلى هلال وتتابع:

«حتى عندما قلتِ إنّك تعرفين المدينة أفضل من معرفتي بها - هذه المدينة التي فيها وُلدت وفيها عشت كلّ حياتي - لم أشعر بالتقليل من شأني أو بالإهانة. صدّقتُكِ، لم أعد وحيدة، أراد أحدهم أن يريني شيئًا جهلته. لم يسبق لي أن رأيتُ هذه النافورة، والآن، كلّما تضايقت، سأعود إلى هنا وأتضرّع حماية الله. أعرف أنّ الكلمات لم تكن مميّزة. وغالبًا ما تلوت صلوات مماثلةً ولم يُستَجب لي يومًا، وعندما حدث ذلك، انحطّ إيماني. لكن اليوم، وقعَ أمرٌ ما، لأنكما، وإن كنتما غريبين، فلستما غريبين عندي».

لم تنهِ تاتيانا كلامها بعد:

«أنتِ أصغر سنًا مني بكثير، ولم تُقاسي ما قاسيت. لا تعرفين

الحياة، لكنَّك محظوظة. إنَّك واقعة في حبِّ رجل، وهذا ما دعاني إلى أن أقع في حبِّ الحياة ثانيةً، وسيكون أسهل عليَّ مستقبلاً أن أقع في حبِّ أحدهم».

تخفض هلال عينيها. ليس هذا ما تريد سماعه. لعلّها خطَّطت لقول الأمر نفسه، لكنّ أحدًا آخر يتلفّظ بهذه الكلمات في مدينة نوفوسيبيرسك في روسيا، التي جاءت تمامًا كما تخيّلناها، لكنها مختلفة كلّ الاختلاف عن الواقع الذي خلقه الله على الأرض.

تتابع تاتيانا: «بالمختصر، لقد صفحتُ عن نفسي وأشعر بأنني أخفّ بكثير. لا أعرف لماذا جئتِ إلى هنا أو لماذا طلبتِ إليّ مرافقتكما، لكنَّكِ أكَّدتِ ما شعرتُ به دومًا: يلتقي الناس في الوقت المناسب الذي يدعوهم إلى التلاقي. أنقذتُ لتويّ نفسي من نفسي».

تبدّل التعبير الذي يعلو وجهها بالفعل. تحوّلت الفاتنة إلى جنّية. تفتح ذراعيها لهلال، التي تذهب إليهما. تتعانقان. تنظر تاتيانا إليّ وتشير إليّ برأسها لكي أنضمّ إليهما، لكني لا أبرح مكاني. تحتاج هلال إلى ذاك العناق أكثر مني. أرادت أن تقوم بشيء سحري، لكنه جاء مُبْتَذَلا، ومع ذلك تحوّل المبتذَل إلى سحرٍ لأنّ تاتيانا كانت قادرة على تحويل تلك الطاقة إلى شيءٍ مقدّس.

تبقى المرأتان محجوزتين في ذلك العناق. أنظر إلى الماء المتجمّد في النافورة وأعلم أنه سيذوب يومًا، ليتجمّد، فيذوب ثانيةً. وهكذا حال القلوب منّا، التي ينظّم إيقاعها الزمن، لكنّها لا تتوقّف إلى الأبد.

تُخرج تاتيانا بطاقةً من حقيبتها. تتردّد، ثمّ تمدّ بها إلى هلال.

تقول: «الوداع. أعرف أننا لن نلتقي ثانيةً، لكن هاكِ رقمي. لعلّ كلّ ما قلتُه مجرد نتاج روحٍ رومانسي غُضال، وستعود المياه إلى مجاريها قريبًا، لكنها كانت تجربة مهمّة جدًا لي».

تقول هلال: «الوداع. لا تقلقي. إنْ عجزتُ عن إيجاد طريق العودة إلى هذه النافورة، سأتمكّن من إيجاد طريقي إلى الفندق».

تتأبّط ذراعي. نمشي عبر الليل البارد، وللمرّة الأولى منذ التقينا، أرغب فيها كامرأة. أتركها عند باب الفندق وأقول لها إنني في حاجة إلى المشي قليلاً بعد، وحدي، لأفكّر في الحياة.

لا يجدر بي. لا يمكن لي. وكما أقول لنفسي آلاف المرّات تكرارًا، لا أريد ذلك.

يخلع ياو ملابسه ويقف هناك في سرواله الداخلي. مع أنّ عمره يتعدّى السبعين، فجسمه لا يزال مشدود الجلد والعضلات. أخلع ثيابي أيضًا.

أحتاج إلى هذا التمرين، ليس بسبب الوقت الذي أمضيته مُحتجَزًا في القطار فحسب، بل أيضاً لأنّ رغبتي بدأت تنمو بشكل خارجٍ عن السيطرة. وتكون في أشدّها عندما نفترق – عندما تكون قد ذهبت إلى غرفتها أو عندما أكون في ارتباط مهني- لكني أعرف أنّ الأمر لن يطول حتى أخضع. هكذا كانت الحال في الماضي، عندما التقينا لما أتصوّر أنه كان للمرّة الأولى، عندما كانت بعيدة عنّي، لم أستطع التفكير بشيء آخر. وعندما كانت بمرأى مني، حضورًا محسوسًا، تبدّدت عذاباتي وكدت لا أقوى على السيطرة على نفسي.

لهذا عليها أن تبقى هنا، قبل فوات الأوان.

يرتدي ياو الزيّ، بالسروال الأبيض والسترة، وأفعل مثله. نتوجّه بصمتٍ إلى الدوجو، مكان التدرّب على الفنون القتالية، الذي وجده

بعد إجراء عددٍ من المكالمات الهاتفية. ثمّة آخرون يتمرّنون، لكننا نتدبّر إيجاد فسحةٍ شاغرة.

«الدرب إلى السلام عريضة وواسعة، وهي تعكس التصميم الجليل الذي خُلق في العالم المرئي واللامرئي. المحارب هو عرش الألوهيّة وهو يخدم دومًا غاية أعظم». هكذا جاء على لسان موريهاي أوشيبا منذ نحو قرنٍ، فيما كان يطوّر تقنيات الأيكيدو.

الدرب إلى جسدها هو الباب المجاور. سأقرع، وستفتح الباب ولن تسألني حتى ما أبغي، لأنها ستتمكّن من قراءة مُرادي في عينيّ. قد تخاف، أو قد تقول: «ادخل، كنتُ في انتظار هذه اللحظة. جسدي عرش الألوهيّة، هو يعبّر عن تجلٍّ هنا، لما نحن في صدد اختباره في بُعدٍ آخر».

أؤدّي وياو الانحناءة التقليدية، وتتبدّل النظرة في أعيننا. نحن الآن مستعدّان للقتال.

وفي خيالي، هي أيضًا تحني رأسها وكأنها تقول: «نعم، أنا مستعدّة، ضُمّني إليك، اجذبني من شعري».

أتقارب وياو، يُمسك كلٌّ منا بياقة سترة الآخر، نتوقّف لبرهة، ومن ثمّ يبدأ القتال. بعد ثانية، أجدني على الأرض. لا يجدر بي التفكير فيها. أستحضر روح أوشيبا. يهبّ لمساعدتي عبر تعاليمه، وأتدبّر أمر عودتي إلى الدوجو، إلى خصمي، إلى القتال، إلى الأيكيدو، وإلى الدرب إلى السلام.

«يجب أن يكون عقلك متناغمًا مع الكون. يجب أن تواكب حركةُ جسمِك وتيرةَ تحرّك الكون. أنتَ والكون واحد».

لكنّ قوّة الضربة تقرّبني منها فحسب. أجذبها من شعرها وأرمي بها على السرير. أقذف بنفسي فوقها. هذا ما يكون تناغم الكون عليه: اتحاد طاقتي رجل وامرأة.

أنهض. لم أتمرّن على الأيكيدو منذ سنوات، خيالي مرتحل بعيدًا، ونسيتُ كيف أحافظ على توازني. ينتظرني ياو أن أتمالك نفسي، أرى وضعيّة جسمه وأتذكّر أين عليّ أن أضع قدميّ. أتموضع أمامه بالطريقة الصحيحة، ويُمسك كلٌّ منا بياقة سترة الآخر من جديد.

ومن جديد، ليس ياو من يقف قبالتي، إنّها هلال. أُثبّت ذراعيها، بيديّ أولاً، ثمّ بركبتيّ. وأبدأ بفك أزرار قميصها.

أحلّق في الفضاء من جديد، وأنا لا أدرك كيف حدث ذلك. أجدني على الأرض، أحدّق إلى أضواء الفلور في السقف، عاجزًا عن فهم السبب الذي دعاني إلى الحطّ من دفاعاتي إلى هذه الدرجة من السخف. يمدّ ياو يده لمساعدتي على النهوض، لكني أرفض. أستطيع تدبّر أمري.

مرّة أخرى، يُمسك كلٌّ منا بياقة الآخر. ومرّة أخرى، يرتحل خيالي بعيدًا عن مكاني: أنا في السرير مجدّدًا، قميصها الآن مفكوك الأزرار يكشف عن نهديها الصغيرين وحلمتيْها المنتصبتين، اللتين

أنحني لأقبّلهما، فيما هي تقاوم بعض الشيء بمزيجٍ من اللذة واستباقٍ هائجٍ للحركة التالية.

«ركّز»، يقولها ياو.

«إنّي مركّز».

هذا كذب، وهو يعرف ذلك. قد يكون عاجزًا عن قراءة أفكاري، لكنه يعرف أنني لستُ هنا فعلاً. جسمي متّقد بسبب الأدرينالين الذي يجري في عروقي جرّاء سقطتَي، وكلّ ما سقط إلى جانب الضربات التي تلقّيتها: قميصها، سروالها الجينز، حذائها الرياضي المرمي إلى الطرف الآخر من الغرفة. يستحيل توقّع الضربة التالية، ولكن يمكن تمامًا التصرّف من باب الغريزة، والانتباه و...

يترك ياو ياقتي ويثني أصابعي إلى الوراء، مؤدّيًا حركة تثبيت الإصبع التقليدية. مجردّ إصبع واحد يكفي لشلّ كامل الجسم. إصبع واحد يوقف وظيفة كلّ شيء. أحاول ألاّ أصرخ، ولكن تتراءى لي نجوم، والألم شديد لدرجة أظنّ معها أنّ الدوجو قد اختفى.

بدايةً، يبدو أنّ الألم يدفعني إلى التركيز على الشيء الوحيد الذي يجدر بي التركيز فيه: الدرب إلى السلام، لكنّه يتنحّى على الفور أمام شعوري بها وهي تعضّ شفتيّ فيما نتطارح القُبل. لم تعد ركبتاي تُسمّران ذراعيْها، فيداها تُطوّقانني بشدّة، تحفر أظافرها ظهري، وأسمع تأوّهاتها في أذني اليسرى. تُفلت أسنانُها شفتيّ من قبضتها، وتميل برأسها قليلاً وتُقبّلني.

«درّب قلبك. هذا هو التدريب الذي يلزم كل محارب. إن تمكّنت من السيطرة على قلبك، عندئذٍ ستتغلّب على خصمك».

هذا ما أحاول فعله. أتمكّن من التحرُّر من قبضته وأُمسك بسترته من جديد. يظنّ أنّني أشعر بالإهانة؛ فقد لاحظ افتقاري إلى التمرّن وسوف يدعني بكل تأكيد تقريبًا أن أهاجمه الآن.

قرأتُ أفكاره، قرأتُ أفكارها، وها أنذا أستسلم. تستقيم هلال في السرير وتجلس فوقي منفرجة الساقين، ثمّ تفكّ حزامي وتروح تفتح سحّاب سروالي.

«الدرب إلى السلام تتدفّق كنهرٍ، ولأنه لا يقاوم شيئًا، فهو رابح حتى قبل انسيابه. فنّ السلام لا يُقهر لأنّ لا أحد يُقاتل آخر، هما يتقاتلان مع بعضهما. إنْ استوليتَ على نفسك، يمكنك الاستيلاء على العالم إذًا».

نعم، هذا ما أفعله الآن. دمي يجري أسرع من أي وقتٍ مضى، والعرق يتصبّب مني، وينسكب على عينيّ، بحيث، لجزءٍ من الثانية، أعجز عن الرؤية، لكنّ خصمي لا ينتهز الفرصة. بحركتين وحسب، تراه على الأرض.

أقول: «لا تفعل هذا. لستُ ولدًا يجب السماح له بأن يفوز. قتالي يحدث الآن على صعيدٍ آخر. لا تسمح لي بالفوز من دون أن أكون جديرًا بلذّة كوني الأفضل».

يتفهّمني ويعتذر. لسنا نتقاتل؛ إننا نتمرّن على الدرب إلى

السلام. مجدّدًا، يُمسك بياقة سترتي، وأتحضّر لأن تأتيني الضربة من اليمين. لكن، في اللحظة الأخيرة، تبدّل وجهتها. يُمسك ياو ذراعي بإحدى يديه ويفتلها بطريقة أُضطرّ معها أن أركع اجتنابًا لكسر ذراعي.

رغم الألم، أشعر بأنني أفضل بكثير. تبدو الدرب إلى السلام وكأنها قتال، لكنها ليست كذلك. إنّها فنّ يملأ ما نفتقر إليه ويُفرغ ما يفيض. أضع كلّ طاقتي في ذلك، وتدريجًا، يُغادر خيالي السرير، والفتاة بنهديْها الصغيريْن وحلمتيْها المنتصبتيْن، الفتاة التي تفتح سحّاب سروالي وفي الوقت نفسه، تداعب قضيبي. أتقاتل مع نفسي. يلزمني أن أفوز بهذا القتال بأي ثمن، حتّى وإن استدعى ذلك السقوط والنهوض مرارًا وتكرارًا. القبلات التي لم تُعطَ، ذروات النشوة التي لم تُبلَغ، المداعبات الوهمية بعد جولة الجنس الفاجر، الرومانسي، المهتاج، كلّها تختفي.

أنا على الدرب إلى السلام، وطاقتي تُصَبّ في ذاك الرافد النهري الذي لا يقاوم شيئًا وبذلك يتبع مساره حتى المنتهى ويبلغ البحر كما هو مخطّط له.

أنهض مجدّدًا. أسقط مجدّدًا. نتقاتل نحو ساعة من الزمن، غافلين تمامًا عن باقي الموجودين هناك، وكلّهم مركّزون في ما يفعلون، يبحثون عن المكانة المناسبة التي ستساعدهم في إيجاد الوضعية المثالية في حياتهم اليومية.

بعده، يكون كلانا في حالة من الإرهاق التام والعرق يتصبّب منا. ينحني لي، وأردّ له الانحناءة، ونتوجّه من ثمّ إلى الحمامات. لقد هزمني ضربًا في كلّ مرة، لكن ما من دمغات على جسدي؛ فأن تؤذي جسد خصمك، يعني أن تؤذي جسدك. وأن تتحكّم بعدوانيتك لئلا تؤذي الآخر تكون على الدرب إلى السلام.

أدع المياه تنساب على جسمي، غاسلةً كلّ ما تراكم في خيالي وذاب فيه. عندما تعاودني الرغبة، لأنني أعرف أنها ستفعل، سأطلب إلى ياو أن يجد مكانًا آخر نمارس فيه الأيكيدو- حتى وإن كان ذاك المكان ممرّ القطار- وسوف أعاود استكشاف الدرب إلى السلام.

الحياة جلسة تدريب طويلة، تحضيرًا للآتي. تفقد الحياة والموت معناهما، وحدها التحدّيات موجودة لنواجهها بفرح، ونتخطّاها بسكينة.

* * * *

يقول ياو فيما نرتدي ملابسنا: «ثمّة رجل يحتاج إلى التكلّم معك. قلتُ له إنني سأدبّر لقاءً بينكما، لأنني أُدين له بخدمة. أستفعل ذلك من أجلي؟».

«لكننا سنغادر باكرًا صباح الغد».

«أعني في وقفتنا التالية. أنا مجرّد مترجم فوري، طبعًا، وإذا كنتَ لا تريد لقاءه، سأقول له إنّك مشغول».

هو ليس مجرّد مترجمٍ فوري، كما يعلم جيدًا. هو رجل يستشعر حاجتي إلى المساعدة، حتى وإن كان يجهل السبب.

أقول: «لا. لا بأس بذلك».

يقول: «كما تعلم، لي خبرة حياة في الفنون القتالية، وعندما كان أوشيبا يطوّر الدرب إلى السلام، لم يكن يفكّر في هزيمة عدوّ جسدي فحسب. طالما أنَ التلميذ يُظهر رغبة واضحة، فيمكن له أن يتعلّم كيف يهزم عدوّه الباطني كذلك».

«لم أقاتل لمدّة طويلة».

«لا أصدّقك. لربما مرَ زمن منذ مارست الأيكيدو، لكنَ الدرب إلى السلام مستمر في داخلك. متى تعلّمناه، لا ننساه أبدًا».

يتراءى لي منتهى الحديث. يمكن لي أن أوقفه عند هذه النقطة، لكني أدعه يُكمل. هو رجل بخبرة طويلة في الحياة شحذتها المِحَن، رجل تمكّن من البقاء رغم اضطراره إلى تغيير عوالم مرّات عديدة في تجسّده هذا. لا جدوى من محاولة كتمان أي شيء عنه. أطلب إليه أن يتابع.

«أنتَ لم تكن تقاتلني، بل تقاتلها».

«هذا صحيح».

«سنتابع التمرّن إذًا، متى سنحت لنا الرحلة. بالمناسبة، أريد أن أشكرك على ما قلته في القطار، مقارِنًا الحياة والموت بالتنقّل من مقطورةٍ إلى أخرى، وشرحِ أننا نفعل ذلك مرّات كثيرة في حياتنا.

نمتُ بسلام للمرة الأولى مُذ فقدتُ زوجتي. التقيتها في أحلامي ورأيتُ أنها سعيدة».

«كنتُ أتحدّثُ إلى نفسي أيضًا، كما تعلم».

أشكره على كونه خصمًا وفيًا، لم يسمح لي بفوزٍ في قتالٍ لم أكن جديرًا بالفوز به.

حلقة النار

«أولاً طوِّر استراتيجيّة تَستخدم كلّ شيء من حولك. إنّ تنمية القدرة على استدعاء مجموعة من الردود اللامتناهية، هي الطريقة الأفضل بهدف الاستعداد لتحدٍّ».

تمكّنتُ أخيرًا من دخول الإنترنت. لزمني تذكّر كلّ شيء كنت قد تعلّمته عن الدرب إلى السلام.

«البحث عن السلام هو شكلٌ من أشكال الصلاة التي تولّد النور والحرارة. فلتنسَ نفسك لبعض الوقت ولتفهم أنّ الحكمة تقبع في ذلك النور وأنّ التعاطف يقبع في تلك الحرارة. فيما تسافر عبر هذا الكوكب، حاول أن تدرك الشكل الحقيقي للسماوات والأرض. ولن يكون ذلك ممكنًا إلاّ إذا استطعتَ أن تَحُولَ دون إعاقة الخوف لنفسك وأن تضمن أن تكون حركاتك ومواقفك في توافقٍ مع أفكارك».

يقرع أحدهم الباب. أنا مركّز جدًا الآن في ما أقرأ. بدايةً، لا أفهم ما تلك الضجّة. دافعي الأوّل يقول ألاّ أفتح الباب، لكن ماذا لو كان

ثمة طارئ؟ وما غير الحالة الطارئة تستدعي أحدهم أن يطرق بابي في مثل هذه الساعة؟

فيما أتوجّه إلى الباب، أدرك أنّ ثمة شخصاً واحداً يمتلك من الشجاعة ما يكفي لفعل ذلك.

تقف هلال خارجًا، ترتدي بلوزة قطنية حمراء اللون وسروال نومٍ. ومن دون أي كلمة، تدخل وتستلقي في سريري. أستلقي إلى جانبها. تستدير نحوي وألفّها بذراعيّ.

تسأل: «أين كنت؟».

«أين كنت؟»، هذا ليس بسؤالٍ خاوٍ. وكلّ من يسأله فهو يقول أيضًا «اشتقت إليك»، «أريد أن أكون معك»، «أحتاج إلى معرفة ماذا كنت تفعل».

لا أجيبها. أداعب شعرها فحسب.

تقول، مجيبة عن سؤال لم أطرحه أو أردّ عليه: «هاتفتُ تاتيانا، وقضينا الأمسية سويًا. هي امرأة حزينة، والحزن يُعدي. أخبرتني أنّ لها شقيقة توأم، مدمنة مخدّرات وعاجزة عن الحفاظ على وظيفة أو علاقة. لكن حزن تاتيانا لا ينبع من ذلك، بل من واقع أنّها ناجحة، وجميلة، ومرغوب فيها، ومستمتعة بعملها. ومع أنها مطلّقة، فقد التقت رجلاً آخر مجنونًا بحبّها. المشكلة أنّها كلما رأت شقيقتها، تشعر بذنبٍ رهيب. أولاً، لأنها تعجز عن فعل أي شيء لمساعدتها، وثانيًا، لأنّ انتصارها يجعل فشل شقيقتها أكثر مرارة.

بعبارة أخرى، لا نكون سعيدين مطلقا، مهما تكن الظروف. وليست تاتيانا الوحيدة التي تفكّر على هذا النحو».

أستمرّ في مداعبة شعرها.

«أنت تذكر ما قلتُ في السفارة، أليس كذلك؟ الكلّ يقول إنّني أملك موهبة استثنائية، وإنّني عازفة كمان عظيمة، وإنّ النجاح والاستحسان مضمونان. أخبرتك معلّمتي بذلك، مُردِفة: لكنها غير واثقة من نفسها البتّة، مضطربة. ذلك غير صحيح، لديّ تقنية رائعة، أعرف أين أبحث عندما أحتاج إلى إلهام، لكن ليس هذا ما خُلقتُ له ولن يُقنعني أحدٌ عكس ذلك. الكمان وسيلتي للهرب من الواقع، عربة النار التي تحملني بعيدًا عن نفسي، وأُدين بحياتي له. بقيتُ حيّة لكي ألتقي أحدًا ما سيُعتقني من كلّ الكراهية التي تخالجني. عندما قرأتُ كتبكَ، أدركتُ أنّك ذاك الشخص. بالطبع».

«بالطبع؟».

«حاولتُ أن أساعد تاتيانا، قائلةً إنني منذ بلغتُ، فعلتُ ما في وسعي لكي أدمّر كلّ الرجال الذين اقتربوا مني، لمجرّد أن واحدًا منهم حاول، دون وعي، أن يدمّرني. لكنها أبتْ أن تصدّق. تظنّ أنني مجرّد طفلة. مدعاتها الوحيدة في موافقتها على لقائي هو أن تتمكّن من الاقتراب منك».

تقترب هلال أكثر قليلاً. أستطيع أن أشعر بدفء جسدها.

«سألتُ إن كان يمكن لها مرافقتنا إلى بحيرة بايكال. تقول إنّها،

على الرغم من أنّ القطار يمرّ بنوڤوسيبيرسك كلّ يوم، لم يدعُها أي سبب من قبل لكي تصعد على متنه، لكنّ السبب موجود الآن».

كما توقّعتُ، كلّ ما أشعر به هو الحنان إلى هذه الشابة، باستلقائي الآن إلى جانبها. أُطفئ النور، وتُضاء الغرفة بوهج أجهزة التلحيم التي تُستعمل في موقع بناء قبالتنا.

أجبتُها نفيًا، فحتى وإن تمكّنت من ركوب القطار، لن يُسمح لها بدخول مقطورتنا. الحرّاس لا يُجيزون العبور من درجة إلى أخرى. ظنّت أنني أحاول إقصاءها.

أقول: «الناس هنا يعملون كلّ الليل».

«أتصغي إليّ؟».

«نعم، أنا أصغي، لكني لا أفهم. شخصٌ آخر يأتي بحثًا عني، تحديدًا تحت الظروف التي جئتِ بها، لكن بدلاً من مساعدتها، تُبعدينها».

«هذا لأنني أخشى أنها ستتقرّب منك كثيرًا وأنّك ستفقد اهتمامك بي. لا أعرف بالضبط من أنا أو ما الذي أفعله هنا، لكن يمكن لكلّ هذا أن يتبدّد بين لحظةٍ وأخرى».

أمدّ يدي اليُسرى لتناول سجائري، ثمّ أُشعل واحدة لي، وواحدة لها. أضع المنفضة على صدري.

تسأل: «أترغبني؟».

أرغب في قول: «نعم، أرغبك عندما تكونين بعيدة، عندما تكونين مجرّد استيهامٍ خيالي. اليوم مارستُ الأيكيدو لنحو ساعة

وأنا أفكّر فيك كلّ الوقت، في جسمك، وساقيك، ونهديك. ومع ذلك، استحوذ القتال على جزء صغير جدًا من تلك الطاقة. أحبّ زوجتي وأرغب بها، ومع ذلك أرغب بك. لستُ الرجل الوحيد الذي يرغب بك، ولست الرجل المتزوّج الوحيد الذي يرغب في امرأةٍ أخرى. كلنا نرتكب الزنا في أفكارنا، فنطلب المغفرة، ثمّ نعاود الكرّة. لكن ليست خشية ارتكاب الخطيئة ما يمنعني من لمسك، مع أنّك في ذراعيّ. لا أعاني ذاك النوع من الذنب. ثمّة أمور أهمّ بكثير الآن من ممارسة الحبّ معك. لهذا أشعر بسلام تامّ في استلقائي إلى جانبك، فيما أنظر إلى غرفة الفندق وقد أضاءها الوهج الآتي من المبنى المجاور».

لكني أقول: «بالطبع أرغب بك رغبة جامحة أنا رجل، وأنتِ امرأة جذّابة للغاية. كذلك، أشعر بحنان كبير تجاهك، شعور ينمو مع مرور كلّ يوم. أنا مُعجب بالطريقة التي تتحوّلين فيها بسهولة من امرأة إلى طفلة، ومن طفلةٍ إلى امرأة. الأمر كمثل قوسٍ تلامس أوتار كمانٍ وتخلق لحنًا إلهيًا».

يتوهّج عقبا سيجارتينا أشدّ، فيما نستنشق الدخان.

«لماذا لا تلمسني إذًا؟».

أُطفئ سيجارتي، وتفعل مثلي. أستمرّ في مداعبة شعرها، محاولاً العودة إلى الماضي.

«أحتاج إلى القيام بشيء بالغ الأهميّة لي ولك. أتذكرين الألِف؟

حسنٌ، أحتاج إلى دخول الباب الذي أرعبنا كثيرًا».

«وماذا عليّ أن أفعل؟».

«لا شيء. ابقي إلى جانبي فقط».

أبدأ أتخيَّل حلقةً من النور الذهبي تتحرّك في جسمي صعودًا ونزولاً. تبدأ عند أصابع قدمي، تصعد إلى قمة رأسي، ثمّ ترجع. بدايةً، أجدُ التركيز صعبًا، لكن تدريجًا، تروح الحلقة تتحرّك بسرعة أكبر.

«هل لي أن أتكلّم؟».

بالطبع يمكن لها. حلقة النار ليست من هذا العالم.

«أسوأ الأمور أن نُصَدّ. يجد نورك نور روح آخر وتظنّ أنّ النوافذ ستُفتح، وشعاعات الشمس ستنسكب داخلاً، وأنّ كلّ جراحاتك القديمة ستُشفى. ثمّ فجأة، لا يحدث أيٌّ من ذلك. لربما أنني أدفع ثمن إيذائي كلّ أولئك الرجال».

النور الذهبي، الذي وُلد من سلطة الخيال البحت- وهي طريقة شائعة جدًا للعودة إلى الحيوات الماضية- يأخذ بالتحرّك على نسقه الخاص.

«لا. أنتِ لا تدفعين ثمن شيء. ولا أنا. تذكّري ما قلته في القطار، بأننا نختبر الآن كلّ ما حدث في الماضي وما سيحدث في المستقبل. في هذه اللحظة بالذات، في فندقٍ في نوفوسيبيرسك، العالم قيد الخلق والخراب. ونحن قيد تخليص أنفسنا من الخطيئة، إذا اخترنا ذلك».

ليس في نوفوسيبيرسك فحسب، بل في كلّ بقاع الكون، الزمن

نابض كقلب الله الواسع، يتمدّد وينقبض. تقترب مني أكثر، وأشعر بقلبها الصغير ينبض أيضًا، حتى أنه ينبض بإيقاعٍ أعلى.

الحلقة الذهبية حول جسمي تتحرّك بسرعة أكبر الآن. المرة الأولى التي قمت فيها بذلك، مباشرة بعد قراءتي كتابًا عن «اكتشاف أسرار الحيوات الماضية»، نُقلتُ فورًا إلى منتصف القرن التاسع عشر في فرنسا، ورأيتُ نفسي أؤلّف كتابًا عن الموضوعات ذاتها التي أكتب عنها الآن. عرفتُ ما كان اسمي، وأين عشت، وما نوع القلم الذي استخدمت، وحتى الجملة التي كنتُ قد انتهيت من كتابتها. خفتُ كثيرًا لدرجة أنني عُدت إلى الحاضر توًا، إلى كوپاكابانا، إلى الغرفة حيث كانت زوجتي تنام فيها بسلام إلى جانبي. في اليوم التالي، وجدتُ كلّ شيء أمكن لي إيجاده عن الشخص الذي كنته. وبعد أسبوع، قرّرت أن أعاود لقاء نفسي. ومهما حاولت، كنتُ أفشل في كلّ مرّة.

تحدّثتُ إلى ج. عن الأمر، فشرح لي أنّ عنصر «حظّ المبتدئ» موجود دومًا، وقد أوجده الله لمجرّد أن يُظهر لنا إمكانه، لكن بعد ذلك، ينقلب الوضع ويعود إلى ما كان عليه. نصحني ألاّ أحاول ثانيةً، ما لم يكن ثمة أمر شديد التعقيد يستدعي الحلّ في إحدى حيواتي الماضية، وإلاّ فذاك هدر للوقت.

بعد سنين، تعرّفت إلى امرأةٍ في ساو پاولو. كانت معالجةً ناجحةً في مجال الطبّ التجانسي، وكانت تكنّ عطفًا عميقًا

لمرضاها. كلّما التقينا، كنت أشعر بأنني أعرفها من قبل. تحدّثنا في ذلك الشعور، الذي قالت إنه متبادل. ذات يوم، كنّا واقفين على الشرفة في فندقي، نحدّق إلى المدينة، وعرضتُ عليها أن نقوم بتمرين حلقة النار معًا. كان كلٌّ منّا متوجهاً ناحية الباب الذي رأيته عندما اكتشفتُ وهلال الألِف. في ذلك اليوم، ودّعتني المعالجة بابتسامةٍ، لكني لم أتحدّث إليها ثانيةً. رفضت الردّ على اتصالاتي الهاتفية ورفضت رؤيتي لما ذهبت إلى عيادتها، ولم يطل بي الأمر لأدرك ألاّ جدوى من الإصرار.

كان الباب مفتوحًا، والشقّ الصغير في السدّ تحوّل إلى فجوة أخذ الماء يتدفّق عبرها. على مدى السنين، قابلتُ ثلاث نساء شعرتُ بأنه سبقت معرفتي بهنّ، لكني لم أكرّر الخطأ ذاته ثانيةً، وأدّيتُ تمرين حلقة النار على انفراد. لم تعرف أيٌّ من تلك النساء أنني كنتُ مسؤولاً عن حدثٍ رهيب في حيواتهنّ الماضية.

مع هذا، لم تشلّني معرفتي ما قد فعلتُ. كنتُ عازمًا على تصويب الأمر. وقع ثماني نساء ضحيّة تلك المأساة، وكنت واثقًا من أنّ إحداهنّ ستخبرني في نهاية المطاف كيف انتهت القصة. عرفتُ كلّ شيء تقريبًا، باستثناء اللعنة التي أُنزلت بي.

ولذلك السبب، وبعد ما يُجاوز العقد لاحقًا، انطلقتُ على متن سكة ترانس-سيباريان وغُصتُ مرّة أخرى في الألِف. المرأة الخامسة تستلقي الآن إلى جانبي، وتتحدّثُ في أمورٍ لم تعد تهمّني لأنّ الحلقة

تغزل أسرع فأسرع. لا، لا أريد اصطحابها عندما أعود إلى حيث التقينا للمرّة الأولى.

تقول: «وحدهنّ النساء يؤمنّ بالحبّ، الرجال لا يؤمنون به».

أقول: «الرجال يؤمنون فعلاً بالحبّ».

لا أزال أداعب شعرها. نبض قلبها يتباطأ الآن. أتخيّل أن عينيها مغمضتان، أنها تشعر بأنها محبوبة ومحميّة، أنّ فكرة الصدّ قد تبدّدت بالسرعة ذاتها التي ظهرت فيها.

يتباطأ تنفّسها أيضًا. تتحرّك، لكن هذه المرّة لمجرّد أن تستقرّ على وضعية مريحة أكثر. أتحرّك كذلك، لأعيد وضع المنفضة على الطاولة المجانبة للسرير، ثمّ أضمّها بين ذراعيّ.

الحلقة الذهبية تغزل بسرعة لا تُصدّق، من قدميّ إلى رأسي إلى قدميَ. ثمّ فجأة، أشعر بأنّ الهواء من حولي يرتجّ، كما لو أنّ انفجارًا قد وقع.

عدستا نظّارتي ملطّختان. أظفار أصابعي متّسخة. لا تكاد الشمعة تبعث بما يكفي من النور لكي أُبصر مكاني، لكني أستطيع رؤية كمّيْ الملابس التي أرتديها، والمصنوعة من قماش خشن.

أمامي رسالة. الرسالة ذاتها دومًا.

قرطبة، ١١ تموز/يوليو ١٤٩٢

عزيزي/ي

لم يبقَ لدينا سوى القليل من الأسلحة، محكمة التفتيش إحداها، وكانت هدفًا لهجمات عنيفة. إنّ الإيمان الضعيف لدى بعضٍ والأحكام المسبقة لدى بعضٍ آخر، ستؤول بالناس إلى التصديق أنّ محقّق المحكمة لوحش. في هذا الوقت العصيب والحسّاس، وفي حين أنّ هذا الإصلاح المُفترَض يحرّض على الثورة في المنازل ويثير الفوضى في الشوارع، مشهّرًا بسمعة محكمة المسيح ومتّهمًا إياها بالتعذيب وسواه من الأفعال الوحشية، لا نزال نحن أسياد السلطة! وواجب السلطة أن تفرض العقوبة القصوى على من يعيثون فسادًا بالخير العام، لكي تبتر العضو المصاب من الجسد المريض، وبذلك تنهى الآخرين عن أن يحذوا حذوَ أولئك. وبالتالي، الأصلح هو فرض عقوبة الإعدام على أولئك الذين، في استمرارهم بنشر الهرطقة، يتسبّبون بقذف أرواح كثيرة إلى نيران الجحيم.

هؤلاء النساء يعتقدن أنّهن حرائر في المجاهرة بأساليبهنّ الشيطانية، في التبشير بالشهوة وعبادة الشيطان. هنّ ساحرات ليس إلّا! لا تُجدي العقوبات الروحانية نفعًا على الدوام. يعجز معظم الناس عن فهمها. على الكنيسة أن تحتفظ بالحق- ولها الحقّ- في شجب الخطأ ومطالبة السلطات باتخاذ تدبير جذري.

هؤلاء النساء جئن لإحلال الشقاق بين زوجٍ وزوجة، أخٍ وأخت، أبٍ وأولاد. الكنيسة أمٌّ رحيمة، مستعدّة دومًا للغفران، وهمّنا الأوحد هو أنّ هؤلاء النساء يسألن التوبة لكي يكون في مستطاعنا أن نسلّم أرواحهنّ المطهّرة إلى الخالق ولكي نوزّع عقوباتهنّ بحذرٍ كما لو كان صنيعًا من فنّ إلهي- حيث يمكن للمرء أن يقرأ فيه إلهامًا كلمات المسيح- إلى حين يعترفن بطقوسهنّ وتقنياتهنّ، بتعويذاتهنّ التي أنزلنها على المدينة، الغارقة الآن في الفوضى وغياب السلطة.

هذه السنة، تدبّرنا إعادة المحمّديين إلى أفريقيا، وقد أرشدتنا يد المسيح الظافرة في سعينا. كانوا قد أصبحوا السلطة الكاسحة هنا، لكنّ الإيمان ساعدنا على الخروج ظافرين من كلّ معركة. فرّ اليهود أيضًا، ومن بقي منهم، سوف يُردّون عن دينهم، بالقوّة إن دعت الحاجة.

وأسوأ من اليهود والمور، كان غدر أولئك الذين زعموا إيمانهم بالمسيح، لكنّهم خانونا. هم أيضًا، سيُعاقبون في الوقت المناسب بلا سابق إنذار، إنّها مجرّد مسألة وقت.

الآن علينا صبّ جهودنا على الذين، كمثل ذئاب في هيئة نعاج، اندّسوا مكرًا في قطعاننا. هذه فرصتنا في أن نظهر للجميع أنّ الشرّ لن يمرّ على غفلة لأن هؤلاء النساء إذا أفلحن، سيذيع الخبر، والقدوة السيئة ستكون، ورياح الخطيئة ستتحوّل إلى إعصار. سنضعف أشدّ الضعف، ما سيعود بالمور إلى هنا، سيلتمّ شمل اليهود ثانية، وسيُدفن ألف وخمسمئة عام من النضال في سبيل سلام المسيح.

يُقال إنّ التعذيب بدأ مع محكمة التفتيش. وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة! على العكس، عندما شرّع القانون الروماني التعذيب، رفضته الكنيسة بدايةً. أما الآن، وبداعي الحاجة، فقد تبنّيناه نحن أيضًا، لكنّ اللجوء إليه ضيّق الحدود. منحنا البابا الإذن-ليس بأمرٍ - معلنًا أنّه يجوز استعمال التعذيب في حالات نادرة. في محكمة التفتيش، التي تُشوّه سمعتها جوراً، نرفع شعار الحكمة والنزاهة والحشمة. بعد وصولنا أي بلاغ، نـمنّ دومًا على الخاطىء بالرحمة، عبر منحه سرّ الاعتراف قبل مواجهته حكم السموات، حيث ستظهر الأسرار المخفيّة عنا. همّنا الأعظم هو خلاص تلك الأرواح المسكينة، ولمحقّق المحكمة الحقّ في الاستجواب، وفي وصف الطرائق اللازمة التي ستدفع بالمذنب إلى الاعتراف. وههنا يُستعمل التعذيب أحيانًا، لكن كما سبق وصفه فقط.

في هذه الأثناء، يتّهمنا أعداء المجد الإلهي بأننّا جلاّدون لا يرحمون، وقد غاب عنهم أنّ المحكمة تلجأ إلى التعذيب باعتدال

ولين، خلافًا للمحاكم المدنية! لا يجوز استعمال التعذيب إلاّ مرة أثناء المحاكمة الواحدة، وعليه، آملُ ألاّ تبدّد الفرصة الوحيدة أمامك. ما لم تتّخذ التصرّف المناسب، سوف تُلحق الخزي بالمحكمة وسوف نُكره على إعتاق من أتين إلى هذا العالم لمجرد أن يزرعن فيه بذار الخطيئة. كلّنا ضعفاء، ووحده الربّ قوي. لكنّه يقوّينا عندما يـمنّ علينا بشرف القتال في سبيل مجد اسمه.

فلا تتردّد. إن كانت أولئك النساء مذنبات، فعليهنّ الاعتراف قبل أن نسلّم أمر رحمتهنّ إلى الربّ.

وحتى إن كانت هذه بكر صنائعك، وملء قلبك ما تعدّه تعاطفًا- لكنه ليس في الواقع سوى ضعف- فلتتذكّرْ أنّ المسيح لم يجزع من طرد الصيارفة من الهيكل. سوف يُرشدك رئيسك إلى الإجراءات الصحيحة، وعندما يحين الوقت، سوف تقتدر على استعمال السوط، والدولاب وسواهما، من دون أن تخذلك شجاعتك. ولا يغبْ عنك أنّه ما من موتٍ أرحم من الموت حرقًا، إنه أكثر أشكال التطهير شرعيةً. تحرق النيران الجسد لكنّها تطهّر الروح أيضًا، التي ستصعد عندئذٍ إلى ملكوت الله!

عملك حيويّ، إن كنّا نريد حفظ النظام، إن كنّا نريد لبلدنا أن يتجاوز هذه المحن الداخلية، وأن تستولي الكنيسة على السلطة من جديد في ظلّ الخطر التي يتهدّدها من هذه المخلوقات الجائرة، وإن كنّا نريد أن يُدوّي في قلوب الناس من جديد وقع كلمة الحَمل

المشهود لها. الخوف ضروري أحيانًا لكي ترجع الروح من ضلالها إلى دربها. الحرب ضرورية أحيانًا لكي نسترجع السلام. قلّما يهمّنا بما نُدان في اللحظة، لأنّ المستقبل سيكون الحَكَم ويقرّ أعمالنا.

حتى وإن عجز ناس المستقبل عن تفهّم ما فعلنا ونسوا أنّ القسوة تعيّنت علينا لكي يصبح الناس على قدر الحلم والاعتدال اللذين أمرنا ابن الله أن نكونهما، فإننا على علمٍ بأنّ ثوابنا ينتظرنا في السموات.

لا بدّ من اقتلاع بذور الشرّ من الأرض قبل أن تُنبت جذورًا وتنمو. ساعد رئيسك على أداء واجبه المقدّس، من دون الشعور بالكراهية تجاه هذه المخلوقات المسكينة، ولكن من دون رحمة للشرير أيضًا.

تذكّر أن للسموات محكمتها، وستطالب المحكمة بمعرفة كيف عملتَ بمشيئة الله على الأرض.

ف.ت.ت.، أ. ب.

آمِنْ وإنْ لم يؤمن بك أحد

نبقى بلا حراك طول الليل. أستيقظ وهي لا تزال بين ذراعيّ، تمامًا كحالنا قبل حلقة النار. عنقي متصلّب من الاستلقاء بالوضعية نفسها.

«فلننهضْ. ثمّة ما يجدر بنا فعله».

تستدير، متذمّرةً من طلوع الشمس باكرًا جدًا في سيبيريا في هذا الوقت من السنة.

«هيّا بنا، فلننهضْ. علينا المغادرة. اذهبي إلى غرفتك، ارتدي ثيابك وقابليني تحت».

* * * *

يُعطيني الرجل عند الاستقبال خريطةً ويُرشدني إلى أين أذهب. خمس دقائق مشيًا. تتذمّر هلال لأنّ پوفيه الفطور لم يفتح بعد.

نعبر شارعين وأجد المكان الذي كنت أبحث عنه.

«لكنّها كنيسة!».

«نعم، كنيسة».

«أكره النهوض باكرًا وأكره بالتعيين...هذا»، تقولها مشيرة إلى القبّة المدهونة بالأزرق يعلوها صليب من ذهب.

الأبواب مفتوحة، وعجائز قليلات يدخلنها. أنظر من حولي وألاحظ أنّ الشارع مهجور. لا أرى أيّ سيارة.

«يلزمني أن تفعلي شيئًا من أجلي».

ترسم ابتسامتها الأولى لهذا اليوم. أنا أطلب إليها أمرًا. أحتاج إليها.

«شيء بمقدوري وحدي فعله؟».

«نعم، شيء بمقدورك وحدك فعله. لكن لا تسأليني لماذا أريدك أن تفعليه».

* * * *

أُمسك بيدها وأقودها إلى داخل الكنيسة. ليست المرة الأولى التي أدخل فيها كنيسة أرثوذكسية، لكني لم أعرف قط ما عليّ فعله بالضبط، باستثناء إشعال إحدى الشموع الرفيعة والصلاة للقدّيسين والملائكة تضرُّعًا لحمايتي. مع هذا، دائمًا ما يستهويني جمال هذه الكنائس، التي يتكرّر فيها المثال المعماري ذاته: السقف المقنطر، الصحن الوسطي الفارغ، القناطر الجانبية، الأيقونات المذهّبة التي رسمها فنّانون، بالصلاة والصوم، والتي يقف إزاءها بعض السيدات اللواتي دخلن من توّهن منحنيات، ثم طبعن قبلة على الزجاج الساخن.

وكما يحدث دومًا عندما نكون مركّزين في ما نريده، تبدأ الأمور بأخذ أماكنها بالتمام. مع كلّ ما اختبرته ليل أمس، ومع واقع أنني لم أتخطّ قراءة الرسالة، لا يزال أمامي ما يكفي من الوقت لبلوغ ڤلاديـڤوستوك، وقلبي في سلام.

تبدو هلال على القدر نفسه من افتتاني بالجمال المحيط. لا بدّ أنها نسيت أننا في كنيسة. أتوجّه إلى سيّدة تجلس في إحدى الزوايا، تبيع الشموع. أشتري أربعاً، أُشعل ثلاثًا وأضعها أمام ما يظهر أنّه صورة للقديس جاورجيوس، وأصلّي لنفسي، لعائلتي، لقرّائي، ولعملي.

أُشعل الرابعة وآخذها إلى هلال.

«أرجوكِ افعلي كما أقول. أمسكي بهذه الشمعة».

بفعل الغريزة، تُلقي نظرةً خاطفةً إلى ما حولها، لترى إن كان أحدهم يراقب. لا بُدّ أنها تظنّ أنّ ما أطلب إليها فعله قد يُقلّل من احترام الكنيسة حيث نحن. لكن في اللحظة التالية، ترجع إلى نفسها المتّقدة. في النهاية، هي تمقت الكنائس ولا تفهم ما يدعوها إلى التصرّف على هذا النحو.

في عينيْها انعكاس لشعلة الشمعة. أحني رأسي. لا أشعر بالذنب على الإطلاق. أشعر بالقبول فقط، ووجع ألمٍ غابرٍ يحدث في بُعد آخر، ألمٍ عليّ تقبّله.

«لقد خنتكِ، وأريدك أن تغفري لي».

«تاتيانا!».

أضع يدي على فمها. قد تكون قوية الشخصية وموهوبةً ومناضلةً حقّة، لكن عليّ أن أتذكّر أنها لا تزال في الحادية والعشرين فقط من عمرها. كان يجدر بي صياغة الجملة بشكل مختلف.

«لا، لم تكن تاتيانا. لكن رجاءً، اغفري لي».

«لا أستطيع مسامحتك فيما أجهل ما فعلت».

«تذكّري الألِف. تذكّري ما شعرتِ به في تلك اللحظة. حاولي أن تستحضري إلى هذا المكان المقدّس أمرًا تجهلينه، لكنّه في صميمك. وإن دعت الحاجة، فكّري في سيمفونية مفضّلة عندك ودعيها ترشدك إلى حيث تحتاجين الذهاب. هذا كلّ ما يهمّ الآن. الكلمات والشروح والأسئلة لن تجدي؛ سوف تزيد إرباكًا ما هو في الأصل معقّدًا بما يكفي. اغفري لي، ولتكنْ مغفرتك من أعمق أعماق روحك، الروح ذاته الذي يعبر من جسدٍ إلى جسد، ويكتسب علمًا في ارتحاله عبر الزمن اللاموجود وعبر الفضاء اللامتناهي.

«أن نجرح الروح أمر خارج إمكاننا، تمامًا كجرح الله خارج إمكاننا، لكنّ ذكرياتنا تأسرنا، وهذا ما يجلب البؤس على حياتنا، حتى وإن كنّا نملك كلّ ما نحتاج إليه لنكون سعداء. حبذا لو أمكن لنا أن نكون هنا بكلّيتنا، كما لو أننا استيقظنا من توّنا على كوكب الأرض ووجدنا أنفسنا داخل معبد ذهبي. لكننا لا نستطيع.

«لا أفهم ما يدعوني إلى مسامحة الرجل الذي أحبّ. ربما لمجرّد

أمر واحد، وهو عدم سماعه يتلفظ بتلك الكلمات ذاتها على شفتيه».

تروح رائحة البخّور تفوح علينا. الكهنة يدخلون لأداء صلوات الصباح.

«فلتنسي من أنتِ الآن، ولتذهبي إلى المكان الذي تنتظرك فيه الأنا التي لطالما كنتها. هناك سوف تجدين الكلمات المناسبة وستتمكّنين من مسامحتي».

تبحث هلال عن الوحي في الجدران المطليّة ذهبًا، في الأعمدة، في الناس الداخلين إلى الكنيسة في تلك الساعة الباكرة، في لهب الشموع المضاءة. تُغمض عينيْها، ربما تبعًا لاقتراحي في تخيُّل موسيقا ما.

«لن تصدّق ما يحصل، لكني أظنّ أنني أرى فتاةً، فتاةً لم تعد هنا، لكنها تريد العودة...»

أطلب إليها أن تُصغي لما تودّ الفتاة قوله.

«الفتاة تغفر لك، ليس لأنها أصبحت قدّيسة، بل لأنه لم يكن في وسعها أن تحمل حِمل الكراهية هذا. الكراهية مرهقة جدًا. لا أدري إن كان ثمّة ما يتغيّر في السماوات أم على الأرض، إن كانت روحي تُدان أم تُخلّص، لكني أشعر بالإرهاق التام والآن فقط يسعني أن أعرف السبب. أغفر للرجل الذي حاول أن يدمّرني عندما كنتُ في العاشرة من عمري. كان على علمٍ بما فعل، ولم أكن أعلم. لكني شعرتُ أنّ الذنب ذنبي، كرهته وكرهتُ نفسي. كرهتُ كلّ من اقترب منّي، ولكنّ روحي تتحرّر الآن».

لم يكن هذا ما توقّعته.

«أغفر لكلّ شيء وكلّ فرد، بمن فيهم أنت، مع أنني أجهل الجرم الذي ارتكبته. أغفر لك لأنني أحبّكَ، ولأنّك لا تحبّني، أغفر لك لأنّك تُبقيني على مقربةٍ من شيطاني، مع أنني لم أفكّر فيه منذ سنين. أسامحك لأنّك صدّيتني ولأنّ قواي قد ذهبت سدىً، أغفر لك لأنّك لا تفهم من أكون ولا ما أفعله هنا. أغفر لك وللشيطان الذي لامس جسدي قبل أن أفقه معنى الحياة. لامس جسدي، لكنّه شوّه روحي».

تُقرّب يدًا من الأخرى لتصلّي. كنت أودّ لو كانت مسامحتها محصورةً بي، لكنّ هلال تنقذ كامل عالمها الآن، وربما كان ذلك أفضل.

يروح جسمها يرتعش. وتمتلئ عيناها دمعًا.

«ألا بُدّ من ذلك في كنيسة؟ فلنخرجْ إلى الهواء الطلق. أرجوك!».

«لا، لا بدّ منه في كنيسة. ذات يوم، سنكرّر الأمر خارجًا، ولكن اليوم لا بدّ أن يكون في كنيسة. أرجوكِ سامحيني».

تُغمض عينيْها وترفع يديْها عاليًا. ترى امرأة داخلة إلى الكنيسة هذه الحركة، وتهزّ رأسها استنكارًا. نحن في مكانٍ مقدّس، والشعائر مختلفة هنا، علينا احترام التقاليد. أدّعي أنني لم ألاحظ ذلك وأشعر بالارتياح إذ أُدرك أنّ هلال تتحدّث إلى الروح القدس الذي يُملي الصلوات والقوانين الحقيقية، ولا شيء في العالم سيُشتّتها الآن.

«أُعتق نفسي من الكراهية بالمغفرة والمحبّة. أفهم أنّ المعاناة، متى

استحال علينا اجتنابها، توجد لمساعدتي على درب المجد. أفهم أنّ كلّ شيء مترابط، أنّ كل الدروب تلتقي، وأنّ كل الأنهر تصبّ في البحر نفسه. لهذا أنا، في هذه اللحظة، أداة مغفرة، مغفرة الجرائم التي ارتُكبت؛ جريمة أعرفها، وأخرى أجهلها».

نعم، ثمّة روح كان يتحدّث إليها. عرفتُ ذاك الروح وتلك الصلاة، والتي كنت قد تعلّمتها منذ سنين بعيدة في البرازيل. تلاها صبي صغير حينذاك، وليس فتاة. لكنّ هلال كانت تردّد الكلمات التي تهيم في الكون في انتظار أن تُتلى عند الحاجة.

تتكلّم هلال برقّة، لكنّ إيقاع الآلات الموسيقية في الكنيسة كان مثالياً إلى درجة أنّ كلّ ما تقوله كان يطال كل زاوية.

«أغفر للدموع التي كُتب عليّ أن أذرفَها،

أغفر للألم ولخيبات الأمل،

أغفر للخيانات وللأكاذيب،

أغفر للقدح والذمّ وللمكائد،

أغفر للكراهية وللاضطهاد،

أغفر للضربات التي أذتني،

أغفر للأحلام المحطّمة،

أغفر للآمال العقيمة،

أغفر للعدوانية وللغيرة،

أغفر للامبالاة وللبُغض،

أغفر للظلم المنفّذ باسم العدالة،

أغفر للغضب وللوحشيّة،

أغفر للإهمال وللاحتقار،

أغفر للعالم ولكلّ شروره.

تُخفض ذراعيها، تفتح عينيها وتمسح وجهها بيديها. أتّجه إليها لأعانقها، لكنّها توقفني بإيماءة.

«لم أنتهِ بعد».

تُغمض عينيها من جديد، وترفع وجهها نحو السماوات.

«كما أغفر لذاتي. عسى أنّ تكفّ مِحن الماضي عن إثقال قلبي. وبدلاً من الألم والنقمة، أختار التفهّم والعطف. بدلاً من الثورة، أختار موسيقا كماني. بدلاً من الأسى، أختار النسيان. بدلاً من الانتقام، أختار النصر.

«سأقتدر على الحبّ، أكان متبادَلاً أم لا،

على العطاء حتى وإن لم أمتلك شيئًا،

على العمل بسعادة حتى في أشد الصعاب،

على مدّ يدي للعون حتى وإن كنت وحيدة تمامًا ومتروكة،

على تجفيف دموعي حتى في وسط انتحابي،

على الإيمان وإن لم يؤمن بي أحد.

تفتح عينيْها، تضع يديْها على رأسي وتقول بسلطةٍ نزلت عليها من عَلٍ.

«هكذا هو الأمر. وهكذا سيكون».

* * * *

يصيح ديك عن بعد. تلك هي الإشارة. أُمسك بيدها وننطلق عائديْن إلى الفندق، متجوّلين بنظرنا على المدينة التي تهمّ في الاستيقاظ. تبدو بوضوح متفاجئةً نوعًا ما لما قالت. أما في نظري، فإن كلمات الغفران التي تفوّهتْ بها كانت أهمّ ما في رحلتي حتى الآن. ولكن هذه ليست بالخطوة الأخيرة.

نصل عند الوقت لتناول الفطور مع باقي المجموعة، نوضّب حقائبنا ونتّجه إلى محطّة القطار.

أقول: «ستنام هلال في المضجع الفارغ في مقطورتنا».

لا يأتي أحدٌ بأي تعليق. بوسعي أن أتخيّل ما يجول في بالهم، لكني لا أتكبّد عناء شرح أنّ ما يظنّونه ليس صحيحاً البتّة.

تقول هلال: «قرقماز جيت».

وبحسب نظرة التعجّب على وجوه الكلّ، بمن فيهم مترجمي، الواضح أنّ العبارة ليست بالروسية.

تُكرّر: «قرقماز جيت تعني بالتركية:هو يمضي، وبلا خشية».

يبدو أنّ الكلّ قد تعوّدوا أكثر وجودهم على متن القطار. الطاولة في غرفة الجلوس هي مركز الكون، حولها نجتمع كلّ يوم لتناول الفطور والغداء والعشاء، ونتحدّث في الحياة وآمالنا للمستقبل. هلال الآن في المقطورة ذاتها معنا، تشاطرنا وجباتنا، تستخدم حمّامي لتأخذ حمّامها اليومي، تتمرّن بهوس، وتشارك أقل فأقل في النقاشات.

اليوم نتحدّث عن وسطاء الشامان الروحيين من بحيرة بايكال. يشرح ياو أنّه يودّ فعلاً أن ألتقي واحدهم.

أقول: «سنرى»، فيترجمها «لستُ مهتمًا كثيرًا».

ومع ذلك، لا أظنّ أنّ عزيمته ستفتر بهذه السهولة. أحد أكثر مبادئ الفنون القتالية شيوعًا هو مبدأ اللامقاومة. يستخدم المقاتلون الجيّدون طاقة خصمهم ويوجّهونها ضدّه. لذا، كلّما هدرت طاقتي على الكلام، سأكون أقلّ اقتناعًا بما أقول، وسيكون من الأسهل استخلاص أفضل ما فيَّ.

تقول محرّرتي: «كنت أفكّر في محادثتنا قبل وصولنا إلى نوفوسيبيرسك. قلتَ إنّ الألِف نقطة توجد خارجنا، لكن متى أحبّ الناس بعضهم بعضًا حبًّا جمًّا، يمكنهم رصد مكان تلك

النقطة متى شاؤوا. يعتقد الشامان أنّهم وُهبوا قوى مميّزة وأنهم همّ وحدهم قادرون على استبصار رؤىً مماثلة».

«إنْ كان المقصود التقليد السحري، فالإجابة هي نعم، الألِف خارجنا. وإن كان المقصود التقليد البشري، يمكن للناس الواقعين في الحبّ أن يختبروا، وفي لحظات خاصّة جدًا، الكُليّة. في الحياة الواقعية، ننزع إلى رؤية أنفسنا ككيانات منفصلة، لكنّ الكون واحد، روح واحد. مع ذلك، لاستحضار الألِف، لا بدّ من حصول شيء قويّ جدًا؛ نشوة جنسية هائلة، فقدان مروّع، وصول نزاع عظيم إلى ذروته، لحظة انتشاء أمام شيء نادر الجمال».

تقول هلال: «ليس عندها نقص في النزاعات. إنها تحيط بنا، حتّى في هذه المقطورة».

بعد أن كانت هادئة لبعض الوقت، يبدو أنها رجعت إلى بداية الرحلة، وهي عازمة على تحريك وضعٍ سبق أن حُلّ. ربحتْ المعركة وتريد أن تظهر قوّتها المكتسبة حديثًا. تعرف محرّرتي أنّ هذه الكلمات مصوّبة نحوها.

تردّ، بتعميمٍ ومع ذلك فهو يصيب الهدف المرجو: «النزاعات هي لأصحاب النفوس المتّزنة، العالم منقسم بين أولئك الذين يفهمونني وأولئك الذين لا يفهمونني. في حال هؤلاء الأخيرين، أتركهم ببساطة لكي يتعذّبوا محاولين استدرار تعاطفي».

تقول هلال: «هذا مضحك. أنا لا أزال على حالي. لطالما كنت

على هذه الحال، ولطالما وصلتُ إلى حيث أريد الوصول، وأحد الأمثلة على ذلك أنني أنام في مضجعٍ في هذه المقطورة».

ينهض ياو. من الواضح أن لا مزاج له لهذا النوع من المحادثات.

ينظر ناشري إليّ. ما الذي يتوقّع أن أفعله؟ الانحياز إلى أحد الطرفين؟

تقول محرّرتي، وهي تنظر مباشرة إلى هلال الآن: «أنتِ لا تعلمين عمّا تتحدّثين. لطالما ظننتُ أنني كنتُ مستعدّة لكل شيء إلى حين وُلد إبني، وبدا العالم وكأنه ينهال عليّ. شعرتُ بالضعف وبالتفاهة وبالعجز عن حمايته. وحدهم الأطفال يظنّون أنهم على كل شيء قادرون. هم واثقون وجريئون، يؤمنون بقوّتهم ويحصلون على ما يريدونه بالضبط. عندما يكبر الأطفال، يدركون أنّهم ليسوا على قدر القوّة التي خالوها، وأنهم في حاجة إلى آخرين ليؤمّنوا بقاءهم. ثمّ، يبدأ الولد بالحبّ وبالأمل أن يكون حبّه متبادَلاً، وفيما تمضي الحياة، يصبح بحاجة أكبر إلى أن يُبادَل الحب، حتّى وإن عنى ذلك تخلّيه عن قوّته. كلّنا نؤول إلى ما نحن عليه الآن: راشدون نقوم بكلّ ما في وسعنا لكي نُقبَل ونُحَبّ».

رجع ياو، وهو يُحاول الحفاظ على توازن صينيّة تحمل شايًا وستة أكواب كبيرة.

تُتابع محرّرتي: «لهذا سألتُ عن الألِف وعن الحبّ. لم أكن أقصد الحبّ بين رجل وامرأة. أحيانًا، عندما كنت أراقب ابني فيما

يغفو، استطعتُ أن أرى كلّ ما كان يجري في العالم: المكان الذي منه أتى، الأمكنة التي إليها سيذهب، التجارب التي سيكون عليه مواجهتها لبلوغ ما حلمتُ له بلوغه. كَبِر، وأحببته بالقدر نفسه، لكنّ الألِف اختفى».

نعم، لقد فهمتُ الألِف. يتبع كلماتها صمتٌ يدل على الاحترام. وهلال مجرّدة تمامًا من سلاحها.

تقول هلال: «أنا تائهة. يبدو الأمر وكأنّ الأسباب التي دفعتني إلى الوصول حيث أنا الآن قد اختفت تمامًا. يمكن لي أن أخرج عند الوقفة التالية، أعود إلى ييكاتيرينبرغ، أكرّس باقي حياتي للكمان، وأستمرّ في عدم فهمي لأي شيء. ويوم مماتي، سوف أسأل: ما الذي كنتُ أفعله هنا؟».

ألمس ذراعها، وأقول لها: «تعالي معي».

كنت على وشك أن أنهض وآخذها إلى الألِف، لأذكّرها لماذا كانت قد قرّرت عبور آسيا في القطار، وكنتُ مستعدًا لتقبّل أي قرار قد تتّخذه. فكّرتُ في المعالِجة التجانسية التي لم ألتقِها قط بعد عودتنا المشتركة إلى حياة ماضية، لعلّ الأمر يكون مماثلاً مع هلال.

يقول ياو: «لحظة واحدة».

يطلب إلينا أن نجلس ثانيةً، ويُوزّع الأكواب ويضع إبريق الشاي في وسط الطاولة.

«عندما عشتُ في اليابان، تعلّمتُ تقدير جمال الأمور البسيطة. ومن أبسط الأمور وأكثرها تعقيدًا التي خبرتها، كان شرب الشاي.

نهضتُ الآن لكي أكرّر التجربة ولكي أشرح أنّه، مع كل نزاعاتنا، ومع كلّ مصاعبنا ودناءتنا وكرمنا، يمكن لنا أن نحبّ الأمور البسيطة في الحياة. تعوّد محاربو الساموراي أن يتركوا سيوفهم في الخارج قبل دخول منزلٍ ما، أن يجلسوا بالوضعيّة الصحيحة، ويُشاركوا في أمسية شاي مُسهبة. أثناء ذلك الوقت، أمكن لهم أن يتناسوا كلّ ما يتعلّق بالحرب، ويُكرّسوا أنفسهم لعبادة الجمال. فلنفعل هذا الآن».

يملأ كلّ كوب بالشاي. ننتظر في صمت.

«ذهبت لإحضار الشاي لأنني رأيت اثنين من الساموراي يستعدّان لخوض قتال، لكن عندما عُدت، حلّت محلّ المحاربيْن روحان فهمت إحداهما الأخرى من دون الحاجة إلى شاي ملطِّف. فلنشرب معًا بأي حال. فلنصبّ كل جهودنا لبلوغ الكمال عبر اللفتات الناقصة من الحياة اليومية. الحكمة الحقيقية تتمثّل في احترام الأشياء البسيطة التي نقوم بها، هذا لأنه يمكن لها أن تأخذنا إلى حيث يلزمنا الذهاب».

باحترام، نشرب الشاي الذي سكبه ياو لنا. الآن بعد أن غُفر لي، أستطيع أن أتذوّق طعم الأوراق الفتيّة، التي قطفتها أيدٍ خشنة، وجُفِّفت وحُوّلت إلى شراب يوجِد الانسجام في كلّ مكان. لا أحد من بيننا على عجلةٍ من أمره، فيما نسافر، نحن نُدمّر أنفسنا ومن نحن، ونُعيد بناءهما باستمرار.

بعد أن انتهينا، أدعو هلال من جديد أن تلحق بي. هي تستحقّ أن تعرف القصة كاملةً وأن تقرّر بنفسها.

نحن في الردهة بين المقطورات. رجلٌ عمره يُقارب عمري يتحدّث إلى امرأة تقف بالضبط حيث الألِف. وبالنظر إلى الطاقة المميّزة لهذا المكان، قد يبقيان هناك لفترة.

ننتظر قليلاً. يصل ثالثٌ، يُشعل سيجارة، وينضمّ إلى الآخرَين.

تقوم هلال بحركة وكأنها تُلمّح إلى العودة إلى غرفة الجلوس.

«هذه فسحتنا. عليهم أن يكونوا في المقطورة التالية».

أطلب إليها أن تلازم مكانها. لا يمكن لنا الانتظار.

أسأل: «لماذا كنت شديدة العدوانية في الوقت الذي أرادتْ فيه بوضوح إحلال السلام؟».

«لا أدري. أنا تائهة. كلّ مرّة نتوقّف فيها، كلّ يوم يمرّ، أشعر بالتيه أكثر فأكثر. خِلتُ أنني كنت في حاجة ماسّة إلى إشعال تلك النار على قمّة الجبل، لأكون بقربكَ، لأساعدكَ على إنجاز مهمّة أجهلها. خِلتُ أنّ ردّ فعلها سيكون كالسابق، وأن تفعل كلّ شيء يمكنها فعله لإيقاف حدوث ذلك. وصلّيتُ لكي أوتى بالقوّة لتخطّي كلّ الحواجز، لكي أتقبّل العواقب، لكي أُذلّ، وأُهان، وأُحتَقَر، وكلّ هذا باسم حبّ لم أظنّ يومًا أنه قد يوجد، لكنّه وُجِد. وقد اقتربتُ كثيرًا من تحقيق ذلك. الآن، أنام في المضجع المجانب لمضجعك، وهو

فارغ لأنّ الله قرّر أنّ الشخص الذي سيشغله سينسحب في اللحظة الأخيرة. لم تكن هي من قرّر ذلك، بل جاء القرار من عَلٍ، أنا واثقة من ذلك. لكن الآن، للمرّة الأولى منذ ركبتُ هذا القطار المقرّرة وجهته إلى المحيط الهادئ، أشعر فجأة بأنني لا أرغب في المتابعة».

يصل شخص آخر، وينضمّ إلى المجموعة. يأتي مدجّجًا بثلاث زجاجات من الجعّة. يبدو أن حديثهم سيطول كثيراً.

«أعرف ما تقصدين. تعتقدين أنّكِ بلغت النهاية، لكنك لم تبلغيها بعد. وأنت على حقّ فعلاً؛ يلزمكِ أن تفهمي سبب وجودك هنا. جئتِ لكي تغفري لي، وأُريد أن أريكِ السبب. لكن الكلمات تُقتَل، وبالتجربة المباشرة فقط سوف تفهمين كلّ شيء، أو بالأحرى، عندئذ فقط سوف نفهم كلّ شيء، لأنني أجهل نهاية القصة كذلك، وما سيكون السطر الأخير أو الكلمة الأخيرة».

«فلننتظر مغادرتهم إذًا، لكي يتسنّى لنا دخول الألِف».

«هذا ما فكّرت به أيضًا، لكن من الواضح أنهم سيبقون هنا لوقتٍ طويل، وتحديدًا بسبب الألِف. قد لا يكونون واعين للأمر، لكنّ شعورًا بالسعادة الغامرة والوفرة ينتابهم. خطر لي، فيما كنت أراقبهم، أنني قد أحتاج إلى أن أقودكِ وليس أن أُريكِ كلّ شيء دفعةً واحدة».

«تعالي إلى غرفتي الليلة. يصعب النوم في هذه المقطورة بأي حال، لكن أغمضي عينيك، استرخي، واستلقي بجانبي. دعيني أعانقك

كما فعلت في نوفوسيبيرسك. سأحاول الوصول إلى ختام القصة وحدي، ومن ثمّ سأخبرك ما حدث بالضبط».

«هذا ما أملتُ سماعه. دعوة إلى غرفتكَ. لكن، أرجوك، لا تصدّني ثانيةً».

المرأة الخامسة

«لم يتسنَّ لي الوقت لأغسل ثياب نومي».

ترتدي هلال بلوزة قطنية فحسب، استعارتها مني لتوّها، تُغطّي القسم الأعلى من جسدها، تاركةً ساقيها عاريتين. لا يسعني أن أخمّن ما إذا كانت ترتدي شيئًا تحتها. تستلقي على السرير.

أداعب شعرها. أحتاج إلى استخدام كلّ ما أقدر عليه من الكياسة والرهافة، لأقول كلّ شيء ولا شيء.

أقول: «كلّ ما أحتاج إليه في هذه اللحظة هو أن تعانقيني، فالعناق حركة قديمة بقِدَم الإنسانية ذاتها، ومعناها أبعد بكثير من لقاء جسدين. العناق يعني أنني لا أشعر بأنّك تهدّدينني، ولا أخشى من قربي منك إلى هذه الدرجة، أستطيع أن أسترخي، وأن أشعر بالارتياح، وأن أشعر بالحماية وبحضرة من يمكن له أن يفهمني. يُقال إنّه في كلّ مرّة نُعانق فيها أحدًا بحرارة، نكسب يومًا إضافيًا في الحياة. لذا رجاءً، عانقيني الآن».

أضع رأسي على صدرها وتضمّني بين ذراعيها. مرّةً أخرى، أسمع نبض قلبها يتسارع وأُدرك أنّها لا ترتدي إثاراً لنهديها.

«كم أودّ أن أخبرك ما أنا على وشك محاولته، لكنني لا أستطيع.

لم أصل مطلقًا إلى النهاية، النقطة حيث كلّ شيء محلول ومفسّر. أتوقّف دومًا عند اللحظة ذاتها، فيما نهمّ بالمغادرة».

تسأل هلال: «مغادرة ماذا؟».

«فيما نهمّ بمغادرة الساحة، ولكن لا تطلبي إليّ التفسير أكثر. ثمّة ثماني نساء، تقول إحداهنّ شيئاً أعجز عن سماعه. على مدى السنين العشرين الماضية، التقيتُ أربعًا من هؤلاء النساء، ولكن لم تتمكّن أيٌّ منهن من إيصالي إلى ختام القصة. أنتِ المرأة الخامسة بينهنّ. لم تحصل هذه الرحلة مصادفة، وبما أنّ الله لا يُخيّر الكون، أعرف الآن لماذا دفعتك تلك القصة بإشعال النار على قمّة الجبل إلى المجيء بحثًا عنّي، مع أنني لم أفهم ذلك إلاّ بعد دخولنا الألِف معًا».

«أحتاج إلى سيجارة. هلاّ فسّرتَ بوضوح أكثر؟ لقد خِلتُ أنّكَ تريد أن تكون معي».

نقعد في السرير ويُشعل كلٌّ منا سيجارة.

«حبّذا لو أمكن لي أن أكون أوضح وأخبرك بكل شيء، انطلاقًا من قراءتي الرسالة، وهي أوّل ما يظهر على الدوام. بعد ذلك، أسمع صوت رئيسي يُخبرني بأنّ النساء الثماني في انتظارنا. وأعرف، أنّه في النهاية، تقول لي إحدى النساء أمرًا، لكني أعجز عن معرفة ما إذا كان بركةً أم لعنة».

«إذًا أنتَ تتحدّث عن حيواتٍ ماضية، عن رسالةٍ في حياةٍ ماضية؟».

هذا كلّ ما أريدها أن تفهمه، طالما أنّها لا تطلب إليّ أن أشرح عن أيّ حياة أتكلّم.

«كلّ شيء يحدث هنا في الحاضر. إننا نُدين أنفسنا أو نخلّصها هنا، والآن، كلّ الوقت. إننا نتنقّل بين جهتين باستمرار، نقفز من مقطورةٍ إلى تالية، من عالمٍ موازٍ إلى آخر. عليكِ أن تؤمني بذلك».

«أؤمن. أعتقد أنني أعرف مقصدك».

ثمّ، يمرّ قطار عابر في الاتجاه المعاكس. وتمرّ بنا النوافذ المضاءة بسرعة البرق، نسمع الضجّة، ونشعر بتيّار الهواء العنيف. تهتزّ المقطورة أشدّ من اهتزازها المعتاد.

«ما أحتاج إليه الآن هو العبور إلى الجهّة الأخرى، وهي في هذا «القطار» بالذات وتسمّى الزمان والمكان. ليس العبور صعبًا. لكِ ببساطةٍ أن تتخيّلي حلقةً ذهبيّةً تتحرّك صعودًا ونزولاً على جسمك، ببطء في البداية، لتزداد سرعة تدريجًا. سار الأمر بشكلٍ مذهلٍ عندما كنّا في نوفوسيبيرسك معًا. لهذا أودّ تكرار التجربة. عانقتني وعانقتك، وحملتني الحلقة بلا جهد إلى الماضي».

«أهذا كلّ ما يتطلّبه الأمر؟ أن تتخيّل حلقة؟».

عيناي مركّزتان في الحاسوب المحمول على الطاولة الصغيرة في مضجعي. أنهض وأحضره معي إلى السرير.

«نعتقد أنّ الحاسوب مليء بالصور الفوتوغرافية والمرئيات، نافذة حقيقية على العالم، لكن في الواقع، خلف ما نراه على الشاشة،

لا يوجد سوى تتابع من الأصفار والآحاد، أي ما يُطلق عليه المبرمجون اسم اللغة الثنائية الأرقام.

«لدينا حاجة لإيجاد واقعٍ مرئي من حولنا، في الواقع، لو لم نفعل هذا، لما استطعنا نحن البشر أن نؤمّن بقاءنا في وجه مفترسينا. اخترعنا شيئًا يُدعى «الذاكرة»، تمامًا كالتي في الحاسوب. الذاكرة تقينا الخطر، تُتيح لنا العيش ككياناتٍ اجتماعية، تتيح لنا أن نبحث عن المأكل، أن ننمو، وأن ننقل كلّ ما تعلّمناه للجيل التالي من بعدنا، لكنّها ليست المسألة الأساسية في الحياة».

أُعيد وضع الحاسوب على الطاولة، وأعود إلى السرير.

«حلقة النار مجرّد حيلة لتُعتقنا من الذاكرة. قرأتُ أمرًا عنها في مكانٍ ما ذات مرة. لا يسعني تذكُّر اسم المؤلّف الآن، لكنّه قال إنّها عبارة عمّا نفعله كلّ ليلة في اللاوعي عندما نحلم: ندخل في ماضينا القريب أو البعيد. نستيقظ ونحن نفكّر في أننا حلُمنا بأكثر الأمور سخفًا في غفوتنا، لكن هذا غير صحيح. نكون قد زُرنا بُعدًا آخر، حيث الأمور لا تحدث تمامًا كحصولها هنا. نظنّ أنّها سخافة لأننا عندما نستيقظ، نرجع من فورنا إلى عالم ينتظم على (الذاكرة)، وهي طريقتنا في فهم الحاضر. وما نراه في أحلامنا سُرعان ما يُنسى».

«أَمِنَ السهل حقًا العودة إلى حياةٍ ماضيةٍ أو دخول بُعدٍ مختلف؟».

«يحصل ذلك عندما نحلم، أو عندما نستحضر تلك الحالة

عمدًا، ولكن لا يُنصح فعلا باستحضار حالاتٍ مماثلة. ما إنّ تستحوذ الحلقة على جسمك، حتى يطوف روحك في نوعٍ من الأرض المشاع. إن جهل وجهته، فسوف تقع في رقادٍ عميق، وعندئذٍ قد يُحمل إلى بقاعٍ غير مرحَّبٍ به فيها، وعندئذٍ لن تنهل أي معرفة أو ستجلب مشكلات ماضية إلى الحاضر».

نُنهي سيجارتيْنا. أضع المنفضة على كرسي وظيفتها أن تشكّل طاولةً مجانبةً للسرير، وأطلب إليها أن تعانقني من جديد، فيخفق قلبها أسرع من قبل.

«هل أنا إحدى هؤلاء النسوة؟».

«نعم. كلّ مَنْ واجهتنا مشكلات معهم في «الماضي» يعاودون الظهور في حيواتنا باستمرار، فيما يدعوه المتصوّفون «عجلة الزمن». يزيد وعينا لهذا مع كلّ تجسّد جديد، وتُحلّ تلك الخلافات تدريجًا. متى بطُلت خلافات الجميع في كلّ مكان، عندئذٍ سيدخل جنس البشر مرحلةً جديدة».

«إذًا، سبّبنا كلّ تلك الخلافات في الماضي لمجرّد أن نتمكّن من حلّها لاحقًا؟».

«لا، كانت الخلافات ضرورية للبشرية لكي تتمكّن من النماء بطريقة واتّجاه لا يزالان غامضين بالنسبة إلينا. تخيّلي زمنًا كنّا فيه جميعًا جزءًا من نوعٍ من الحساء الأحيائي الذي غطّى الكوكب. تكاثرت الخلايا بالطريقة ذاتها لملايين السنين، ثمّ تغيّرت إحداها.

في لحظةٍ ما، قالت مليارات الخلايا الأخرى: «هذا ليس صوابًا، هذه الخليّة في نزاعٍ معنا كلّنا».

«في تلك الأثناء، أدّى تحوّلها إلى تغيُّر خلايا أخرى إلى جانبها. «غلطة» تبعتها «غلطة»، ومن ذاك الحساء انبثقت الخلايا الأحادية النواة، الأسماك، الحيوانات والبشر. كان النزاع ضروريًا للنماء».

تُشعل سيجارةً أخرى.

«لكن ما حاجتنا إلى حلّ تلك الخلافات الآن؟».

«لأنّ الكون، قلب الله، ينقبض ويتمدّد. كان شعار الخيميائيين «سولـڤيه إيه كواغولا» أي «الفصل والضمّ». لا تسأليني لماذا، لأنني لا أعرف.

«عصر اليوم، تجادلتِ مع محررتي. وبفضل المواجهة، تمكّن كلٌّ منكما أن يتكشّف عن نورٍ جهلته الأخرى. انفصلتما فانضممتما، وكلّنا استفدنا من ذلك. أمكن للأمور أن تأخذ مسارًا مختلفًا تمامًا: مواجهة بلا نتائج إيجابية. في تلك الحالة، ثبُت أنّ المسألة أقلّ تنويرًا أو وجب حلّها لاحقًا. ما أمكن لها أن تبقى غير محلولة لأنّ طاقة الكراهية بينكما كان يمكن أن تعدي المقطورة بكاملها. وكما ترين، هذه المقطورة ترمز إلى الحياة».

ليست مهتمّة كثيرًا بهذه النظريات.

«ابدأ إذًا. سأذهب معكَ».

«لا، لن تفعلي. قد تضمّينني بين ذراعيك، لكنّك تجهلين إلى أين أنا ذاهب. لا تفعلي ذلك. عديني بأنكِ لن تتخيّلي الحلقة. حتى وإن لم أجد حلاً كاملاً، أعدكِ أنني سأخبركِ أين التقيتك من قبل. أجهل أنّها كانت المرّة الأولى التي حدثت فيها في حيواتي الماضية كافة، لكنّها الوحيدة التي أنا متأكّد منها».

لا تجيبني.

أُصرّ: «عديني. اليوم حاولتُ أن أُعيدكِ إلى الألِف، لكن كان ثمّة أشخاص هناك. هذا دليل على أنّه عليّ أن أسبقكِ إلى هناك».

تُفلتني من عناقها وتقوم بحركة وكأنّها ستنهض. أتشبّثُ بها.

تقول: «فلنذهب إلى الألِف الآن، لن يكون ثمة أحدٌ هناك في مثل هذه الساعة».

«رجاءً، صدّقيني. عانقيني ثانيةً وحاولي ألاّ تتحرّكي كثيرًا حتى وإن صَعُب عليك النوم. دعيني أرى إن كنت أستطيع الحصول على إجابة أولاً. أشعلي النار على قمّة الجبل، لأنّ المكان الذي أنا ذاهب إليه باردٌ برودة الموت».

تقول هلال مجدّدًا: «أنا إحدى النساء، أليس كذلك؟».

«نعم»، أقولها وأنا منصتٌ بعدُ إلى قلبها الخافق.

«سأُشعل النار وسأمكث هنا لأسهر عليك. اذهب برعاية الله».

أتخيّل الحلقة. مغفرتها لي حرّرتني أكثر، وسرعان ما أجد

الحلقة تتحرّك عبر جسمي صعودًا ونزولاً على نسقها، دافعةً بي باتّجاه المكان الذي لا أريد الذهاب إليه، ولكن لا بدّ من عودتي إليه.

أرفع نظري عن الرسالة وأرى الثنائي المتأنّق أمامي. يرتدي الرجل قميصًا من الكتّان الخالص وسترةً من المخمل مطرّزةً بخيطٍ ذهبي عند الكمّين. ترتدي المرأة سترة من الفرو والصدّارة الصوفية من فستانها مُحاكةً باللؤلؤ، في حين أنّ الياقة العالية المطرّزة، من قميصها الأبيض الطويل الكمّين، تؤطّر وجهها القلق. إنهما يتحدّثان إلى رئيسي.

«صداقتنا تعود إلى سنوات»، تقولها، متصنّعةً الابتسامة إكراهًا، وكأنّها تحاول إقناعنا بأنّ كلّ شيء لا يزال على حاله، وأنّ كلّ هذا مجرّد سوء تفاهم. تتابع: «لقد عمّدتها ووضعتها على الصراط المستقيم».

ثمّ، تلتفت إليّ وتقول:

«وأنتَ أدرى بمعرفتها. لعبتما معًا، ونشأتما معًا ولم تفترقا إلاّ حينما قرّرتَ الانضمام إلى الكهنوت».

يظلّ محقّق محكمة التفتيش على جموده.

ينظر إليّ الاثنان نظرة وفي أعينهما التماس، وتوسّل العون. غالبًا ما بِتُّ في منزلهما وتقاسمت طعامهما. آوياني بعد أن فتك الطاعون بوالدّي. أُومئ برأسي علامة الموافقة. أنا أكبرها بخمس

سنوات، لكنني أدرى بمعرفتها من أيّ شخص. لعبنا بالفعل معًا ونشأنا بالفعل معًا، وقبل أن أنضمّ إلى الرهبنة الدومينيكانيّة، كانت هي المرأة التي كنتُ أرغب في تمضية باقي أيامي معها.

يحين دور والدها في التوجّه إلى المحقّق، بالابتسامة الزائفة نفسها على وجهه: «لسنا في صدد الحديث عن أصدقائها. لا أعلم ما الذي يفعلنه أو ما فعلنه. أؤمن بأنّ للكنيسة واجب وضع حدّ للهرطقة، تمامًا كوضعها حدًا للخطر الذي تهدّدنا من المور. لا بدّ أنّ هؤلاء النساء مذنبات، لأنّ الكنيسة منصفة دومًا، ولكنّ كلاً منكما يعلم أنّ ابنتنا بريئة».

كان رؤساء الرهبنة قد جالوا في البلدة في اليوم السابق، في زيارتهم السنوية. وكان كل السكّان قد تجمعوا في الساحة الرئيسية. لم يكن واجبًا عليهم، لكن كلّ من كان يتقاعس عن الحضور، كان يُعتبر مُشتبهاً به على الفور. احتشدت العائلات من كل الطبقات الاجتماعية أمام الكنيسة، وتلا عليها أحد الرؤساء مستندًا، يشرح فيه سبب الزيارة: إسقاط القناع عن المهرطقات وسوقهنّ إلى الخضوع للعدالة الأرضية والإلهية. ثمّ، حلّت لحظة الرحمة، وكلّ مَن شعر أنّه قد أبدى ازدراءً للعقيدة الإلهية، فهذه فرصته للاعتراف بأن خطاياه كانت عفوية فيكون عقابه مخفّفًا. مع ذلك، ومع الرعب الذي ظهر في عيون الجميع، لم يحرّك أحدٌ ساكنًا.

ثمَّ، طُلب إلى الحشد أن يُبلِغ عن أيّ أفعال مشبوهة. كان

عامل في مزرعة قد تقدّم، وسمّى واحدةً من الفتيات الثماني. عُرف عن هذا الرجل ضربه لبناته، لكنّه كان يحضر القدّاس كلّ أحد، كما لو كان حملاً وديعًا من حملان الله.

* * * *

يتوجّه إليّ المحقّق ويومىء برأسه، وأمدّ له بالرسالة على الفور. يضعها إلى جانب كومةٍ من الكتب.

ينتظر الثنائي. ورغم البرد، تلمع جبهة الوالد تعرُّقًا.

«لم يتقدّم أيٌّ من عائلاتنا لأننا أشخاص نهاب الله. لم نأتِ إلى هنا لإنقاذ كل الفتيات، نريد استرجاع ابنتنا فحسب. أقسم لك بكلّ ما هو مقدّس بأننا سوف نرسلها توًّا إلى الدير، ما إن تبلغ السادسة عشرة. لن يكون لجسدها وروحها سوى هدف واحد، وهو التفاني في سبيل الله تعالى».

يقول المحقّق أخيرًا: «قدّم ذاك الرجل اتّهامه أمام البلدة بأكملها. سيلحق به العار علنًا إن وُجد أنّه يكذب. يأتي معظم البلاغات من مجهولي الهويّة. ويندر وجود شجاعة مماثلة».

ولشعور والد الفتاة بالارتياح إذ كسر المحقّق صمته على الأقلّ، يخال أنّ فرصة التفاوض قد تكون ممكنة.

«هو عدوّي. أنت تعرف ذلك. صرفته من عمله لأنّه اشتهى ابنتي. إنّه انتقام صِرف من جانبه ولا دخل له بالإيمان البتّة».

يودّ أن يضيف أنّ الأمر يصحّ انطباقاً على المتّهمات السبع

الباقيات إذ تسري شائعات بأنّ عامل المزرعة نفسه قد أقام علاقات جنسية محرّمة مع اثنتين من بناته. إنه منحرف، لا يجد اللذّة الجنسية سوى مع الفتيات الشابات.

يتناول المحقق كتابًا من كومة الكتب.

«أودّ أن أصدّق هذا، وأنا مُستعدّ لكي يُثبَت لي أنّها الحال، لكن عليّ أن أتبع الإجراءات الصحيحة. إن كانت بريئة، فليس ثمّة ما يدعوها للخوف. لا شيء، لا شيء بالمطلق سيتمّ خارج ما كُتب هنا. صحيح أننا ارتكبنا بعض التصرّفات المتجاوزة للقانون في البداية، لكننّا الآن أكثر تنظيمًا وحذرًا. لا يموت أحد على أيدينا الآن».

يـمدّ له الكتاب: ديريكتوريوم إنكويزيتوروم. يأخذه والد الفتاة، ولا يفتحه. يُحكم قبضته عليه، كمحاولةٍ لإخفاء رجفة يديه.

يُتابع المحقّق: «يتناول آداب السلوك، جذور الإيمان المسيحي. وطرائق الهرطقة المنحرفة. وكيف لنا أن نـميّز بين واحدةٍ وأخرى».

تُطبق المرأة فمها بإحدى يديها، محاولةً أن تبتلع خوفها ودموعها. ترى أنّهما لن يحقّقا شيئًا هنا.

«لن أكون من سيذهب إلى المحكمة ويُخبر كيف تعوّدت طفلةٌ أنّ تتحدّث عن ما أسمتهم «أصدقاء» خفيين. من المعروف جيدًا لدى أهل البلدة كيف كانت وصديقاتها يذهبن إلى الغابة ويجلسن حول قطعة زجاج مقلوبة، ويضعن أصابعهن عليها ويحاولن تحريكها بسلطة الإرادة المحضة. اعترفت أربع منهن أنهنّ حاولن الاتصال

بأرواح الموتى لكي يتمكّن من معرفة المستقبل، وأنّهن امتلكن قوىً شيطانية، كالقدرة على التحدّث مع ما يطلقن عليه اسم (قوى الطبيعة). الله هو القوّة الوحيدة والجبروت الأوحد».

«لكن كلّ الأولاد يفعلون أمورًا مماثلة!».

ينهض المحقّق، يتوجّه إلى طاولة مكتبي، ويتناول كتابًا آخر ويروح يقلّب صفحاته. رغم الصداقة التي تربطه بهذه العائلة- وهو السبب الوحيد الذي حثّه على الموافقة على هذا الاجتماع- يريد أن تُسوّى المسألة بحلول يوم الأحد. أحاول طمأنة الثنائي ما أمكن لي بعينيّ، الوسيلة الوحيدة المتاحة لي، ذلك أنني مع رئيسي ولا يجوز لي أن أعبّر عن رأي.

لكنّهما لا يلاحظان، لتركيزهما على كلّ حركةٍ يقوم بها المحقّق.

تقول الوالدة، دون أن تحاول إخفاء يأسها: «أرجوك، ارحم ابنتنا. إن اعترفت صديقاتها، فذلك لمجرّد أنهنّ خضعن...»

يُمسك زوجها بيدها، مقاطعًا كلامها، غير أنّ المحقّق يُكمل ملاحظتها:

«للتعذيب؟ انظري، نعرف بعضنا منذ سنوات، وقد تناقشنا في كلّ أوجه اللاهوت. تعرفين بالتأكيد أنّ الله في داخل كلّ من هؤلاء الفتيات ولن يسمح لهنّ بالمطلق أن يتعذّبن أو أن يعترفن بأي أمرٍ لا يصحّ. أتعتقدين أنّ ألـمًا بسيطًا سيكفي لاستخلاص أسوأ

الخزيّ من أرواحهنّ؟ وافق قداسة البابا إنوسنت الرابع على العذاب بختمه البابوي منذ ما يُجاوز المئتي عام بموجب الوثيقة البابوية، أد إكستيرپاندا. لا نقوم بالتعذيب لأنّه يسرّنا، بل نستعمله كاختبار للإيمان. أولئك الذين لا يملكون ما يعترفون به، سيكونون في حماية الروح القدس وسلوانه».

كان البذخ في ثياب الثنائي في تضارب بارز مع الغرفة المعرّاة من كلّ وسائل الراحة، باستثناء نارٍ أُشعلت لتدفئة المكان قليلاً. يدخل شعاع الشمس عبر شقّ في الحائط الحجري وينعكس على الأحجار الكريمة في خواتم المرأة وعقدها، فتروح تبرق.

يقول المحقّق: «ليست هذه المرة الأولى التي تزور فيها محكمة التفتيش البلدة. في زيارات سابقة، لـم يشتكِ أيّ منكما من الأمر ولا ظننتما أنّ ما نفعله مجحفٌ. على العكس، وخلال العشاء، وافقتما على هذا الفعل، قائلَين إنّها الطريقة الوحيدة لمنع انتشار قوى الشرّ. كلّما طهّرنا البلدة من مهرطقيها، رحّبتما بصنيعنا. رأيتما أننا لسنا طغاةً متوحّشين، بل ساعين إلى الحقّ، الذي لا يكون شفّافًا على الدوام بقدر ما يجدر به أن يكون».

«لكن...».

«لكن حدثت تلك الأمور لأشخاص آخرين، أشخاص اعتبرتموهم جديرين بالتعذيب والمحرقة. وذات مرّة، يقولها مشيرًا بإصبعه إلى الرجل،أنتَ، بذاتك أبلغت عن عائلةٍ كانت من جيرانك. قُلتَ إنّ

الوالدة تُمارس الفنون السوداء وتسبّبت بموت قطيعك. وعندما أثبتنا صحّة ذلك، أُدين أفراد العائلة...»

يتوقّف قليلاً عن الكلام قبل إتمام الجملة، وكأنّه يستسيغ كلماته.

«...وساعدتُكَ بنفسي على شراء أراضي تلك العائلة بالمجان تقريباً. كوفِئت حقّا على تقواك».

يتوجّه إليّ:

«اجلب لي أطروحة مالّوس ماليفيكاروم».

أتوجّه نحو الرفّ خلف طاولة المكتب. إنّه رجل صالح، وعلى اقتناعٍ بأنّه يفعل الصواب. هو لا يقوم بانتقام شخصي، بل يعمل باسم إيمانه. ومع أنّه لم يعترف لي بمشاعره قط، فغالباً ما رأيته يحدّق إلى بعيد، كما لو أنّه يسأل الله لماذا أثقل أكتافه بهذا الحمل.

أناوله المجلّد الثخين المغلّف بالجلد، وعنوانه مُزخرفٌ على الغلاف الأمامي.

«كلّ شيء مكتوب هنا، في مالّوس ماليفيكاروم، بحثٌ مستفيض مفصّل عن المؤامرة العالمية في إرجاع الوثنية، الإيمان بأنّ الطبيعة هي خلاصنا الأوحد، الإيمان الخُرافي بوجود حيواتٍ ماضية، فنّ التنجيم الخسيس والعِلم المزعوم الذي يجحد بأسرار الإيمان. يعلم الشيطان أنّنا نعجز عن العمل منفردين، إنّه يحتاج إلى سَحَرَةٍ وعلماء لإغواء العالم وإفساده.

«فيما الرجال بعيدًا يُقاتلون ويموتون في الحروب لصون الإيمان والملكوت، تروح النسوة يفكّرن بأنّهن وُلدن ليحكمن، والجبناء الذين يخالون أنفسهم عقلاء يلجأون إلى الوسطاء الروحيين والنظريات العلمية بحثًا عمّا يستطيعون إيجاده بسهولة في الإنجيل. يعود لنا أن نمنع حدوث هذا. لم آتِ بهؤلاء الفتيات إلى هنا. أنا منوط فحسب بالتحقّق ما إذا كنّ بريئات، أو إن كان لا بُدّ من خلاصهنّ».

ينهض ويطلب إليّ أن أرافقه.

«عليّ أن أغادر الآن. إن كانت ابنتكما بريئة، ستكون معكما في المنزل قبل بزوغ فجر جديد».

ترمي المرأة بنفسها على الأرض راكعةً عند قدميه.

«أرجوك! لقد ضممتها بين ذراعيك عندما كانت مجرّد طفلة».

يرمي الرجل آخر أوراقه.

«سوف أَهِبُ كلّ أراضيَّ وكل ثروتي إلى الكنيسة، في الحال. أعطني ورقةً وقلمًا وسوف أوقّع. أريد مغادرة هذا المكان مع ابنتي».

يدفع المحقّق بالمرأة، لكنها تظلّ راكعة، تنتحب بلا أمل، وقد دفنت وجهها بين يديها.

«اختيرت الرهبنة الدومينيكانية تعيينًا لمنع حدوث هذا النوع من الأمور. كان من السهل رشوة المحققين الأسبقين، لكن، نحن الدومينيكانيين، لطالما كسبنا العيش من التسوّل وسوف نستمرّ في ذلك. المال لا يدخلنا في التجربة، على العكس، إن عرضك الفاضح هذا يجعل موقف ابنتك أسوأ».

يُمسكني الرجل من كتفيَ.

«كنتَ مثل ابنٍ لنا! عندما مات والداك، آويناك في منزلنا، لئلا يواصل عمّك إساءة معاملتك».

أهمس في أذنه، خشية أن يسمعني المحقّق: «لا تقلق. لا تقلق».

آواني لمجرّد أن أعمل كعبدٍ في أرضه. مع أنّه، هو أيضًا، أشبعني ضربًا وأهانني كلّما أخطأت.

أُخلّص نفسي من قبضته وأتوجّه نحو الباب. يتوجّه المحقّق للمرة الأخيرة إلى الثنائي:

«ذات يوم، سوف تشكرانني على إنقاذ ابنتكما من اللعنة الأبدية».

«جرّدوها من ثيابها».

يجلس المحقّق إلى طاولةٍ واسعةٍ محاطةٍ بسلسلة من الكراسي الفارغة.

يتقدّم حارسان خطوةً نحوها، لكنّ الفتاة ترفع يدها.

«لا أحتاج إليهما، أستطيع القيام بذلك وحدي. لكن، أرجوك، لا تؤذِني».

ببطء، تخلع تنَورتها المخملية المطرّزة بخيط ذهبي، فيها من الأناقة ما يوازي ما ارتدته والدتها. يدّعي الرجال العشرون في الغرفة أنهم لا يلاحظون، لكني أعرف ما الذي يدور في بالهم: أفكارٌ فاسقة، شهوةٌ، جشعٌ، انحراف.

«وبلوزتك».

تخلع بلوزتها التي كانت بلا شكّ بيضاء أمس، وهي الآن متّسخة ومتجعّدة. تبدو حركاتها بطيئة للغاية ومدروسة، لكني أعرف ما الذي تفكّر فيه: «سيُنقذني. سيُوقف هذا الآن». لا أقول شيئًا، لكني أسأل الله بصمت إن كان ما يحصل صوابًا. أشرع بترداد صلاة الأبانا مرارًا وتكرارًا، سائلاً الله أن يُنوّرها ويُنوّر رئيسي. أعرف ما الذي يفكّر فيه، أنّ البلاغ لم يكن متجذرًا في الغيرة والانتقام فحسب، بل في جمال المرأة الخارق. جمالها صورة عن إبليس، أجمل ملائكة السماوات وأكثرها انحرافًا.

الجميع هنا يعرفون والدها، ويعرفون مدى نفوذه ومدى الأذيّة التي قد يُلحقها بكلّ من يلمس ابنته. تنظر إليّ، ولا أشيح بنظري عنها. الآخرون متفرّقون في مدار الغرفة السرّية العظيمة تحت الأرض، مختبئين في الظلال، خشية احتمال أن تخرج من كلّ هذا حيّة وتُبلّغ عنهم جميعًا. يا لجبنهم. لقد استُدعوا إلى هنا خدمةً لقضية عظيمة، للمساعدة في تطهير العالم. لماذا يختبئون من فتاة لا حول لها ولا قوّة؟

«اخلعي ما بقي من ثيابك أيضًا».

لا تزال تُحملق إليّ. ترفع يديها وتفكّ عقدة شريط ردائها التحتاني الأزرق، الذي لم يبقَ سواه لتغطية جسدها الآن. تدعه يهوي أرضًا. عيناها تتوسّلاني أن أُوقف ما يحدث، وأردّ بإيماءة خفيفة من الرأس، مؤشّرًا على طمأنتها ألاّ تقلق، وأنّ كل شيء سيُفضي إلى خير.

يقول لي المحقّق: «ابحث عن علامة الشيطان».

ألتقط شمعة، وأتّجه نحوها. حلمتا نهديها الصغيرين منتصبتان، مع أنني أعجز عن تحديد ما إذا كان ذلك بفعل إحساسها بالبرد أم أنها مهتاجة لا إرادياً لواقع وقوفها أمام كلّ هؤلاء الرجال. بدنها مقشعرّ. يتسرّب بعض الضوء من النوافذ الطويلة بزجاجها السميك، لكّن الضوء المتسرّب يلمع على بشرتها البيضاء التي لا تشوبها علامة. على عانتها- التي غالبًا ما تخيّلتُ نفسي أقبّلها متى

أخذني الإغواء إلى أقصى حدوده- يمكن لي أن أرى علامة الشيطان يحجبها شعر العانة، إلى الجهّة اليُسرى العليا. ينتابني الخوف. لعلّ المحقّق على صواب، فهذا دليل دامغ على أنها أقامت علاقات جنسية مع الشيطان. يمتزج فـيَّ القرف والحزن والغضب.

عليّ أن أتأكّد. أركع إلى جانب جسدها العاري وأبحث عن العلامة من جديد: شامة على شكل هلال.

«هي موجودة منذ أن وُلدتُ».

على غرار والديها، تظنّ أنها تستطيع إجراء حوار وإقناع الجميع ببراءتها. كنتُ أصلّي بكلّ ما فـيَّ منذُ دخلتُ الغرفة، سائلاً الله أن يمنحني القوّة. ستعرف بعض الألم، لكن لا بدّ أن ينتهي كلّ هذا في أقلّ من نصف ساعة. حتى وإن كانت تلك العلامة دليلاً دامغًا على جرائمها، فقد أحببتها قبل أن أكرّس نفسي، جسدًا وروحًا، لخدمة الله، عارفًا أنّ والديها لن يسمحا لابنتهما النبيلة أن تتزوّج فلاّحًا.

وذاك الحبّ لا يزال أقوى من قدرتي على السيطرة عليه. لا أريد أن أراها تتعذّب.

«لم أستحضر الشيطان قط. أنت تعرفني وتعرف صديقاتي أيضًا. أخبره...»، تقول هذا مشيرةً بإصبعها إلى رئيسي، وتُكمل:

«...أخبره بأنني بريئة».

يتكلّم المحقّق عندئذٍ بحنانٍ مُفاجئ، لا يُمكن أن يتأتّى إلاّ من رحمةٍ إلهية.

«أنا، أيضًا، أعرف عائلتك، لكنّ الكنيسة تعي أنّ الشيطان لا يختار أعوانه على أساسٍ من الطبقة الاجتماعية، بل على أساس قدرتهم على الإغواء بالكلمات أو بالجمال الغدّار. قال يسوع إنّ الشرّ يخرج من أفواه البشر. إن كان الشرّ متأصلاً في الداخل، فسوف يُطرد خارجًا بالصراخ وسوف يتحوّل إلى اعتراف نأمله جميعًا. إن كان الشرّ غير موجود في الداخل، إذًا سوف تتمكّنين من تحمّل الألم».

«أُحسّ بالبرد، أتعتقد...»

يُجيبها بلطف وإنّما بحزم: «لا تتكلّمي ما لم تُكلّمي. أوْمئي برأسك إيجابًا فحسب أو هزّيه نفيًا. سبق أن أخبرتك صديقاتك الأربع ما يحدث، أوَلَمْ يفعلن؟».

تومئ إيجابًا.

«اتّخذوا مقاعدكم أيّها السادة».

الآن، على الجبناء أن يُظهروا وجوههم. يتّخذ قضاة، كتّاب عامّون، ونبلاء مقاعدهم حول الطاولة الضخمة التي كان المحقّق يجلس وحيدًا إليها حتى الآن. وحدي أنا، والفتاة، والحارسان نلتزم الوقوف.

حبّذا لو لم يحتشد هذا العدد هنا. لو كنّا نحن الثلاثة فقط، أعرف أنّ قلبه كان ليرقّ. يأتي معظم البلاغات من مجهولي الهوية لأنّ الناس يخشون ما قد يقوله أهل البلدة الباقون، لو لم يُعلن هذا البلاغ، لما كان كلّ هذا يجري على الأرجح. لكنّ القدر قد

قضى بأنّه لا بدّ للأمور أن تتّخذ منحىً آخر، والكنيسة تحتاج إلى الحشد ولا بدّ من اتّباع الإجراء القانوني. ولاتّهام الكنيسة بإقدامها على تصرّفات مُجاوزة للقانون في الماضي، صدر مرسوم يقضي بأنّ كلّ شيء يجب أن يُوثّق في مستندات مدنية ملائمة. وهكذا، في المستقبل، سيعرف الجميع أنّ سلطات الإكليروس تصرّفت بوقار وبدفاعٍ مشروع عن الإيمان. تُصدر الدولة العقوبة، وعلى المحقّقين أن يُشيروا إلى الفريق المذنب فقط.

«لا تخافي. تحدّثتُ لتويّ مع والديك ووعدتهما أن أقوم بكلّ ما في وسعي لأُبرهن أنّك لم تشاركي في الطقوس التي اتُّهمتِ بها. أنّك لم تستحضري أرواح الموتى أو لم تحاولي اكتشاف ما في المستقبل، أنّك لم تحاولي يومًا العودة إلى الماضي، أنّك لا تعبدين الطبيعة، أنّ تلامذة الشيطان لم يلمسوا جسدك قط، رغم العلامة الواضح وجودها».

«تعرف أنّ...»

ينظر الجميع إلى المحقّق مستائين، بوجوههم الظاهرة الآن للسجينة، متوقّعين أن يأتي بردّ مبرّرة صرامته. لكنه يرفع إصبعه إلى شفتيه فقط، سائلاً إيّاها مجدّدًا أن تُبدي الاحترام للمحكمة.

صلواتي يُستجاب لها. أسأل الله أن يُغدق على رئيسي الصبر والرأفة فلا يأمر بوضعها على دولاب التعذيب. لا يمكن لأحد أن يُقاوم دولاب التعذيب، ولا يوضع عليه إلاّ من ثبُت ذنبهم. حتى الآن، لم تستحقّ أيّ من الفتيات الأربع اللاتي مَثَلْنَ أمام المحكمة هذا

الشكل المتطرّف من العقاب، الذي يقوم على تقييد السجين بإطار الدولاب المدجّج بمسامير حادّة وفحمٍ حارّ. عندما يُبرم الدولاب، يحترق جسم السجين ويتمزّق.

«أحضروا السرير».

استُجيبت صلواتي. يردّد أحد الحرّاس الأمر بصوتٍ عالٍ.

تحاول الهروب، رغم معرفتها أنّ هذا مستحيل. تركض في الغرفة من طرفٍ إلى طرف، تلقي بنفسها إزاء الجدران الحجرية، تهرع إلى الباب، لكنّها تُصدّ. رغم البرد والرطوبة، يتصبّب العرق من جسدها ويلمع في انعكاس الضوء الخافت. لا تصرخ كباقي الفتيات، بل تحاول الفرار. يتمكّن الحرّاس أخيرًا من تثبيتها، وفي خضّم الاضطراب، يعمدون إلى لمس نهديْها الصغيريْن وشَعر عانتها.

يصل رجلان آخران، يحملان سريرًا خشبيًا، صُنع في هولندا خصيصًا لمحكمة التفتيش. اليوم، يوصى باستعماله في عددٍ من البلدان. يضعانه على مقربة شديدة من الطاولة ويوثقان به الفتاة المكافحة صمتًا. يُباعدان بين ساقيها ويشبكان كاحليها بالحلقتين المثبَتتين بطرفَي السرير. ثمّ، يبسطان ذراعيها فوق رأسها ويوثقانهما إلى حبال معلّقة برافعة.

أقول: «سوف أشغّل الرافعة».

ينظر المحقّق إليّ. في الحال الاعتيادية، يقوم جنديّ بهذا، لكنّي

أعلم كم يسهل على هؤلاء البرابرة أن يُمزّقوا عضلاتها، وإلى هذا، سبق أن سمح لي بالإمساك بزمام الأمور في المناسبات الأربع السابقة.

«حسنٌ».

أتوجّه نحو السرير وأضع يديّ على قطعة الخشب التالفة الآن بفعل الاستعمال. ينحني الرجال الآخرون. إنّ رؤية هذه الفتاة العارية الموثقة إلى سرير، وساقاها متباعدتان، قد تكون جهنّمية وسماوية في آن. يُغريني الشيطان ويحرّضني. الليلة، سأجلده خارج جسمي ومعه فكرة أنّني الآن أريد أن أكون هنا، أعانقها وأحميها من كلّ هذه العيون والابتسامات الشهوانية.

«اذهب إلى الخلف بإسم يسوع!».

أنادي الشيطان صارخًا، وأنا أضغط على الرافعة بجهلٍ لشدّ جسدها. تكاد لا تئنّ عندما يتقوّس عمودها الفقري إلى أعلى. أُرخي الضغط، ويرتخي عمودها الفقري.

لا أزال أصلّي بلا انقطاع، متوسّلاً رحمة الله. متى عُبرت عتبة الألم، تصبح الروح أقوى. تفقد الرغبات اليومية معناها، ويتطهّر الإنسان. المعاناة وليدة الرغبة، وليس الألم.

صوتي هادئ ومريح.

«أخبرتك صديقاتك عن هذا، أليس كذلك؟ عندما أحرّك هذه الرافعة، ستُشدّ ذراعاك إلى خلف، وسينفكّ كتفاك عن مفصليهما، سيتفتّق عمودك الفقري وجلدكِ سيتمزّق. لا تُجبريني على الذهاب

إلى ذاك الحدّ. اعترفي ببساطة، كما فعلت صديقاتك. سوف يبرّئك رئيسي من خطاياك، سوف تتمكّنين من العودة إلى المنزل ومعك التكفير فحسب، وكلّ شيء سيعود إلى طبيعته. لن تزور محكمة التفتيش البلدة ثانيةً إلاّ بعد فترة».

أختلس النظر إلى جانبي لأتأكّد من أنّ الكاتب يدوّن كلماتي بشكلٍ صحيح. إنّ السجلّ قائم للمستقبل.

تقول: «أعترف. قل لي ما هي خطاياي وسأعترف».

ألمس الرافعة برقّةٍ متناهية، ما يكفي لكي تصرخ ألمًا. أرجوك، لا تدعيني أذهب إلى حدٍ أبعد. ساعديني، أرجوك، واعترفي الآن.

«لا أستطيع أن أقول لكِ ما هي خطاياكِ. حتى وإن كنتُ أعرفها، أنتِ من يجدر بها التصريح عنها أمام المحكمة».

تشرع في قول كلّ ما توقّعنا سماعه، جاعلةً من التعذيب أمرًا غير لازم، لكنّها خطّت عقوبة إعدامها بيدها، وعليّ تفادي ذلك. أشدّ الرافعة أكثر قليلاً لأحاول إسكاتها، لكنّها، رغم الألم، تتابع. تتحدّث عن نذوراتٍ، عن استشعار ما سيحدث مستقبلاً، عن كيف أنّ الطبيعة قد كشفت لها ولأصدقائها كثيراً من الأسرار الطبّية. أروح أُمعن في شدّ الرافعة، يأسًا مني في جعلها تتوقّف، لكنّها تتابع، وكلماتها تتبعثر ما بين صرخات الألم.

يقول المحقّق: «لحظة واحدة. دعونا نسمع ما لديها لتقوله. خفّف الضغط».

ثـمّ، متوجّهًا إلى الرجال الآخرين، يقول:

«كلّنا شهود. تطلب الكنيسة عقاب الموت حرقًا لضحية الشيطان المسكينة هذه».

لا! أريدها أن تلتزم الصمت، لكنّ الكلّ ينظر إليّ.

يقول أحد القضاة: «المحكمة موافقة».

تسمع هذا، وتتيه أبدًا. للمرّة الأولى منذ دخولها الغرفة، تتبدّل عيناها، وتتّخذ نظرةً عازمةً لا يمكن لها أن تأتي إلاّ من الشرير.

«أعترف أنّي ارتكبتُ كلّ الخطايا في العالم. أعترف أنّي حلمتُ برجالٍ يأتون إلى سريري ويُمطرونني بقبل حميمة. أحد هؤلاء الرجال هو أنت، وأعترف، أنّني في أحلامي، أغويتك. أعترف أنّني اجتمعتُ وصديقاتي لاستحضار أرواح الموتى، لأنني أردتُ أن أعرف إن كنتُ سأتزوّج يومًا الرجل الذي لطالما حلمتُ أن يكون إلى جانبي».

تُشير إليّ بحركة من رأسها.

«ذاك الرجل هو أنت. كنت أنتظر إلى حين أصبح أكبر سنًا بقليل، لكي أستدرجك خارج حياة الدير. أعترف أنّني كتبتُ رسائل ويوميّات أحرقتها لاحقًا، لأنها تحدّثت عن الشخص الوحيد، فيما عدا والديّ، الذي أظهر لي العطف والذي أحببته لذلك السبب. ذاك الشخص هو أنت...»

أشدّ الرافعة أكثر. تصرخ وتفقد وعيها. العرق يغطّي جسدها الأبيض. يوشك الحارسان على قذف الماء البارد على وجهها لكي

تستعيد وعيها ويتسنّى لنا أن نستمرّ في استخلاص اعترافات أخرى منها، لكنّ المحقّق يوقفهم.

«لا داعيَ. أعتقد أنّ المحكمة قد سمعت ما يكفي. غطّياها بردائها الداخلي وأعيداها إلى الزنزانة».

يرفعان جسدها الهامد ورداءها الداخلي الأزرق الذي كان أرضًا، ويحملانها بعيدًا. يلتفت المحقّق إلى الرجال عديمي الرحمة بجانبه.

«أيّها السادة، أنتظر الحكم خطيًّا، إلاّ إذا كان لدى أيّ من الموجودين هنا ما يقوله دفاعًا عن المتّهمة. إن وُجد، سوف نُعيد النظر في الاتهام».

يرمقونني جميعًا ببصرهم، بعضهم يأمل ألاّ أقول شيئًا، وبعضهم الآخر أن أنقذها، لأنني، كما قالت بنفسها، أعرفها.

لـمَ كان عليها أن تقول هذه الكلمات هنا؟ لـماذا استحضرت مشاعر صعُب عليّ أشدّ الصعوبة تخطّيها عندما قرّرت أن أخدم الله وأخلّف العالم ورائي؟ لـمَ لم تدعني أدافع عنها عندما أمكن لي أن أنقذ حياتها؟ إنّ تكلّمتُ لصالحها الآن، ستقول البلدة بأكملها، في اليوم التالي، إنني أنقذتها لمجرّد أنها قالت إنّها لطالما أحبّتني. وستهلك سمعتي ومسيرتي المهنيّة إلى الأبد.

«إن رُفع ولو صوت واحد دفاعًا عنها، أنا مستعدّ لأُظهر رأفة كنيستنا المقدّسة بحقّها».

لستُ الوحيد هنا الذي يعرف عائلتها. بعضهم يُدين لها بخدمات، وبعضهم بالمال، وسواهم لا يزالون مندفعين بالحسد. لن يقول أحدٌ ولو كلمة، بل فقط أولئك الذين لا يدينون لهم بشيء.

«هلاّ أعتبر المحاكمة مرفوعة؟».

يبدو المحقّق، رغم أنّه يفوقني معرفةً وتديُّنًا، أنّه يطلب إليّ المساعدة. في النهاية، أخبرتِ الكلّ بالفعل أنّها أحبّتني.

قال قائد المئة ليسوع: « لَكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلامِي». كلمة واحدة فقط ويبرأ غلامي.

لكن شفتيّ تبقيان مطبقتيْن

أعرف أنّ المحقّق يحتقرني، لكنّه لا يُظهر ذلك. يلتفت إلى باقي المجموعة.

«وإذ إنّ الكنيسة ممثّلة بي ههنا، أنا المتواضع المدافع عنها، فإنّها تنتظر التأكيد على عقوبة الإعدام».

يتجمّع الرجال في زاوية، ويسعني أن أسمع الشيطان يصرخ أعلى فأعلى في أذنيّ، محاولاً إرباكي، كما فعل سابقًا ذاك اليوم. لكني لم أترك أيّ علامات دائمة على أجساد الفتيات الأربع الأخريات. رأيتُ بعض الأخوة يشدّون الرافعة إلى أقصى حدودها، لكي يموت السجناء وأعضاؤهم قد تمزّقت بالكامل، والدم يتدفّق من أفواههم، وأجسادهم أطول بثلاثين سنتيمترًا كاملة.

يرجع الرجال بورقةٍ وقعوا عليها مجتمعين. الحكم هو ذاته الذي صدر بحقّ الفتيات الأربع الأخريات: الموت حرقًا.

يشكر المحقّق الجميع ويُغادر من دون أن يوجّه ولو كلمةً إضافيةً إليّ. والرجال الذين يُطبّقون العدالة والقانون يغادرون أيضًا، بعضهم يتناقش في آخر الثرثرات المحلّية، وبعضهم محني الرأس.
أتّجه ناحية الموقد، ألتقط إحدى قطع الفحم الشديدة السخونة وأضعها على جلدي تحت ثوبي. أشتمّ رائحة اللحم المحترق، تحترق يداي وينكمش جسمي ألمًا، لكنّي لا آتي بحركة.

أقول عند انحسار الألم: «ربّي، عسى أن تبقى هذه العلامات على جسمي إلى أبد، لئلاّ أنسى من كُنتُه في هذا اليوم».

إبطال الطاقة بلا جهد

تغنّي امرأة شديدة التبرّج في لباسٍ تقليدي أغنيات محلية، وهي بدينة فعلاً بشكلٍ فاضح. آملُ أن يكون الكلّ مستمتعين بوقتهم؛ إنّها حفلة رائعة، وأشعر بأنني أغمر سعادةً مع اجتياز كلّ كيلومتر من السكّة الحديد.

مرّت لحظة عصر اليوم عندما غرق الشخص الذي كُنته من قبل، المنطلق في هذه الرحلة، في اكتئاب، لكنه سرعان ما تعافى. لمَ الشعور بالذنب ما دامت هلال قد غفرت لي؟ العودة إلى الماضي وفتح جراحٍ قديمة أمر صعب وغير مجدٍ تعيينًا. التبرير الوحيد لها هو أنّ المعرفة المُكتسَبة منها قد تساعدني على فهم الحاضر فهمًا أفضل.

منذُ حصول جلسة التوقيع الأخيرة، كنت أحاول إيجاد الكلمات المناسبة لكي أُرشد هلال إلى الحقيقة. مشكلة الكلمات أنّها تمدّنا بالحسّ الوهمي بأننا نُفهَم ونُفهِم. لكن، عندما نستدير ونقف وجهًا لوجه أمام قدرنا، نجد أنّ الكلمات لا تكفي. أعرف كثيراً من الناس الفصيحي اللسان، لكنّهم عاجزون فعلاً عن تحويل فحوى عظاتهم إلى فعل. ثمة فرق بين أن تصف شيئًا، وأن تختبره. أدركتُ منذ زمنٍ بعيد أنّ على المحارب الساعي إلى تحقيق حلمه أن يستوحي من أفعاله وليس من تلك التي يتخيّلها. لا جدوى من أن أخبر هلال بما

عانيناه سويًا، لأنّ نوع الكلمات التي سيكون عليّ استخدامها لوصف الأمر، ستكون عقيمة حتى قبل أن تغادر شفتيّ.

إن اختبار ما حدث في تلك الزنزانة تحت الأرض، والتعذيب والموت حرقًا، لن تساعدها، بل على العكس، فقد تأتي عليها بأفظع الأذى. لا يزال أمامنا بضعة أيام، وسوف أحاول أن أجد الطريقة الأفضل لمساعدتها في فهم علاقتنا، من دون أن تمرّ بالضرورة بكلّ تلك المعاناة ثانيةً.

لي أن أختار إبقاءها في جهالة وألاّ أقول شيئًا، لكني أحسّ، ولسببٍ لاعقلاني أعجز عن تحديده، بأنّ الحقيقة ستعتقها أيضًا من الأمور الكثيرة التي تختبرها من جرّاء هذا التجسُّد. لم تكن مصادفةً أنني قرّرت السفر، عندما لمستُ أنّ حياتي لم تعد تجري كالنهر الدافق إلى البحر. فعلتُ ذلك لأنّ كلّ شيء من حولي كان يتهدّدني بالركود. ولم تكن مصادفةً أن قالت إنّ شعورها مماثل.

لذلك، لعلّ الله يُعينني ويُظهر لي طريقة ما لإخبارها بالحقيقة.

كلّ يوم، يختبر كلٌّ من في المقطورة مرحلةً جديدةً من حياته. تبدو محرّرتي أكثر إنسانية، وأقلّ دفاعيّة. وياو، الذي يقف إلى جانبي الآن، يُدخّن سيجارة ويُراقب الناس يرقصون، هو بلا شكّ مسرور لأنّه أنعش معرفته بإظهار أمورٍ لي كانت قد غابت عن بالي. قضينا الصباح مجدّدًا في ممارسة الأيكيدو في صالة تمارين رياضية تمكّن من إيجادها هنا في إركوتسك، وبعدها قال لي:

«ينبغي لنا أن نكون متهيّئين على الدوام لهجمات الخصم، وأن نقتدر على النظر إلى عينيّ الموت، لعل الموت يُنير دربنا».

لدى أُوشيبا الكثير من الأقوال التي تهدف إلى إرشاد خطى أولئك الذين يكرّسون أنفسهم للدرب إلى السلام. لكن القول الذي اختاره ياو على صلة مباشرة بما مررتُ وهلال به الليلة الماضية، فيما غفتْ بين ذراعيّ، ذلك أنّ رؤيتي لموتها قد أنارت دربي.

يبدو أنّ لياو وسيلةً ما في الغوص في عالمٍ موازٍ ومواكبة ما يحدث معي. إنّه من تحدّثتُ إليه أكثر من سواه (كانت لي تجارب استثنائية مع هلال، لكنها تُقلّ من كلامها أكثر فأكثر)، ومع ذلك، لا يعني القول إنني أعرفه حقّ المعرفة. لستُ واثقًا من أنّ قولي له: إن أحبّاءنا لا يرحلون، بل يعبرون إلى بعدٍ آخر فحسب، قد ساعده. لا يزال يبدو مركّزًا أفكاره على زوجته، والشيء الوحيد الذي أستطيع فعله الآن هو أن أعرّفه إلى وسيطٍ روحيٍّ ممتازٍ في لندن. هناك سيجد كلّ الإجابات التي يحتاج إليها وكلّ الإشارات التي ستؤكّد ما قلته له عن أبديّة الزمن.

قد أكون اتخّذتُ قرارًا عفويًا بعبور آسيا على متن قطار، لكنّي واثق من أنّ كلاً منا لديه الآن سببه الخاص للتواجد هنا في إركوتسك. تحدث مثل هذه الأمور فقط عندما يكون كلّ المعنيين قد التقوا في مكانٍ ما في الماضي، ويسافرون معًا نحو الحريّة.

ترقص هلال مع شاب فتيّ بعمرها. كانت قد أسرفت قليلاً في

الشرب وهي في مزاج متقد. أتت إليّ غير مرّة الليلة لتقول لي كم إنها تأسف على عدم جلبها الكمان. إنّها لخيبة فعلاً. يستحقّ الناس هنا أن يختبروا الفتنة والسحر اللذين تلقيهما عازفة الكمان الأولى هذه، العظيمة، الآتية من أكثر المعاهد العليا للموسيقا في روسيا وقارًا.

* * * *

تترجّل المغنّية البدينة عن المنصّة، تواصل الفرقة العزف، ويشرع الحضور بالقفز صعودًا فنزولاً، صارخين: «كلاشنيكوف! كلاشنيكوف!». ولو لم تكن موسيقا غوران بريغوفيتش شديدة الشيوع، لاقتنع أي مارّ خارجًا بأنّ هذه حفلة إرهابيين.

هلال وصديقها يضمّان واحدهما الآخر متقاربين جدًا، على بعد خطوة من تبادل قبلة. لا شكّ أنّ رفاقي في السفر قلقون حيال استيائي من الأمر. لكنّي أعتقده رائعًا. حبّذا لو تلتقي أعزب يمكن له أن يُسعدها ولا يقف في طريق مسيرتها المهنية اللامعة، يمكن له أن يأخذها بين ذراعيه عند مغيب الشمس ويُشعل النار المقدّسة متى احتاجت إلى العون. هي تستحقّ ذلك.

يقول ياو فيما نراقب الناس يرقصون: «أستطيع معالجة تلك العلامات على جسمك. لدى الصينيين علاج لها».

أعرف أنّ هذا مستحيل.

«آه، هي ليست على هذا القدر من السوء. إنها تظهر وتختفي في فترات متباعدة لا متوقّعة، لكن لا علاج للإكزيما الدائرية».

«في الثقافة الصينية، نقول إنها تحدث فقط للجنود الذين احترقوا في معركة ما في تجسُّد سابق».

أبتسم. ينظر إليّ ياو ويردّ الابتسامة. لا أعرف إن كان مدركاً لما يقول. تعود العلامات إلى ذلك اليوم في الزنزانة تحت الأرض. أذكر رؤيتي للدمغة ذاتها على يد الكاتب الفرنسي الذي كُنته في حياةٍ ماضيةٍ أخرى. هي تُسمّى الإكزيما الدائرية لأنّ للدمغات شكل وحجم العملة الرومانية النقدية «النومولس»، أو بالأحرى علامة احتراق خلّفتها قطعة فحم شديدة السخونة.

تتوقّف الموسيقا. إنّه وقت ذهابنا إلى العشاء. أتوجّه نحو هلال وأدعو صديقها إلى الانضمام إلينا. لا بُدّ أنّه أحد القرّاء الذين اختيروا ضيوفًا لليلة. تنظر إليّ هلال متفاجئة.

«لكن سبق لكَ أن دعوتَ آخرين».

أقول: «هناك دومًا متّسع للجميع».

«ليس دومًا. ليس كلّ ما في الحياة قطارًا طويلاً بتذاكر متوافرة للجميع».

لا يفهم الشاب هذه الملاحظة فعلاً، لكن من الواضح أنّه يستشعر حدوث أمرٍ غريب. يقول إنه قطع وعدًا بتناول العشاء مع عائلته.

أقرّر أن أحظى ببعض التسلية.

أسأل: «هل قرأتَ ماياكوفسكي؟».

«لا. لم تعد قراءة أعماله إجبارية في المدارس. كان شاعرًا وطنيًا إلى حدّ ما».

هو على حقّ، لكنّي أحببتُ أعمال ماياكوفسكي عندما كنت بعمره ولا أعرف الكثير عن حياته.

يقترب ناشراي، وبهما خشية أن أكون في صدد إثارة شجار بدافع الغيرة، لكن الأمور، كما هي الحال غالبًا في الحياة، ليست كما تبدو عليه.

أقول قاصداً الإغاظة: «وقع في غرام زوجة ناشر أعماله، وتعمل راقصة. ربطتهما علاقة غرامية متأجّجة وساعد ذلك على إضفاء مزيد من الإنسانية على شِعره وجعله أقلّ سياسيّة. ومع أنّه دومًا ما بدّل الأسماء في قصائده، عرف الناشر تمام المعرفة أنّ ماياكوفسكي كان يكتب عن زوجته، لكنّه استمرّ في نشر كتبه بكل الأحوال. أحبّت زوجها وكذلك أحبّت ماياكوفسكي. وكان الحلّ الذي وجده الثلاثة هو أن يعيشوا معًا، وكانوا سعداء جدًا».

تقول زوجة ناشري ممازحة: «أنا أحبّ زوجي وكذلك أحبّك أنت! لـمَ لا تنتقل إلى العيش في روسيا؟».

تصل الرسالة للشاب فيسأل: «هل هي حبيبتك؟».

«أنا واقع في حبّها منذ خمسمئة سنة على الأقلّ، لكنّ الإجابة هي: لا. هي حرّة حريّة طير. إنّها امرأة شابة بمسيرة مهنيّة لامعة أمامها، لكنّها لم تلتقِ بعد شخصًا يُعاملها بالحبّ والاحترام اللذين تستحقّهما».

تقول هلال: «يا للسخافة. أتعتقد فعلا أنني أحتاج إلى أحدهم ليجد لي زوجًا؟».

يشرح الشاب مجدّدًا أنّ أهل بيته يتوقّعون حضوره إلى العشاء، ثمّ يشكرنا ويرحل. ينضمّ إلينا القرّاء الآخرون وننطلق مشيًا إلى المطعم.

يقول ياو فيما نعبر الشارع: «سامحني لقول ما سأقول، لكنّك أخطأتَ التصرّف فعلاً من توّك تجاه هلال والشاب، وتجاه ذاتك. تجاه هلال، لأنّك أخفقت في إظهار الاحترام اللازم للحبّ الذي تكنّه لك. وتجاه الشاب لأنّه أحد قرّائك وشعر أنّه كان يُستغلّ. وتجاه ذاتك، لأنّ كبرياءك حرّكتك وأردت أن تُظهر له أنّك أهمّ. لكان الأمر جديرًا بالسماح لو أنّك تصرّفت بداعي الغيرة، لكنّك لم تفعل. كنت ببساطة تُظهر لأصدقائك ولي أنّك لم تبالِ، وهذا غير صحيح».

أومئ برأسي موافقًا. لا يأتي النمو الروحاني دومًا برفقة الحكمة.

يُتابع ياو: «وثمة أمرٌ آخر. كانت قراءة ماياكوفسكي إجبارية في المدارس، وتلك العلاقة الثلاثية لم تعرف نهاية سعيدة. أطلق ماياكوفسكي رصاصة على رأسه عندما كان في السابعة والثلاثين من عمره».

* * * *

الساعة الآن تسبق توقيت موسكو بخمس ساعات. الناس هناك

على أهبَة الانتهاء من تناول الغداء ونحن نشرع في تناول عشائنا في إركوتسك. للمدينة سحرها، لكنّ الجو بيننا أكثر توتّرًا ممّا كان عليه في القطار. ربما أمسينا متعوّدين عالمنا الصغير حول المائدة، نسافر في اتجاه هدف محدّد، وكلّ توقّف يعني الانحراف عن مسار دربنا المختارة.

هلال تحديدًا في مزاج معكّر بعد ما حدث في الحفلة. ناشري يتجادل بغضب مع أحدهم على هاتفه الجوّال، مع أنّ ياو يطمئنني أنّه مجرّد نقاش في مشكلات بشأن التوزيع. يبدو القرّاء الثلاثة المدعوون أكثر حياءً من المعتاد.

نطلب بعض المشروب. يُحذّرنا أحد القرّاء، لأنّ مزيجًا من الودكا المنغولية والسيبيرية تقدّم لنا، وسوف ندفع الثمن في اليوم التالي إن أسرفنا. لكننا جميعاً في حاجة إلى كأس مشروب لتخفيف التوتّر. نحتسي كأسًا، فثانية، حتى قبل وصول الطعام، نكون قد طلبنا زجاجة أخرى. في النهاية، يقرّر القارئ الذي حذّرنا من الـڤودكا أنّه لا يودّ أن يكون الصاحي الوحيد إلى الطاولة، فيتجرّع ثلاث كؤوس، واحدة تلو واحدة، فيما نصفّق له. يبتهج الكلّ باستثناء هلال التي تبقى عازمةً على تجهُّمها رغم تناولها من المشروب بقدر ما تناولنا كلّنا.

«هذه المدينة مكانٌ مروّع»، يقولها القارئ الذي كان قد امتنع

عن شرب الفودكا حتى حلول الدقيقتين الماضيتين والذي وشح الاحمرار عينيه. يتابع: «لقد رأيتم الشارع خارج المطعم».

كنت قد لاحظتُ صفًا من المنازل الفاخرة المبنيّة من خشب، وهي نادرة هذه الأيام. صعقني ذلك وكأنني كنتُ في متحف للهندسة المعمارية في الهواء الطلق.

«لا أقصد المنازل، بل الشارع».

صحيح، لم يكن الرصيف أفضل ما رأيت، ويمكن لك أن تشتمّ رائحة المجارير هنا وهناك.

يتابع: «كما ترون، تتحكّم المافيا بهذا الجزء من المدينة. تريد أن تبتاع المنطقة بأكملها وأن تبني فيها مشروع إسكانٍ آخر من مشاريعها التطويرية الشنيعة. رفض المقيمون حتّى الآن بيع أرضهم وبيوتهم، ولذا لا تسمح المافيا بإجراء أي تحسينات في المنطقة. هذه المدينة قائمة منذ أربعمئة سنة، استقبلت تجّارًا من الصين بكل سرور ومودّة، وكسبت احترام تجّار الألماس والذهب والجلود، لكن الآن، تحاول المافيا أن تنتقل إلى هنا، وتضع حدّاً لكلّ ذلك، مع أنّ الحكومة تجابهها...».

«المافيا» كلمة عالمية. لا يزال ناشري منشغلاً باتصاله الهاتفي الطويل إلى حدّ السأم، ومحرّرتي تتذمّر بشأن قائمة الطعام، وهلال تدّعي أنّها على كوكبٍ آخر. في حين ألاحظ وياو فجأة أنّ مجموعةً من الرجال إلى الطاولة المجاورة، قد بدأت تُبدي اهتمامًا شديدًا بمحادثتنا.

جنونُ ارتيابٍ تامٌّ يحلّ.

يستمرّ القارئ في الشُرب والتذمّر. يوافقه صديقاه الرأي في كلّ ما يقول. ينوحون على الحكومة، ووضع الطرقات، وحالة المطار. هذه هي كلّ الأمور التي يجدر بنا الكلام عنها فيما يخصّ مدننا، غير أنّه ههنا، كلّ تذمّر يشتمل على كلمة مافيا. أحاول تبديل الموضوع وأسأل عن الشامان المحلّيين، الأمر الذي يروق لياو، الذي يرى أنّه رغم عدم ردّي بالموافقة أو النفي، فإنّ طلبه لم يغب عنّي. لكن، يشرع الشبّان في الكلام عن «الشامان المافيوزيين» وعن الدليليْن السياحييْن المافيوزييْن. وصلت زجاجة ثالثة من الـڤودكا المنغولية-السيبيرية، والجميع الآن يتناقشون بحماسة شديدة في أمور السياسة-باللغة الإنجليزية - لإفهامي أو لعدم إفهام الرجال إلى الطاولة الأخرى. يُنهي ناشري اتصاله الهاتفي أخيرًا وينضمّ إلى النقاش، تمامًا كمحرّرتي التي تشارك بالقدر نفسه من الاستمتاع، في حين تتجرّع هلال الـڤودكا كأسًا تلو أخرى. وحده ياو يظلّ صاحيًا تمامًا، ومن الواضح أنّه يحدّق إلى البعيد، محاولاً إخفاء انزعاجه. أتوقّف عن الشرب عند الكأس الثالثة ولا أنوي تناول مزيد.

وما بدا وكأنّه جنون ارتياب يتحوّل إلى حقيقة. ينهض أحد رجال الطاولة الأخرى، ويتّجه ناحيتنا.

لا يتفوّه بكلمة. ينظر وحسب إلى الشبّان الذين دعوناهم إلى

العشاء، وتتوقف المحادثة. يبدو الجميع متفاجئين لرؤيته. يعمد ناشري، الذي تخدّر بعض الشيء بفعل الـفودكا ومشكلات التوزيع في موسكو، إلى طرح سؤالٍ بالروسيّة.

يجيب الغريب: «لا، لستُ والده، لكني لا أدري إنْ كان راشدًا ليحتسي المشروب بتلك الطريقة ويقول أمورًا خاطئة تمامًا».

لغته الإنجليزية مُتقنة، وينطق بلهجة تحسبها مطعمّة بلهجة مَنْ دَرَسَ في إحدى أكثر الجامعات كلفة في إنجلترا. صوته بارد ومعتدل، ويخلو من أي أثرٍ للانفعال أو العدائية.

وحده المخبول يتهدّد ويتوعّد، ووحده المخبول الآخر من يشعر بأنّه مهدّد. لكن عندما يستخدم أحدهم نبرة الصوت تلك، يتهجّأ الخطر في الواقع، لأنّ المُرسِل والمُرسَل إليه والجمل الفعلية، ستتحوّل، إنْ اقتضى الأمر، إلى أفعال.

يقول: «لقد اخترتم المطعم الخطأ. الطعام هنا فظيع والخدمة أفظع. ربـمّا حرّي بكم البحث عن مكانٍ أفضل تأكلون فيه. سأسدّد الفاتورة».

الطعام فظيع فعلاً، والواضح أنّ المشروب على درجة السوء التي حُذّرنا منها، والخدمة مروّعة. لكنّ الرجل غير مهتمّ بصحّتنا وحُسن حالنا: إننا نُطرد.

يقول القارئ الشاب: «هلمّوا بنا».

قبل أن نتمكّن من أن نأتي بحركة، يكون وصديقاه قد

اختفوا. يبدو الرجل راضيًا ويدير ظهره عائدًا إلى طاولته. لجزءٍ من الثانية، يزول التوتّر.

«حسنٌ، إنني مستمتع بالطعام فعلاً، ولا أنوي الذهاب إلى مطعمٍ آخر».

تكلّم ياو بصوت خلا أيضًا من الانفعال أو التهديد. لم يكن هناك من داعٍ لأن يقول شيئًا؛ النزاع قد انتهى؛ وقرّائي كانوا جذر المشكلة. أمكن لنا ببساطة أن نُنهي وجبتنا بسلام. يستدير الرجل ليواجهه. يلتقط أحد زملائه هاتفه الجوّال ويخرج. ويخيّم الصمت على المطعم.

يتراشق ياو والغريب النظرات.

«قد يُصيبكَ الطعام هنا بتسمّمٍ ويقتلك على الفور تقريبًا».

يظلّ ياو جالسًا.

«بحسب الإحصاءات، في الدقائق الثلاث التي كنّا نتكلّم فيها، مات ثلاثمئة وعشرون شخصًا في العالم، ووُلِد ستمئة وخمسون آخرون. هذه هي حال الحياة. لا أعرف ما عدد الذين ماتوا من التسمّم بالطعام، لكن لا بدّ أن بعضهم قضوا بسببه. مات آخرون بعد مرضٍ طويل، وعانى سواهم من حادثٍ، وعلى الأرجح تعرّضت نسبة معيّنة إلى الموت بطلقة رصاص، في حين مات بعض النساء المسكينات عند التوليد، والولد الذي لم يولد بات جزءًا من إحصاءات الولادات. وحدهم الأحياء يموتون».

عاد الرجل الذي خرج من المطعم بهاتفه الجوّال، وثابر الرجل الواقف إلى جانب طاولتنا على جماده. لا يتكلّم أحدٌ في المطعم، لما بدا وكأنّه أبدية. أخيرًا، يتكلّم الغريب:

«مرّت دقيقة أخرى. ولا بدّ أنّ مئة شخص أو نحو ذلك قد ماتوا، ومئتين أو نحو ذلك قد وُلِدوا».

«بالضبط».

يظهر رجلان آخران عند باب المطعم ويسيران باتجاه طاولتنا. يراهما الغريب ويُشير عليهما بهزّة من رأسه، بوجوب مغادرتهما.

«قد يكون الطعام هنا فظيعًا والخدمة مروّعة، لكن إنْ كان هذا المطعم خياركم، فلا يسعني فعل شيء حياله. بوناپـيتي».

«شكرًا لك. لكننا سنقبل بكل سرور عرضك في تسديد الفاتورة».

«بالطبع»، يقولها متوجّهًا إلى ياو، كما لو أنّ لا أحد سواه موجود.

يضع يده في جيبه، ونتخيّل جميعًا أنه سيسحب منها مسدسًا، لكن بدلاً من ذلك، يُبرز بطاقة عمل تعريفيّة آمنة تمامًا.

«اتصل بي إنْ احتجب يومًا إلى عمل أو سئمت ما تفعله الآن. شركتنا العقارية تملك فرعًا ضخمًا هنا في روسيا ونحن في حاجة إلى أشخاصٍ مثلك، أشخاص يفهمون أنّ الموت مجرّد إحصاء».

يمدّ ببطاقته إلى ياو، يتصافحان، ويعود إلى طاولته. تدريجًا، تنبض الحياة في المطعم من جديد، ويحلّ الكلام محلّ الصمت، ونحدّق مذهولين إلى ياو، بطلنا، الرجل الذي هزم الخصم من دون

إطلاق ولو رصاصة. ابتهجت هلال أيضًا وهي تحاول الآن مواكبة حديث سخيف حول العصافير المحشوّة وجَودة الـڤودكا المنغولية-السيبيرية، الذي استرعى اهتمام الجميع فجأة على ما يبدو. إن موجة الأدرينالين الذي أحدثه الخوف، جعلتنا نصحوا جميعًا.

لا يجب أن أدع هذه الفرصة تفوتني. سوف أسأل ياو لاحقًا ما الذي جعله واثقًا إلى هذه الدرجة من نفسه. والآن أقول:

«أتعلم، أنا معجبٌ جدًا بالإيمان الديني لدى الشعب الروسي. لقد أمضت الشيوعية سبعين سنة وهي تقول لهم: الدين أفيون الشعب، ولكن بلا جدوى».

تقول محرّرتي: «من الواضح أنّ ماركس لم يعرف شيئًا عن عجائب الأفيون» فيضحك الجميع.

أتابع:

«حدث الأمر ذاته مع الكنيسة التي إليها أنتمي. قتلنا باسم الله، عذّبنا باسم يسوع، قرّرنا أن النساء كنّ تهديدًا للمجتمع وبذلك قمعنا كلّ مظاهر البراعة الأنثوية، مارسنا الرِّبا، ارتكبنا جرائم قتل بحقّ الأبرياء، وقطعنا عهودًا مع الشيطان. ومع ذلك، بعد ألفي عام، لا نزال هنا».

تقول هلال وقد علقت في الطُعم: «أكره الكنائس. أكثر اللحظات تعاسةً لي في هذه الرحلة بأكملها كانت عندما أجبرتني على الذهاب برفقتك إلى الكنيسة في نوڤوسيبيرسك».

«تخيّلي أنّك تؤمنين بالحيوات الماضية وأنّك، في واحدة من حيواتك أحرقتك محكمة التفتيش على العمود باسم الإيمان الذي كان يحاول الـڤـاتيكان فرضه. فهل ستكرهين الكنيسة أكثر؟».

تكاد لا تتردّد قبل أن تجيب.

«لا. ستظلّ مسألة لا مبالاة بالنسبة إليّ. لـم يكره ياو الرجل الذي جاء إلى طاولتنا، بل هيّأ نفسه ببساطة للجدال بشأن مبدأ».

«لكن ماذا لو كنتِ بريئة؟».

يُقاطعنا ناشري. لعلّه أحضر كتابًا حول هذا الموضوع أيضًا...

«هذا يُذكّرني بجيوردانو برونو. احترمته الكنيسة كرجلٍ واسع المعرفة، لكنّه أُحرق حيًا في وسط روما بذاتها. خلال المحاكمة، قال أمرًا بـما معناه: لا أخشى النار، بل أنتم من يخشى حكمه. يقوم تـمثال له الآن في الساحة التي شهدت على جريمة قتله من حلفائه المزعومين. انتصر لأنّ الحكم عليه جاء من بشرٍ آخرين، وليس من يسوع».

«أتحاول أن تبرّر ظلمًا وجريمة؟».

«إطلاقًا. اختفى مرتكبو الجريمة عن وجه الأرض، لكنّ جيوردانو برونو يواصل تأثيره على العالم بأفكاره. لقد كوفئ على شجاعته. في النهاية، حياة بلا سبب، هي حياة بلا نتيجة».

يبدو وكأنّ المحادثة كانت تتّخذ المنحى الذي أردته لها.

أقول وقد أخذتُ هلال بعينيّ: «لو كنتِ جيوردانو برونو، هلاّ أمكن لك أن تغفري لمن جَلَدَكِ؟».

«إلامَ ترمي؟».

«أنتمي إلى ديانة ارتكبت الفظائع في الماضي. هذا ما أرمي إليه، لأنّه، رغم كلّ شيء، لا أزال أحمل حبًّا ليسوع، الذي يقوى على كراهية من أعلنوا أنفسهم خلفاء له. ولا أزال أؤمن بتحوّل القربان والنبيذ إلى دم المسيح وجسده».

«هذه مشكلتك، لكني أُريد البقاء بعيدة ما أمكن عن الكنائس والكهنة والقربان المقدّس. حسبي الموسيقا والتأمّل الصامت في الطبيعة. لكن، هل من علاقةٍ بين ما تقوله وما رأيتَه عندما...»، تتوقّف عن الكلام للحظة، مُعيدة النظر في كلماتها. وتتابع: «عندما قُلتَ إنّك ستُمارس تمرينًا يقوم على حلقة النور؟».

لم تقل إننّا كنّا في السرير معًا. فمع كلّ ما لها من شخصيّةٍ قويةٍ وطبعٍ متّقد، هي تحاول حمايتي.

«لا أدري. كما قلتُ في القطار، كلّ ما حدث في الماضي أو سيحدث في المستقبل، يحدث أيضًا في الحاضر. ربمّا التقينا لأنني كنتُ جلاّدكِ، وكنتِ ضحيّتي وقد آن الأوان لأسألك المغفرة».

يضحك الجميع بمن فيهم أنا.

«حسنٌ إذًا، كن ألطف معي، كن أكثر تنبُّهًا لي. قل لي الآن، أمام الجميع، تلك الجملة من كلمتين التي أتوق لسماعها».

أعرف أنّها تريدني أن أقول: «أنا أحبّكِ».

«سوف أقول ثلاثَ جُمَلٍ من كلمتين: الأولى، أنتِ محميّة. الثانية، لا تقلقي. الثالثة: أنا أعبدكِ».

«حسنٌ إذًا، لديّ أمرٌ أضيفه. وحده القادر على قول: أنا أحبّك، يقدر على قول: أنا أغفر لك».

يوافق الجميع مرحّبين. ونرجع إلى احتساء الفودكا المنغولية-السيبيرية، والتكلّم عن الحب، والاضطهاد، والجرائم المرتكَبة باسم الحقيقة، وعن الطعام في المطعم. لن تبلغ المحادثة حدًا أبعد الليلة. هي لا تفهم ما الذي أقصده، لكنّ الخطوة الأولى والأصعب قد اتُّخذت.

* * * *

فيما نغادر، أسأل ياو لمَ قرّر أن يسلك تلك الطريق، ويعرّضنا جميعاً للخطر على أثره.

«لكن لم يحدث شيء، أليس كذلك؟».

«لا، لكن أمكن حدوثه. أشباهه من الناس ليسوا متعوّدين على معاملة الآخرين لهم بازدراء.

«كنتُ أتعرّض دوماً للطرد من الأماكن عندما كنتُ أصغر سنًا، وقطعتُ عهداً على نفسي بألاّ أدع ذلك يتكرّر ولو لمرةٍ متى أصبحت راشدًا. إلى هذا، لم أعامله بازدراء، واجهته ببساطة

بالطريقة التي أراد أن يُواجه بها. العينان لا تكذبان، وهو عرف أنني لم أكن أضلّله.

«ومع ذلك تحدّيته بالفعل. نحن في مدينة صغيرة، وأمكن له أن يشعر بأنّك كنتَ تُشكّك في سلطته».

«عندما غادرنا نوفوسيبيرسك، قلتَ شيئًا عن ذاك الألِف. منذ بضعة أيام، أدركتُ أنّ لدى الصينيين مرادفًا له أيضًا: qi (تشي). كلانا كان يقف في نقطة الطاقة ذاتها. لا أريد أن أتفلسف بشأن ما كان ليحدث، لكنّ كل متعوّد على الخطر يعلم أنّه، في أي لحظة من حياته، قد يواجه خصمًا. لا يواجه عدوًا بل خصمًا. عندما يكون الخصم واثقًا من قوّته، كما كان الرجل الغريب، عليك أن تواجهه أو أن تدع إخفاقك في استعمال قوّتك يُقوّضك. أن نعرف كيف نقدّر خصومنا ونُكرّمهم، بعيد كلّ البعد عمّا يفعله المتملّقون أو الضعفاء أو الخوَنة».

«لكنّك تعرف أنّه كان...».

«لا يهمّ ما كانه، ما هَمّ كانت كيفيّة توجيهه لطاقته. راق لي أسلوبه القتالي، وراق له أسلوبي. هذا كلّ ما في الأمر».

الوردة الذهبيّة

ينتابني وجع رأسٍ رهيب بعد شرب كلّ ذاك القدر من الفودكا المنغولية-السيبيرية، ويظهر أنّ أقراص الدواء كلّها والجرعات السائلة التي تناولتها لا تُعطي مفعولاً. إنّه يومٌ مشرق، وخالٍ من الغيم، لكن ثمّة ريح قارسة. قد تكون أواخر الربيع، لكنّ الجليد لا يزال مختلطًا بالحصى على الشاطئ. ورغم طبقات الثياب المتعدّدة التي ارتديت، لا يزال البرد فوق الاحتمال.

لكنّ الفكرة الوحيدة التي ترد إلى خاطري هي: إلهي، أنا في النعيم!

أمامي تمتدّ بحيرة شاسعة أعجز عن رؤية الضفّة الأبعد منها. في قبالة الجبال التي يعلوها الثلج، قارب صيد ينطلق عبر مياه البحيرة الشفّافة ومن المفترض عودته هذا المساء. كلّ ما أريده هو أن أكون هنا، حاضرًا بكلّيتي، لأنني لا أعرف إن كنتُ سأرجع يومًا. آخذ عدّة أنفاس عميقة، محاولاً أن أتشرّب جمال كلّ هذا.

«إنّه أحد أجمل الأشياء التي رأيتها يومًا».

يُقرّر ياو أن يزوّدني ببعض الوقائع، وقد شجّعته ملاحظتي هذه. يشرح أنّ بحيرة بايكال، التي تُسمّى البحر الشمالي في النصوص الصينية القديمة، تحوي تقريبًا عشرين في المئة من المياه العذبة

السطحيّة في العالم وعمرها أكثر من خمسة وعشرين مليون سنة. للأسف، لا يثير أيٌّ من هذا اهتمامي.

«لا تشتّتني. أُريد أن أتشرّب هذا المنظر الطبيعي بأكمله إلى داخل روحي».

«إنّها كبيرة جدًا. لـمَ لا تغطس فيها مباشرة وتدمج روحك بروح البحيرة؟».

بعبارة أخرى، يقصد أن أتعرّض لخطر الإصابة بصدمةٍ حراريةٍ والموت في سيبيريا من انخفاض درجة حرارة جسمي إلى درجة غير طبيعية. ها قد تمكّن أخيرًا من شدّ انتباهي. رأسي ثقيل، والريح لا تُحتمل، ونُقرّر أن نذهب توًا إلى المكان حيث سنمضي فيه الليلة.

«شكرًا لمجيئك. لن تندم على ذلك».

نذهب إلى نُزلٍ في قرية صغيرة ذات طرقاتٍ وسخة ومنازل كتلك التي رأيتها في إركوتسك. ثمّة بئر إلى جانب الباب، وفتاة صغيرة واقفة إلى جانب البئر، تحاول سحب دلوٍ من الماء. تذهب هلال لمساعدتها، لكن بدلاً من شدّ الحبل، تضع الفتاة في موضعٍ خطيرٍ قرب الحافة.

أقول لها: «بحسب الآي تشنغ *I Ching*، تستطيعين تحريك بلدة، لكنّك تعجزين عن تحريك بئر. أقول إنّك تستطيعين تحريك الدلو، لكن ليس الفتاة. حذارِ».

تأتي والدة الفتاة وتوبّخ هلال بعنف. أتركهما على هذه الحال

وأتوجّه إلى غرفتي. كان ياو شديد المعارضة لمجيء هلال معنا. فلا يُسمح للنساء دخول المكان حيث سنلتقي بالشامان. قلتُ له إنني لم أكن مهتمًا تحديدًا بالزيارة. أعرف التقليد، الذي يمكن إيجاده أينما يكن، وقد التقيتُ «شامان» كثيرين في بلدي. وافقتُ فقط لأنّ ياو ساعدني وعلّمني الكثير من الأمور خلال الرحلة.

قلتُ فيما كنّا لا نزال في إركوتسك: «أحتاج إلى قضاء كلّ دقيقة ممكنة مع هلال. أعرف ما الذي أفعله. أنا على الدرب عائد إلى مملكتي. إن لم تساعدني الآن، فلن يبقى لي سوى ثلاث فرصٍ فقط في هذه الحياة».

لم يفهم ما عنيتُه بالضبط، لكنّه أذعن.

أضع حقيبة ظهري في إحدى زوايا الغرفة، أشغّل المُسخّن إلى أقصاه، أُغلق الستائر وأرتمي على السرير، آمِلاً أن يزول وجع رأسي.

عندئذٍ، تدخل هلال.

«تركتني في الخارج أتكلّم مع تلك المرأة. تعلم أنني أكره الغرباء».

«نحن الغرباء هنا».

«أكره أن أكون تحت حُكم الآخرين كلّ الوقت وأن أُضطرّ إلى حجب خوفي، وانفعالاتي، ومواطن ضعفي. أنتَ تخالني شابّة باسلة، موهوبة، لا تخاف الآخرين أبدًا. أنت على خطأ. كلّ شيء يُخيفني. أتفادى النظرات الخاطفة، والابتسامات، والاتصال القريب. أنتَ الشخص الوحيد الذي تكلّمتُ معه فعلاً. أم أنّك لم تلاحظ؟».

بحيرة بايكال، الجبال المكسوّة ثلجًا، المياه الشفّافة، أحد أجمل الأماكن على الكوكب، وهذه المحادثة...سخيفة.

«دعينا نسترِحْ قليلاً، ثـمّ يـمكن لنا أن نتمشّى. سألتقي الشامان الليلة».

تـهمّ هلال في وضع حقيبتها أرضًا، لكني أقول:

«لديكِ غرفتكِ الخاصّة».

«لكن في القطار...».

لا تُنهي جملتها، بل تغادر، مُغلِقةً الباب بقوّة. أستلقي هناك، محدّقًا إلى السقف، متسائلاً ما يمكن لي فعله. لا أستطيع أن أدع نفسي تنساق وراء مشاعري بالذنب. لا أستطيع أن أدعها، ولن أدعها، لأنني أحبّ امرأةً أخرى هي الآن بعيدة جدًا وتثق بزوجها، مع أنّها تعرفه تـمام المعرفة. كلّ محاولاتي السابقة في التفسير قد أخفقت، ربـما سيكون هنا المكان المثالي لوضع الأمور في مواضعها نهائيًا مع هذه الشابّة المهووسة، المتكيّفة، القويّة والهشّة.

لا أُلام على ما يحدث، ولا حتى هلال. وضعتنا الحياة في هذا الموقف، وآمل فقط أن يكون لـخيرنا معًا. الأمل؟ أنا واثق منه. أشرع في الصلاة، وأغفو من توّي.

عندما أصحو، أذهب إلى غرفتها، ومن الخارج، أستطيع أن أسمعها تعزف الكمان. أنتظر إلى حين تنتهي، ثمّ أطرق الباب.

«فلنتمشّ».

تنظر إليّ، متفاجئة وسعيدة.

«أتشعر بتحسُّن؟ أتستطيع تحمّل الريح والبرد؟».

«نعم، أشعر بحالٍ أفضل بكثير. فلنذهبْ».

نمشي عبر القرية، التي تبدو وكأنها مكان خارج من قصّة خيالية. يومًا ما، سيؤمّها السيّاح، وفنادق ضخمة ستُشيّد، ومتاجر ستبيع بلوزات قطنية، وولاّعات، وبطاقات بريدية، ونماذج من البيوت الخشبية. ستُقام مواقف سيّارات هائلة للحافلات الكبيرة بطبقتين، المحمّلة بأشخاص مدجّجين بآلات التصوير الرقميّة، عازمين على التقاط البحيرة بكاملها على رقاقات صغيرة. والبئر التي رأيناها ستُهدم وسوف تُستبدل بأخرى، أكثر تنميقًا؛ ومع ذلك، لن تمدّ السكّان بالماء، بل ستُغلق بأمرٍ من المجلس، لئلا يخاطر أيّ أولاد أجانب بالانحناء فوق حافّتها والسقوط فيها. وقاربُ الصيد الذي رأيته صباح اليوم سيزول. ومياه البحيرة ستُشقّها يخوتٌ حديثة جيئة وذهابًا تُوفّر رحلاتٍ نهارية إلى وسط البحيرة، بما فيها وجبة الغداء. وسيصلها صيّادو سمك وصيّادو حيوانات محترفون

سيصلونها، مُتسلّحين بالتراخيص اللازمة، والتي سيدفعون لقاءها، في اليوم الواحد، ما يجنيه في العام صيّادو السمك وصيّادو الحيوانات المحلّيون.

لكن الآن، إنـها مجرّد قرية نائية في سيبيريا، حيث رجلٌ وامرأة تصغره بنصف عمره يمشيان جنبًا إلى جنب على ضفاف نهر شقّه ذوبان الثلوج. يجلسان إلى جانبه.

«أتذكرين محادثتنا في المطعم ليلة أمس؟».

«إلى حدٍّ ما، كان عندي الكثير لأشربه، لكني أذكر تصدّي ياو لذلك الرجل الإنجليزي».

«تحدّثتُ عن الماضي».

«نعم، أذكر. فهمتُ تمامًا ما قلته، لأنّه أثناء وجودنا تلك اللحظة في الألِف، رأيتُ أنّ عينيك كانتا مليئتين بمزيجٍ من الحب واللامبالاة، وغطّت رأسك قَلنسوة. شعرتُ بأنني كنتُ عرضة للخيانة والذلّ. لكني لستُ مهتمّة بما كانت عليه علاقتنا في حياةٍ ماضية. نحن هنا في الحاضر».

«أترين هذا النهر؟ في غرفة الجلوس، في شقّتي، في موطني، لوحة لوردة مغمّسة في نهر مماثل تمامًا. عُرِّض نصف اللوحة لآثار الماء والعناصر الطبيعية، لهذا فإنّ ملمس الحواف خشن قليلاً، ومع ذلك، أستطيع بعد أن أرى جزءًا من تلك الوردة الحمراء البهيّة على خلفيّة ذهبيّة. أعرف الفنّان. عام ٢٠٠٣، ذهبنا سويًا إلى غابة

في جبال الـپـيرينيه ووجدنا جدولاً جافًا، وخبّأنا اللوحة تحت الحجارة في قاع الجدول.

«الفنّان هي زوجتي. في هذه اللحظة، هي بعيدة آلاف الكيلومترات عنّا ولا تزال نائمة لأنّ الفجر لم يطلع بعد في مدينتها، مع أنّها الرابعة عصرًا هنا. نحن معًا منذ أكثر من ربع قرن. عندما التقيتها، كنت على قناعة بأنّ علاقتنا لن تنجح، وللعامين الأوّلين، كنتُ واثقًا من أنّ أحدنا سيرحل عن الآخر. في الأعوام الخمسة التي تلت، واصلتُ الظنّ أنّنا تعوّدنا على بعضنا ببساطة وأنّه ما إن ندرك ذلك، سوف يذهب كلٌّ منّا في سبيله. خِلتُ أنّ ارتباطًا أكثر جديّة سوف يحرمني من حرّيتي ويحول دون اختباري كلّ ما أردتُ اختباره».

أرى أنّ هلال بدأت تشعر بالانزعاج.

«وما دخل ذلك بالنهر والوردة؟».

«مع حلول صيف عام ٢٠٠٢، كنتُ أصلاً كاتبًا معروفًا جدًا ويملك مالاً وفيراً، واعتقدتُ أنّ قِيمي الأساسية لم تتغيّر. لكن كيف أمكن لي أن أكون متأكّدًا؟ قرّرتُ أن أضع الأمور موضع الاختبار. استأجرنا غرفة صغيرة في فندق من نجمتين في فرنسا، عازمَين قضاء خمسة شهور من السنة هناك. كانت الغرفة بخزانة ثياب واحدة، لذا كان علينا الإقلال من الثياب. مشينا مطوّلاً في الغابات والجبال، تناولنا الطعام في الخارج، وقضينا ساعات طويلة نتحادث، وكنا

نذهب إلى السينما كلّ يوم. العيش هكذا أكّد لنا أنّ أكثر الأمور فخامةً في العالم هي بالتحديد تلك التي في متناول الجميع.

«كلانا يحبّ ما يقوم به. وفي حين أنّ كلّ ما أحتاج إليه هو حاسوب محمول، فإنّ زوجتي رسّامة، ويحتاج الرسّامون إلى استوديوهات ضخمة ليُنتجوا لوحاتهم ويخزّنوها فيها. لم أردها أن تتخلّى عن دعوتها من أجلي، ولذلك اقترحتُ أن نستأجر استديو. في تلك الأثناء، كانت تجول بنظرها على الجبال، والأودية، والأنهر، والبحيرات والغابات، وتفكّر: لمَ لا أخزّن لوحاتي هنا؟ لمَ لا أدع الطبيعة تعمل معي؟».

عينا هلال مثبّتتان على النهر.

«هناك راودتها فكرة تخزين اللوحات في الهواء الطلق. كنتُ آخذ حاسوبي المحمول وأقوم بكتاباتي، في حين كانت تركع على العشب وترسم. بعد سنة، عندما عُدنا لتفقُّد أقمشة الرسم الأولى، كانت النتائج استثنائية وخارجة عن المألوف فعلاً. كانت اللوحة الأولى التي أخرجناها من الأرض، هي لوحة الوردة. اليوم، حتّى وإن كنّا نملك منزلاً في البيرينيه، فهي تواصل دفن لوحاتها ونبشها أينما تحلّ. ما وُلد من الحاجة أصبح طريقتها الخلّاقة الأساسية. عندما أنظر إلى هذا النهر، أتذكّر تلك الوردة وأشعر بحبّ محسوسٍ، جسدي تقريبًا تجاهها، كما لو أنّها كانت هنا».

لم تعد الريح الآن تعصف على قدر شدّتها من قبل، والشمس تدفئنا قليلاً. والنور المحيط بنا أفضل ما يكون.

تقول: «أفهم ما تقوله وأحترمه. ولكن، في المطعم، عندما كنت تتحدّث عن الماضي، قلت أمرًا ما عن أنّ الحبّ أقوى من الفرد».

«نعم، لكنّ الحبّ قائم على الخيارات».

«في نوفوسيبيرسك، جعلتني أغفر لك وقد فعلت. الآن، أنا أطلب إليك خدمة: قلْ لي إنّك تحبّني».

أُمسك بيدها. كلانا محدّق إلى النهر.

تقول: «السكوت إجابةٌ أيضًا».

ألفّها بذراعيّ، بحيث يتّكىء رأسها على كتفي.

أقول لها: «أحبّكِ، أحبّكِ لأنّ كلّ أنواع الحبّ في العالم كالأنهار الدافقة إلى البحيرة نفسها، حيث تلتقي وتتحوّل إلى حبٍّ أوحد يتحوّل بدوره إلى مطرٍ ويبارك الأرض.

«أحبّكِ كنهرٍ يُوجِد الظروف الملائمة للأشجار والشجيرات والزهر لكي تنمو على ضفّتيه. أحبّكِ كنهرٍ يروي ظمأ العطاشى وينقل الناس إلى حيث يريدون.

«أحبّكِ كنهرٍ يعي أنّ عليه أن يتعلّم كيفية تغيير تدفّقه فوق الشلالات والركود في المياه الضحلة. أحبّكِ لأننا كلّنا مولودون في المكان ذاته، من المنبع ذاته، الذي يزوّدنا بالماء بلا انقطاع. ولذا، متى شعرنا بالضعف، كلّ ما علينا فعله هو الانتظار قليلاً. يعود الربيع، فتذوب ثلوج الشتاء وتفيض بنا طاقة.

«أحبّكِ كنهرٍ يتشكّل قطراتٍ منفردة في الجبال ويكبر تدريجًا

وينضمّ إلى أنهرٍ أخرى، إلى حين يتمكن، بعد مرحلةٍ معيّنة، من التدفقّ مجتازًا أيّ حاجز لكي يصل إلى حيث يريد.

«آخذُ حبَّكِ وأُعطيكِ حبّي. ليس حبَّ رجل لامرأة، ليس حبَّ والدٍ لولد، ليس حبَّ الله لمخلوقاته، بل حبٌّ لا اسم له أو تفسير، كنهرٍ يعجز عن تفسير سبب جريانه في مسار محدّد، وإنما يجري قُدُمًا ببساطة. حبٌّ لا يطلب أيّ شيء ولا يُعطي أيّ شيء في المقابل، إنه موجود فحسب. لن أكون مُلكًا لكِ يومًا ولن تكوني ملكًا لي يومًا، لكن، يمكن لي أن أقول بصراحة: أحبّكِ، أحبّكِ، أحبّكِ».

لعلّه العصر، لعلّه النور، لكن في هذه اللحظة، يبدو الكون أخيرًا وكأنه في تناغم تامّ. نلازم مكاننا، لا رغبة ولو قليلة لدينا في العودة إلى الفندق، حيث ياو بلا شكّ في انتظاري.

نسرُ بايكال

في أي لحظةِ الآن، سيحلّ الظلام. ثمَة ستّة من بيننا يقفون إلى جانب قاربٍ صغيرٍ مربوطٍ إلى ضفّة البحيرة: هلال، ياو، الشامان، أنا وامرأتان أكبر سنًا. يتحدّثون كلّهم بالروسيّة. يهزّ الشامان رأسه. ويبدو أنّ ياو يتجادل معه، لكنّ الشامان يبتعد ويمشي إلى القارب.

الآن، ياو وهلال يتجادلان. يبدو قلقًا، لكنّي أظنّ أنه يستمتع بالوضع. كنّا نتمرّن على الدرب إلى السلام معًا، وأستطيع أن أفسّر لغة جسده الآن. إنّه يدّعي غيظًا لا ينتابه في الواقع.

«عمّ تتحدّثان؟».

تقول هلال: «الظاهر أنني لا أستطيع مرافقتكما. عليّ البقاء مع هاتين المرأتين اللتين لم يسبق لي أن التقيتهما في حياتي وقضاء الليل هنا في البرد، لأنّ لا أحد يستطيع إعادتي إلى الفندق».

يشرح ياو: «سوف تختبرين معهما كلّ ما نختبره على الجزيرة. ولكن لا يمكن لنا خرق التقاليد. سبق أن حذّرتك، لكنّه أصرّ على اصطحابك. علينا تركك الآن لأنّنا لا نريد أن نفوّت اللحظة، أو ما تسمّينه الألِف وما أسمّيه تشي، والتي لا شكّ أنّ الشامان يُطلقون عليها كلمتهم الخاصة. لن يطول الأمر. سوف نعود خلال بضع ساعات».

«هيّا»، أقولها مُمسكًا بذراع ياو، ومتوجّهًا أولاً إلى هلال بابتسامة: «لِمَ أردت البقاء في الفندق وأنت على علمٍ بإمكانية تفويت فرصة تجربة جديدة. لا أدري هل ستكون جيدة أم سيئة، لكنّها أفضل من تناول العشاء على انفراد».

«وأنتَ تظنّ، على ما أفترض، أنّ كلماتٍ رقيقةً في الحبّ تكفي لإشباع قلب؟ أعلم أنّك تحبّ زوجتك، وأتفهّم ذلك، ولكن إلا يمكن لك أن تكافئني على كلّ الأكوان التي أضعها على بابك؟».

أشيح عنها. محادثة سخيفة أخرى.

* * * *

يُدير الشامان محرّك القارب ويتولّى الدفّة. إننا متّجهون ناحية ما يظهر كصخرةٍ على بُعد مئتي مترٍ من الضفّة. أفترض أنّنا سنصل إلى وجهتنا في غضون دقيقتين.

«بما أنّ الرجوع عن الفعل الآن أصبح مستحيلاً، أودّ سؤالكَ لمَ كنتَ على إصرارك الشديد بوجوب لقائي الشامان؟ إنّها الخدمة الوحيدة التي طلبتها إليّ على مدى الرحلة، في حين أنّكَ أعطيتني الكثير. لا أعني ممارسة الأيكيدو فحسب. بل ساعدتَ على إحلال التناغم في القطار، وترجمتَ كلماتي كما لو أنّها كلماتك، وأمس أظهرتَ أهميّة خوض معركة احترامًا للخصم».

يهزّ ياو رأسه ويبدو منشغلاً نوعًا ما، وكأنه مسؤول بالكامل عن سلامة القارب الصغير.

«فكّرتُ ببساطة، بالنظر إلى اهتماماتك، أنّك قد تودّ لقاءهم».

هذه ليست بإجابة موفّقة. لو وددتُ رؤية الشامان، لطلبتُ ذلك. أخيرًا، ينظر إليّ ويومئ برأسه.

«طلبتُ إليك المجيء لأنني قطعتُ وعدًا بالعودة إلى هنا في رحلة تالية. كنت أستطيع المجيء بمفردي، لكنّي وقّعتُ عقدًا مع ناشريك، مؤكّدًا على ملازمة جانبك دومًا. لو أنني تركتك وحدك لما راق لهما لأمر».

«لا أحتاج إلى رفقة حولي دومًا، ولو تركتني في إركوتسك لما انزعج ناشراي».

يحلّ الظلام أسرع ممّا توقّعت. يبدّل ياو الموضوع.

«لدى الرجل الذي يقود القارب القدرة على التحدّث إلى زوجتي. أعرف أنّه لا يكذب لأنّه يعرف أمورًا يستحيل على أي امرئ آخر معرفتها. وأكثر من ذاك، لقد أنقذ ابنتي. قام بما يعجز عنه أي طبيب في أرقى مستشفيات موسكو، وبيكين، وشانغهاي، ولندن. ولم يطلب شيئاً في المقابل، باستثناء أن أعود لرؤيته. ولكن حدث هذه المرة أنني، برفقتك. ربما سأتعلّم أخيرًا أن أفهم الأمور التي يرفض عقلي تقبّلها».

إننا نقترب من الصخرة الآن. لا بدّ أن نصل في أقلّ من دقيقة.

«إنّها إجابة موفّقة. أشكرك على وضع ثقتك بي. أنا في أحد أجمل الأماكن في العالم، في أمسية فاتنة، أُصغي إلى الأمواج وهي

تتكسّر على جوانب المركب. الذهاب للقاء هذا الرجل هو إحدى البركات العديدة التي تلقّيتها أثناء هذه الرحلة».

فيما عدا اليوم الذي حدّثني فيه ياو عن أساه لفقدان زوجته، لـم يُبدِ أيَّ انفعالٍ آخر. الآن، هو يأخذ بيدي ويضغط بها على صدره. يرسو المركب على شريطٍ من الحصى.

«شكرًا لك. شكرًا جزيلاً».

* * * *

نتسلقَ الصخرة إلى قمّتها في الوقت المناسب لنختلس لمحة أخيرةً إلى أرجوان السماء في الأفق. من حولنا شُجيرات لا غير، وإلى الشرق ترتفع ثلاث شجراتٍ جرداء أو أربع لم تنبت أوراقها بعد. على إحداها بقايا عطايا وذبيحة حيوانٍ تتدلّى من غصنٍ. أحترم حكمة الشامان العتيقة احتراماً عظيماً، لكنّه لن يُريني أيّ جديد، إذ سبقَ لي أن سِرتُ على غير دربٍ، وأعلم أنّ كلّ الدروب تُفضي إلى المكان نفسه. مع ذلك، أرى نيّاته تحمل الجديّة، وفيما هو يُعدّ للطقس، أحاول أن أتذكّر كلّ ما تعلّمته عن دور الشامان في تاريخ الحضارة.

* * * *

في القِدم، كان في القبيلة شخصان سائدان دومًا. الأوّل كان الزعيم، العضو الأكثر إقداماً في القبيلة، قويّاً بما يكفي ليهزم كلّ من يتحدّاه وذكياً بما يكفي ليُحبط أي مؤامرة. ليس الكفاح من أجل السلطة بجديد، فلطالما وُجد منذ فجر الأزمان. ما إنّ يتولّى

الزعيم منصبه، يصبح مسؤولا عن حماية شعبه وحُسن حالهم في العالم المادّي. مع الوقت، يتحوّل ما كان ليُشكّل مسألة انتخابٍ طبيعي إلى فساد، وتُخلَّف الزعامة من أبٍ لابنه، مُفسحة في المجال أمام توريث السلطة الذي انبثق منه الأباطرة والملوك والديكتاتوريون.

لكن الأهمَّ من الزعيم، كان الشامان. حتّى مع بزوغ فجر الإنسانية بذاتها، كان البشر مُدركين لوجود قوّة أعظم، قادرة على منح الحياة وأخذها في آن، مع أنّهم كانوا قاصرين عن معرفة مصدر تلك القوّة. وترافقت ولادة الحبّ مع الحاجة إلى إيجاد الإجابة عن لغز الوجود. كان الشامان الأوائل من النساء، منبع الحياة. بما أنّه لم يكن يتعيّن عليهنّ الصيد لا في النهر ولا في البر، أمكنهنّ أن يكرّسن أنفسهنّ للتأمّل والاستغراق في الألغاز المقدّسة. كان التقليد يُنقل إلى اللواتي تمتّعن بالقدرة الكبرى، واللواتي عشن متقوقعات وكُنّ في العادة عذارى. وقد عملن على مستوى آخر، موازِنات بين قوى العالم الروحاني وقوى العالم المادّي.

كانت العمليّة هي ذاتها تقريبًا: الشامان تستخدم الموسيقا (آلات النقر في العادة) للدخول في حالة انخطاف، لتشرب، من ثمّ، الجرعات السحريّة المصنوعة من مواد طبيعية، وتصفها إلى غيرها. فيغادر روحُها جسدَها ويدخل كونًا موازيًا. هناك، يلتقي أرواح النبات والحيوانات والموتى والأحياء، الموجودين كلّهم في زمنٍ واحد، يدعوه

ياو تشي، وأدعوه أنا الألِف. هناك أيضًا، يلتقي بمرشديه، ويقتدر على موازنة الطاقات، وشفاء الأمراض، واستدعاء المطر، واستعادة السلام، وفكّ الرموز والإشارات المُرسلة من الطبيعة، ومعاقبة أيّ امرئ كان يحاول الوقوف في وجه القبيلة في اتّصالها مع الكلّ. في ذاك الزمان، عندما كان على القبائل الترحال في سعيها الدائم إلى المأكل، كان من المستحيل تشييد معابد أو مذابح. كان الكلّ فقط، الذي في رَحمِه كانت القبيلة تندفع في ترحالها.

وكدور الزعيم، فَسُدَ دور الشامان أيضًا. وبما أنّ صحّة المجموعة وحمايتها كانتا رهنًا بتناغمهما مع الغابة والريف والطبيعة، مُنحت النساء المسؤولات عن ذاك الاتصال الروحاني- روح القبيلة- سلطة أعظم، تفوق غالبًا سلطة الزعيم. وفي لحظة لامحدّدة من التاريخ (الأرجح بعد اكتشاف الزراعة التي قضت على الترحال) استغلّ الرجال الموهبة الأنثوية. طغت القوّة على التناغم، وأُغفلت الصفات الطبيعية التي امتلكتها تلك النسوة؛ فالنفوذ كان المهمّ.

والخطوة التالية كانت بتنظيم الشامانيّة- التي باتت ذكوريّة بالكامل عند ذاك- في هيكلية اجتماعية. وُلدت الديانات الأولى. كان المجتمع قد تغيّر ولم يعد قائمًا على الترحال، لكنّ احترام الزعيم والشامان وخشيتهما، كانا متجذّرين في الروح البشرية وسيظلّان كذلك أبدًا. وإذْ وعى الكهنة ذلك، وحّدوا صفوفهم مع

زعماء القبائل لكي يُبقوا الشعوب تحت السيطرة. وكلّ من تحدّى الحكام، كان يُهدّد بعقاب الآلهة له. ثمّ، حلّ زمنٌ عندما راحت النسوة يطالبن باستعادة دورهنّ كشامان، فمن دونهنّ كان العالم ينحو منحى النزاع. وكلّما مضين قُدمًا، كنّ يُعاملن كمهرطقات وموسات. وحين شعر النظام أنّهن خطر عليه، لم يتردّد في عقابهنّ حرقًا، ورجمًا بالحجارة، وفي حالات أخفّ، نفيًا. تمّ محو الديانات الأنثوية من تاريخ الحضارة، نعلم الآن فقط أنّ أقدم أدوات السحر القديم التي نبشها علماء الآثار حتى اليوم هي رسومات لإلهات. لكنّها ذوت في رمال الزمن، كالقوى السحرية، التي متى استُعلمت لغايات دُنيوية فقط، ذابت وفقدت فاعليتها. وكلّ ما بقي هو الخوف من العقاب الإلهي.

يقف إزائي الآن رجل، وليس امرأة، مع أنّ المرأتين اللتين بقيتا مع هلال عند ضفة البحيرة تملكان، بلا شك القوى ذاتها. لا أشكّك بحضوره هنا، لأنّ الذكور والإناث يتمتّعون بالهبة التي ستتيح لهم الاتصال بالمجهول، ما داموا منفتحين على «الجانب الأنثوي» فيهم. وما يبطِن افتقاري إلى الحماسة لهذا اللقاء هو معرفتي كم حادت الإنسانية عن أصولها وعن الاتصال بحلم الله.

الشامان في صدد إشعال نار في حفرةٍ حُفرت في التربة لكي تحمي اللهب من الريح التي تواصل هبوبها. يضع نوعًا من الطبول إلى جانب النار ويفتح قنينة من سائل غير مألوف. الشامان في سيبيريا- منشأ هذا المصطلح- يتبع الطقوس ذاتها التي يتبعها الپاجيه *pajé* في أدغال الأمازون، والإيتشيثيروس *hechiceros* في المكسيك، وكهنة الكاندومبليه *candomblé* في أفريقيا، والروحانيون في فرنسا، والكورانديرو *curanderos* لدى القبائل الأميركية الأصلية، والسكان الأصليون في أستراليا، والكاريزميون في الكنيسة الكاثوليكية، والمورمون في ولاية يوتاه، وسواهم.

وهذا ما يثير بالغ الدهشة من هذه التقاليد، التي تبدو وكأنها تحيا صراعًا أبديًا، واحدها مع الآخر. هي تلتقي عند المستوى الروحاني ذاته، ويمكن إيجادها حول العالم، مع أنّها متغايرة على المستوى المادّي. هذا قول إلهة الأرض:

«أحيانًا، لأولادي عيون، لكنّهم لا يرون، وآذان، لكنهم لا يسمعون. سأطلب إذًا ألاّ يكون بعضهم فاقدي السمع أو البصر تجاهي. قد يكون عليهم دفع ثمن كبير، لكن سيكون عليهم الحفاظ على التقليد حيًا، وذات يوم، سترجع بركاتي إلى الأرض».

يبدأ الشامان بقرع الطبل، مُسرّعًا نقره تدريجًا. يقول شيئًا لياو، الذي يترجمه فورًا:

«لم يستعمل كلمة تشي، لكنّه يقول إنّ تشي ستأتي مع الريح».

الريح تشتدّ. ومع أنني مدّثر جيدًا- معطف خاص، قفّاز، قبّعة صوفيّة سميكة، ووشاح لا يُبرز سوى عينيّ- فهي لا تكفي. يبدو أنفي وقد فقد كلّ إحساس، وتتشكّل حُبيبات من الجليد على حاجبيّ ولحيتي. ياو راكع، وساقاه مثنيّتان ببراعة تحته. أحاول أن أفعل مثله، لكن عليّ أن أغيّر وضعيّتي باستمرار لارتدائي سروالاً عاديًا والريح القارسة تخترقه، مخدِّرة عضلاتي ومسبّبة لي تشنّجات مؤلمة.

يتراقص اللهب بجموح، لكنه لا يتعالى. يثور قرع الطبل. يحاول الشامان جعل إيقاع قلبه يتماشى وطرق يديه على الجلد، فيما الجزء السفلي من الطبل مفتوح لكي تدخله الأرواح. في التقليد الأفرو-برازيلي، هذه هي اللحظة التي يدع فيها الوسيط الروحاني أو الكاهن روحه تغادر جسده، مُتيحًا لكيانٍ أكثر تمرّسًا أن يستحوذ عليه. الفرق الوحيد هو أنّه في بلدي، لا لحظة محدّدة تتجلّى فيها ما يدعوه ياو «تشي».

أكفّ عن كوني مجرّد مراقب وأقرّر أن أنضمّ إلى الانخطاف. أحاول أن أجعل إيقاع قلبي يتماشى مع ضربات الطبل، أُغمض عينيّ، وأُصفّي ذهني، لكنّ البرد والريح لا يدعاني أقوم بأكثر من ذلك. عليّ أن أغيّر وضعيّتي مجدّدًا، أفتح عينيّ وألاحظ أنّ الشامان يُمسك ببضع رِيَشٍ في يدٍ واحدة، والمحتمل أنّها من طائرٍ محلّي ما. بحسب التقاليد في العالم أجمع، الطيور هي رُسل الآلهة. تساعد الشامان على الارتقاء والتحدّث إلى الأرواح.

ياو فاتحٌ عينيه أيضًا، وحده الشامان سيدخل حالة الانتشاء. تزداد الريح شدّة، ويزداد شعوري بالبرد ويزداد. يستمرّ الطقس. يتناول القنينة التي تحتوي على سائلٍ مائلٍ إلى الأخضر، يشرب منه، ويُمرّر القنينة إلى ياو، الذي يشرب أيضًا قبل أن يمرّرها لي. بداعي الاحترام، أحذو حذوهما وأتجرّع الخليط الحلو الكحولي قليلاً، ثمّ أعيد القنينة إلى الشامان.

قرع الطبل مستمرّ، ولا ينقطع إلاّ مع توقّف الشامان ليتتبّع أثر شكلٍ على الأرض، إشارات لم أرها من قبل، تشبه شكلاً من الكتابة انطوى منذ زمن سحيق. تنبعث أصوات ضاجّة من حنجرته، كزعيق الطيور المضخّمة جدًا. القرع يتعالى ويتسارع كلّ الوقت، لم يعد البرد يُزعجي كثيرًا الآن، وفجأة، تتوقّف الريح.

لا أحتاج إلى شروحات. ما يدعوه ياوتشي، هي هنا. نتجاذب ثلاثتنا النظرات، يحلّ نوعٌ من الهدوء. الشخص أمامي لم يعد الرجل

ذاته الذي أدار دفّة القارب أو الذي طلب إلى هلال البقاء على الضفّة، ملامحه تبدّلت، ويبدو أصغر سنًا، وأكثر أنوثة.

يتبادل وياو الكلام بالروسيّة لبعض الوقت، لكني لا أعرف الوقت تماماً. يسطع الأفق. يطلع القمر. أرافقه في رحلته الجديدة عبر السماء، شعاعاته الفضيّة منعكسة على مياه البحيرة، التي من لحظة إلى لحظة، تهدأ صفحتها تـمامًا. إلى اليسار منّي، أضواء القرية تُشعل. أشعر بسكينة تامّة، محاولاً الاستغراق في هذه اللحظة العفوية ما أمكن لي، لأنّني لم أتوقّعها، كانت على دربي ببساطة، إلى جانب لحظات عديدة لامتوقّعة. حبّذا لو كان اللامتوقّع بهي الـمُحيّا وهادئًا هكذا.

أخيرًا، وعبر ياو، يسألني الشامان عن سبب وجودي هنا.

«لأكون مع صديقي الذي قطع وعدًا بالعودة إلى هنا. لكي أكرّم فنّك، ولكي أشاطرك تأمّل الغموض».

يقول الشامان عبر ياو: «الرجل إلى جانبك لا يؤمن بشيء. جاء إلى هنا مراتٍ عدة لكي يتحدّث إلى زوجته، ومع ذلك، لا يزال غير مؤمن. امرأة مسكينة! بدلاً من أن تسير إلى جانب الله فيما تنتظر عودتها إلى الأرض، عليها أن تستمر في الرجوع إلى هنا لتواسي هذا المسكين البائس. تهجر دفء الشمس الإلهية من أجل هذا الصقيع السيبيري الـمُزري لأنّ الحب يتشبّثُ بها!».

يضحك الشامان.

«لـمَ لا تخبره؟».

«أخبرته، لكنه على غرار معظم من أعرف، لن يتقبّل ما يعتبره فقدانًا».

«أنانيّة بحت».

«نعم، أنانيّة بحت. مَن هو مثله، يودّ لو يتوقّف الزمن أو يرجع إلى وراء، وبذلك، يحول دون مضيّ أرواح أحبّائه».

يضحك الشامان ثانيةً.

«عندما عبرت زوجته إلى مستوى آخر، قَتَلَ الاله، وسوف يواصل عودته مرة، واثنتين، وعشراً، لكي يحاول التحدّث إليها مرارًا وتكرارًا. هو لا يطلب العون لكي يُعمّق فهمه للحياة. يريد أن يُقولب الأمور بحسب رؤيته للحياة والموت».

يتوقّف وينظر حواليه. الظلام مُخيّم تمامًا، باستثناء نور اللهب.

«أعجز عن شفاء اليأس عندما يرتاح الناس إليه».

«مع من أتكلّم؟».

«أنت مؤمن».

أكرّر السؤال، ويجيب:

«فالنتينا».

امرأة.

«قد يكون الرجل إلى جانبي جاهلاً نوعًا ما بشأن الروحانيات؛ لكنّه إنسان ممتاز، مستعدّ لكلّ شيء باستثناء ما يدعوه موت زوجته. الرجل إلى جانبي رجل صالح».

يومئ الشامان.

«وأنت كذلك. جئت برفقة صديقة كانت بجانبك منذ زمن بعيد، أبعد من لقائكما في هذه الحياة. كما فعلتُ».

ضحكة أخرى.

«كان مكانًا مختلفًا ولقينا المصير ذاته في المعركة، مصير ما يدعوه صديقك هنا الموت. لا أدري في أي بلد كانت، لكنّ الجراح نتجت من الرصاص. المحاربون يلتقون من جديد. إنّه جزءٌ من القانون الإلهي».

يرمي ببعض الأعشاب إلى قلب النار، شارحًا أنّنا فعلنا هذا أيضًا في حياةٍ أخرى، جالسين حول نارٍ نتسامر في مغامراتنا.

«روحك تتحادث مع نسر بايكال، الذي يراقب كلّ شيء ويحرسه، مهاجمًا الأعداء، وحاميًا الأصدقاء ومدافعًا عنهم».

نسمع صوت طائر من بعيد، كما لو أنّه تأكيد على كلامه.

تنحّى الشعور بالبرد لحُسن الحال. يمدُّ لنا بالقنينة من جديد.

«المشروبات المخمّرة حيّة؛ تعبر من الشباب إلى الكهولة. عندما تبلغ النضج، يمكن لها أن تدمّر روح الكبت، روح الوحدة، روح الخوف، وروح القلق. لكن إن أسرفت في شربها، تنتفض وتمهّد لظهور روح الهزيمة والعدوانية. المسألة أن تعرف متى تتوقّف».

نشرب ونحتفي.

«في هذه اللحظة، جسمك على الأرض، لكنّ روحك معي هنا في

الأعالي، وهذا كل ما يسعني تقدمته لك، طواف عبر السماوات فوق بايكال. لم تأتِ إلى هنا لطلب أيّ شيء، ولذا هذا كلّ ما سأقدّمه لك. آمل أن يُلهمك ذلك للمثابرة على ما تفعل.

«مبارك أنت. وفيما تُحوّل حياتك، عسى أن تحوّل حياة مَن هم حولك. عندما يطلبون، لا تنسى أن تعطي. عندما يطرقون بابك، احرص على فتحه. عندما يفقدون شيئًا وإليك يأتون، افعل ما في وسعك لمساعدتهم على إيجاد ما فقدوه. لكن، اطرق الباب أولاً واكتشف إلى أيّ شيء حياتك تفتقر. الصيّاد يعرف دومًا ما عليه أن يتوقّع. كُلْ أو تُؤْكَل».

أومئ إيجابًا.

يتابع الشامان: «لقد اختبرت هذا من قبل، وسوف تختبره مرّات عدّة. أحد أصدقائك، على صداقة مع نسر بايكال أيضًا. لن يحدث أيّ أمرٍ مميّز الليلة؛ لن تحضرك رؤى، ولا تجارب سحرية ولا انخطافات تضعك على اتصال مع حيّ أو ميت. لن تتلقّى أيّ قوّة مميّزة. سوف تشعر بالفرح فحسب عندما يُري نسر بايكال البحيرة لروحك. لن ترى شيئًا، لكن في الأعالي، سيكون روحك في غمرة من الغبطة».

روحي في غمرة من الغبطة بالفعل، مع أنني أعجز عن رؤية أيّ شيء. ليس عليّ أن أرى. أعرف أنّه يقول الحقّ. عندما ترجع روحي إلى جسمي، ستكون أكثر حكمةً وهدوءًا.

يتوقّف الزمن، لأنني لم أعد أستطيع اتّباعه. يترنّح اللهب،

عاكساً ظلالاً غريبة على وجه الشامان، لكنّي بالكاد حاضر. أُطلق عنان روحي لأن تطوف، هي في حاجة إلى الطواف، بعد كثرة العمل والجهد إلى جانبي. لم أعد أشعر بالبرد. لا أشعر بأيّ شيء. أنا حرّ وسأظلّ على حريّتي مدى تحليق نسر بايكال فوق البحيرة والقمم الملتحفة ثلجًا. خسارة أن تعجز روحي عن إخباري بما ترى، لكني أكرّر، لا أحتاج إلى معرفة كلّ ما يحدث لي.

الريح تهبّ من جديد. ينحني الشامان انحناءةً منخفضةً إلى الأرض وإلى السماء. والنار، في ملجأ حفرتها، تختفي فجأة. أنظر إلى القمر، العالي في السماء الآن، وأستطيع رؤية أشكال الطيور تحوم حولنا. يعود الشامان رجلاً عجوزًا من جديد. يبدو متعبًا فيما يُعيد طبله إلى حقيبة كبيرة مطرّزة.

يضع ياو يده في جيبه اليسرى، ويسحب منها حفنةً من النقود المعدنية والعملة الورقية. أفعل مثله. يقول ياو:

«تسوّلنا نسر بايكال. وهذا ما حصلنا عليه».

ينحني الشامان، يشكرنا على المال، ونمشي كلّنا الهوينى عائدين إلى القارب. لجزيرة الشامان المقدّسة روحها الخاصّ، حبر الليل شديد، ولسنا واثقين إن كانت خطانا تقع في المكان الصحيح.

عند بلوغنا الضفّة، نبحث عن هلال، فتقول المرأتان العجوزتان لنا إنّها عادت إلى الفندق. عندئذٍ فقط، أُدرك فعلاً أنّ الشامان لم يأتِ على ذكر اسمها ولو مرّة.

الخوف من الخوف

حرارة المسخّن في غرفتي على الدرجة القصوى. وقبل أن أتكبّد عناء إشعال الضوء، أخلع معطفي وقبّعتي ووشاحي ثمّ أتوجّه إلى النّافذة لأفتحها، فيدخل قليلٌ من الهواء المنعش. يقع الفندق على تلّةٍ صغيرةٍ، وأستطيع رؤية أضواء القرية أدناه وهي تنطفىء، الواحد تلو الواحد. أقف هناك بعض الوقت، متخيّلاً الروائع التي لا بُدّ أن روحي رأتها. ثمّ، وفيما أنا على وشك أن أستدير، أسمع صوتاً يقول:

«لا تستدِرْ».

هلال هناك، والنبرة التي تقول بها هذه الكلمات تبعث فيَّ الخوف. تبدو بالغة الجديّة.

«أنا مسلّحة».

لا، هذا محال. إلاّ إذا كانت أولئك النسوة...

«تراجعْ بضع خطوات».

أُنفّذ ما طُلب مني.

«قليلاً بعد. هذا يكفي. والآن، خطوةٌ الى اليمين. حسنٌ، توقّف عندك».

لم أعد أفكّر، فقد تولّت غريزة البقاء القيام بردود فعلي كلّها.

وفي غضون ثوانٍ، حلّل ذهني كلّ خياراتي: يمكن لي أن أرتمي على الأرض أو أحاول محادثتها أو أنتظر ببساطة، وأترقّب خطوتها التالية. إنْ كانت مصمِّمة على قتلي، فستقوم بذلك قريبًا، وإن لم تُرْدِني في الدقائق القليلة التالية، فستبدأ بالتحدّث إليّ، ممّا قد يحسّن فرصي في البقاء.

يتعالى ضجيجٌ يصمّ الآذان، انفجارٌ! وأجد نفسي مغطّى بشظايا زجاج. فقد انفجر المصباح فوق رأسي.

«أحمل في يدي اليمنى قوس كماني، وفي اليسرى الكمان. لا! لا تستدِرْ».

لا أبرح مكاني وأتنفّس الصعداء. فما حدث الآن ليس بشيءٍ سحري أو مميّزٍ: قد تكسر مغنّيات الأوبرا كأس شامپانيا مثلاً عند غنائهنّ نوتةً معينةً يرتجّ الهواء جرّاءها بتردّدٍ يمكن له أن يحطّم الأشياء الهشّة.

يلمس قوس الكمان الأوتار ثانيةً، مصدرًا الصوت الثاقب عينه.

«إنّي على علم بما جرى، فقد رأيتُه. حملتني النساء إلى هناك بلا حاجةٍ إلى حلقة نور».

لقد رأتْ ذلك.

ينزاح ثقلٌ هائلٌ عن كتفيّ اللتين تبعثرت عليهما شظايا الزجاج. لا يعلم ياو ذلك، غير أنّ رحلتنا إلى هذا المكان هي أيضًا جزءٌ من رحلتي للعودة إلى مملكتي. ما كان عليّ البوح لها بشيء. فقد رأته.

«تخلّيتَ عنّي عندما كنتُ في أمسّ الحاجة إليك. مُتُّ بسببك وعدتُ الآن لأطاردك».

«لستِ تطاردينني ولا تثيرين خوفي. فقد غُفر لي».

«لقد أجبرتني على أن أغفر لكَ. لم أعرف ما كنت أفعل».

صوتٌ حادّ آخر، نغمةٌ مزعجة.

«لكِ التراجع عن هذه المغفرة إن شئتِ».

«لا، لا أشاء. مغفور لك. وإن احتجتَ أن أغفر لك مئة مرةٍ بعد، لفعلت. كانت الصور في ذهني شديدة التشوّش. أحتاج أن تخبرني بما حدث بالتحديد. فجلّ ما أذكره هو أنّني كنت عارية. رحتَ تنظر إليّ فيما أبوح للجميع بحبّي لك، وهذا ما أدانني بالموت. حبّي لك أدانني».

«هل لي أن أستدير الآن؟».

«ليس بعد. قل لي ما جرى أولاً. كلّ ما أعرفه هو أنّني، في حياةٍ سابقةٍ، متُّ بسببك. أمكن أن يحدث هنا، أو في مكانٍ آخرٍ من العالم، لكنّي ضحيّت بنفسي باسم الحبّ لإنقاذك».

تعوّدتْ عيناي الظلمة الآن، ولكنّ حرارة الغرفة لا تُحتمل.

«ما الذي فعلته أولئك النسوة تحديداً؟».

«جلسن معاً عند ضفّة البحيرة، أشعلن نارًا، وقرعن طبولاً، ودخلن حالةً من الانخطاف ثمّ أعطينني شرابًا. عندما شربته، بدأت هذه الصور المُربكة تجول في ذهني. لكنّها لم تدم طويلاً.

ما أقوله لكِ الآن هو كلّ ما أذكره. حسِبتُ أنّه كابوس أو ما شابه، لكنهنّ أكّدن لي أنّنا كنّا، أنا وأنتِ معًا في حياةٍ سابقةٍ. وقلتِ لي هذا بنفسكِ أيضًا».

«لا، حدثَ هذا في الحاضر؛ إنّه يحدث الآن. في هذه اللحظة، أنا في غرفة فندقٍ في سيبريا وتحديداً في قريةٍ مغمورةٍ. لكنّني كذلك في زنزانة تحت الأرض على مقربةٍ من قرطبة في إسبانيا. أنا في البرازيل مع زوجتي والنساء الكثيرات اللائي عرفتهنَ، وفي بعض تلك الحيوات، أنا بنفسي إمرأة. اعزفي شيئًا».

أخلع كنزتي. تبدأ بعزف سوناتة ليست مؤلّفة أصلاً لعازفي الكمان، كانت أمّي تعزفها على البيانو في صغري.

«مرّ زمنٌ كان فيه العالم إمرأةً أيضًا، وكانت طاقتها جميلة جدًا. آمَنَ الناس بالمعجزات وكانت اللحظة الحاضرة كلّ ما في الوجودِ، وانتفى وجود الزمن إذ ذاك. لدى الإغريقيّين كلمتان للزمن: الأولى هي كايروس *kairos* وتعني وقت الربّ، الأبديّة. ثمّ حدث تغييرٌ . وكانت معركة البقاء، وكانت الحاجة إلى معرفة الوقت المناسب لزراعة المحاصيل، لتُحصد لاحقًا. عند ذاك، أصبح الزمن الذي نعرفه اليوم، جزءًا من تاريخنا. يطلق الإغريقيّون أيضًا عليه إسم كرونوس *chronos*، ويسمّيه الرومان ساتورن *Saturn*، وهو إلهٌ التهم أولاده كأوّل فعلٍ له. غدونا عبيدًا للذاكرة. واصلي العزف وسأشرح لك بشكلٍ أوضح».

تتابع العزف، وأبدأ بالبكاء، لكنّي أتمكّن من مواصلة الكلام.

«في هذه اللحظة، أنا في حديقةٍ في بلدة، جالسٌ على مقعدٍ خلف منزلي، أتأمّل السماء وأحاول فهم مقصد الناس بقولهم «نبني قلاعًا في الهواء»، وهي عبارة سمعتها للمرّة الأولى منذ ساعة. أنا في السابعة من عمري. أحاول أن أبنيَ قلعةً ذهبيةً، لكنّني أجد صعوبةً في التركيز. يتناول أصدقائي العشاء في بيوتهم، أمّا أمّي فهي تعزف الموسيقا نفسها التي أسمعها الآن، ولكن على آلة البيانو. لو لم أشعر بحاجةٍ إلى التعبير عن مشاعري، لتواجدت هناك تماماً...رائحة الصيف، زيز الحصاد يغني بين الشجر، وأنا أفكّر في الفتاة الصغيرة التي أحبّ.

«لستُ في الماضي بل في الحاضر. أنا الفتى الصغير الذي كنتهُ. وسأبقى دائماً ذلك الفتى الصغير، وسنبقى جميعنا أطفالاً، وبالغين، وعجائز كنّاهم وسنكونهم . لستُ أتذكر ذلك الزمن، بل أعيشه ثانيةً».

لا أقوى على المتابعة. أغطّي وجهي بيديّ وأنتحب، وتستمرّ هي بالعزف بشدّة أكثر، برهافةٍ أكبر، تحملانني إلى عديد من أكون، ومن كنتهم. لستُ أبكي أمّي المتوفّاة لأنّها هنا الآن، تعزف لي. ولا أبكي الطفل الذي حيّرته عبارة منمّقة، والذي يحاول بناء قصرٍ ذهبيٍّ لا يكفّ يتبدّد. ذلك الفتى هنا أيضاً، يستمع إلى شوبـان، وهو يعي مدى جمال هذه الموسيقا لأنّه استمع إليها غالبًا، وسيُسعد

بسماعها مرارًا وتكرارًا. أبكي لأنّ لا وسيلة أخرى أُظهرُ من خلالها مشاعري: أنـا على قيد الحياة. أنا على قيد الحياة في كلّ مسامي وجميع خلاياي. أنا على قيد الحياة. لم أولد قطّ لن أموت أبدًا.

قد تتخلّل حياتي لحظات حزنٍ أو ارتباك، ولكن فوقي يـجثم الأنا العظيم، الذي في كلّ شيء فهيم، ومن معاناتي ساخر. أبكي الزائل والأبديّ، فأنا أعرف أنّ الكلمات أفقر من الموسيقا، ولهذا سيتعذّر عليّ وصف هذه اللحظة. سأدع شوپـان وبيتهوفـن وفـاغنر يقودونني إلى ذلك الماضي الحاضر، فموسيقاهم أقوى من أيّ حلقةٍ ذهبيّة.

أبكي، فيما هلال تعزف، وتعزف إلى أن يرهقني البكاء.

* * * *

تتوجّه إلى المفتاح الكهربائيّ. فتُحدث اللمبة المتكسّرة مسًا كهربائيًا. تخيّم الظلمة على الغرفة. ثـمّ، تتوجّه إلى الطاولة قرب السرير وتشعل المصباح.

«بإمكانك أن تستدير الآن».

ما إن تتعوّد عيناي الضوء، حتى أراها عاريةً تـمامًا. أرى ذراعيها منبسطتين، وفي يديها القوس والكمان.

«اليوم أخبرتَني أنّ حبّكَ لي كنهرٍ. أريد أن أقول لك الآن أنّني أحبّك كما أحبّ موسيقا شوپـان، بسيطةً وعميقةً، زرقاء زرقة بحيرةٍ وقادرة على...»

«الموسيقا تعبّر عن ذاتها. لا حاجة لأن تشرحي».

«أشعر بالخوف، خوف شديد. ما الذي رأيته تحديداً؟».

أصف بالتفصيل كلّ ما حدث في الزنزانة تحت الأرض، أصف جُبني والفتاة التي لا تزال على الملامح ذاتها، آنذاك والآن، باستثناء أنّ حبالاً كانت تقيّد يديها، المختلفة أيـما اختلاف عن أوتار القوس أو الكمان. تصغي بصمتٍ، ولا تزال ذراعاها منبسطتين، تتشبّع كل كلِمة أتلفّظ بها. نحن واقفان في وسط الغرفة، جسدها أبيض كجسد تلك الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تُقاد إلى محرقةٍ قرب مدينة قرطبة. لن يسعني إنقاذها، وأنا مُدرك أنّها ستذوي في ألسنة النيران مع صديقاتها. حدث ذلك مرّةً، وهو يحدث ويتكرّر، وسيستمرّ حدوثه ما دام للعالم وجود. أذكر لها أنّه كان للفتاة شعر على العانة، في حين أنّ هلال كانت قد حلقته كلّه، وهو أمرٌ أكرهه، كما لو أن الرّجال جميعًا يبحثون عن طفلةٍ ليقيموا معها علاقةً جنسيّة. أطلب إليها ألاّ تكرّر ذلك، وتعدني ألاّ تفعل .

أُريها بقع الإكزيما على بشرتي وهي أكثر التهابًا ووضوحًا من المعتاد. أشرح لها أنّها الدمغات ذاتها من ذلك المكان وذلك الماضي. أسألها إن كانت تذكر ما قالته، أو ما قالته الفتيات الأخريات، أثناء سوقهنّ إلى المحرقة. تهزّ رأسها وتسأل:

«هل ترغبني؟».

«نعم. أرغبكِ. نحن هنا وحدنا في هذا المكان الفريد من الكوكب. تقفين عاريةً أمامي. أرغب فيكِ كثيراً».

«أشعر بالخوف من خوفي. أسأل نفسي المغفرة، ليس على وجودي هنا، بل لأنّني لطالما كنت أنانيةً في ألـمي. عوضًا عن الغفران، سعيتُ إلى الانتقام. ليس لأنّني كنت الطرف الأقوى، بل لأنّني شعرتُ دومًا بأنّني الطرف الأضعف. وكلّما أسأتُ إلى آخرين، كنتُ أُسيء إلى نفسي ليس إلاّ. أذللت الآخرين لكي أشعر بالمذلّة، وانتهكتُ الآخرين لكي أشعر بأنّ مشاعري هي التي كانت تُنتهك.

«أعلم جيداً أنّني لست الشخص الوحيد الذي عانى ما وصفته تلك الليلة في السفارة، بالتعرّض للإساءة الجنسية من جار العائلة وصديقها. قلتُ حينذاك إنّها لم تكن تجربة نادرة، وأنا واثقة من أنّ امرأة على الأقل، من النسوة اللواتي كنّ هناك، تعرّضت للإساءة في صغرها. ولكن لا يتصرّف الجميع كما أتصرّف. فأنا، بكل بساطة، لست في سلامٍ مع نفسي».

تأخذ نفسًا عميقًا، محاولةً العثور على الكلمات المناسبة، ثمّ تتابع:

«لا أستطيع أن أتخطّى ما يبدو أن الآخرين قادرون على تخطّيه تمامًا. أنتَ في سعيٍ إلى كنزك، وأنا جزءٌ منه. ومع ذلك، أشعر وكأنّني غريبة حتى عن جسدي. السبب الوحيد الذي يمنعني من الارتماء في أحضانك، وتقبيلك، وممارسة الحبّ معك الآن، هو أنّني أفتقر إلى الشجاعة وأخشى خسارتك. في حين أنّك انطلقتَ في رحلتك سعيًا إلى مملكتك، رُحتُ أكتشف نفسي، إلى أنْ، في مرحلةٍ

من الرحلة، لم أعد أستطيع التقدّم. وحينها شرعتُ أُمسي أكثر عدائيّة. أشعر بأنّني منبوذة، بلا نفع، وليس هناك ما تستطيع قوله لتغيير وجهة نظري».

أجلس على الكرسيّ الوحيد في الغرفة وأطلب إليها الجلوس في حضني. جسدها يتصبّب عرقًا بسبب الحرارة الزائدة عن حدّها. تُبقي على الكمان والقوس في يدها.

أقول: «أخاف أمورًا كثيرة وسأخافها دوماً. لن أحاول حتّى أن أفسّر أي شيء، غير أنّكِ تستطيعين فعل شيءٍ الآن».

«لا أريد الاقتناع بأنّ ذلك سيزول يوماً ما. فهو لن يزول. عليّ أن أتعلّم العيش مع شياطيني».

«لحظة. لم أقم بهذه الرحلة لإنقاذ العالم، ولا حتّى لإنقاذك أنتِ، ولكن بحسب التقليد السحري، نقل الألم ممكن. لن يختفي في اللحظة نفسها، لكنّه سيزول تدريجًا فيما تنقلينه إلى مكانٍ آخرٍ. كنت تقومين بذلك طوال حياتك لا واعيةً. أقترح عليك الآن أن تقومي به واعية».

«ألا تريد ممارسة الحبّ معي؟».

«أريد ذلك بشدّة. في هذه اللحظة، وعلى الرغم من حماوة الغرفة، تنبعثُ مني حرارة إضافيّة حيث يلامس جسدك ساقيّ. لستُ الرجل الخارق. لهذا السبب أطلب إليكِ أن تنقلي ألمك ورغبتي. أريدك أن تنهضي، وتذهبي إلى غرفتك وتعزفي على الكمان حتّى

الإرهاق. نحن النزلاء الوحيدون في هذا الفندق، ولن يتذمّر أحد من الضجّة. اسكبي مشاعرك كلّها في الموسيقا التي تعزفينها، وافعلي الأمر عينه في الغد. متى عزفتِ، قولي لنفسك إنّ الأمر الذي سبّب لك المعاناة، تحوّل إلى هِبة. أنتِ على خطأ في قولك إنّ آخرين تعافوا من الصدمة، هم خبّأوها وحسب في مكانٍ بعيدٍ لا يقصدونه أبداً. أمّا في حالتك، فقد أنار الله دربك. وقوّة التجدّد في متناول يديك».

«أحبّكَ كما أحبّ شوپان. لطالما أردتُ أن أصبح عازفة بيانو، لكنّ الكمان كان كلُّ ما وَسِع والداي تحمّل نفقته في ذلك الوقت».

«وأُحبّكِ كنهر».

تنهض وتشرع بالعزف. وإذا بالسماوات تسمع الموسيقا، وبالملائكة تنزل لتنضمّ إليّ في الإصغاء إلى تلك المرأة العارية التي تنتصب تارّةً وتتمايل تارةً على أنغام موسيقاها والكمان. رغبتُ بها، مارستُ الحبّ معها، من دون أن ألـمسها حتى، أو أن أبلغ النشوة. وليس لأنّني الرجل الأكثر إخلاصاً على وجه الأرض، بل لأنّ ذاك كان السبيل الذي تلاقى فيه جسدانا، فيما الملائكة تسهر علينا.

للمرّة الثالثة تلك الليلة- الأولى عندما طافت روحي مع نسر بايكال، والثانية عندما سمعت لحن الطفولة- كان الوقت قد توقّف. كنتُ هناك بكلّيتي، بلا ماضٍ أو مستقبلٍ، مُختبرًا الموسيقا معها، تلك الصلاة العفوية، والشعور بالامتنان لانطلاقي في رحلة السعي إلى مملكتي. استلقيتُ على السرير، وأكملت هي العزف، وغلبتني عيناي نُعاسًا على صوت الكمان.

استيقظت عند أشعّة الشمس الأولى، وذهبت إلى غرفتها، فرأيتُ الوجه منها. بدت، وللمرّة الأولى، كامرأةٍ عاديّةٍ في الحادية والعشرين من عمرها. أيقظتها بهدوءٍ وطلبت إليها أن ترتدي ثيابها، إذ كان ياو في انتظارنا لتناول الفطور. توجّب علينا العودة إلى إركوتسك. وسيغادر القطار بعد بضع ساعاتٍ.

ننزل إلى أسفل ونتناول سمكاً مخلّلاً عند الفطور (الخيار الأوحد على القائمة في تلك الساعة)، ثمّ نسمع صوت محرّك السيارة التي أتت لتقلّنا وهي تركن في الخارج. يلقي السائق علينا التحيّة ويلتقط حقائبنا عن الأرض، ويضعها في الصندوق.

نخرج من الفندق إلى أشعّة الشمس الوهّاجة، إلى سماءٍ صافيةٍ ولا رياح. نرى بوضوح الجبال البعيدة المكسوّة ثلجًا. أتوقّف لبرهة لأودّع البحيرة، عارفًا أنّني قد لا أعود إلى هنا أبدًا. يدخل ياو وهلال السيارة، ويدير السائق المحرّك.

لكنّي متسمّر.

«من الأفضل لنا أن نذهب. أضفتُ ساعةً إلى الوقت الذي سيستغرقنا، في حال وجود حادثٍ في طريقنا، لكن لا أريد المخاطرة بتفويت القطار».

البحيرة تناديني.

يترّجل ياو من السيارة ويتوجّه نحوي.

«لعلّك كنت تتوقّع أكثر من لقاء أمس مع الشامان، لكنّه كان مهمًا جدّاً بالنسبة إليّ».

في الواقع، توقّعت أقلّ. سأخبره لاحقاً بما حدث مع هلال. أمّا الآن، فأنا أنظر إلى البحيرة وهي تبزغ مع بزوغ الشمس، وإلى مياهها التي تعكس كلّ شعاع نور. ومع أنّ روحي قد زارتها محمولةً على جناح نسر بايكال، أريد أن أعمّق معرفتي بها.

يُتابع: «لا تأتي الأمور دومًا على قدر توقعّاتنا. لكن أنا ممتنّ لمجيئك».

«أمِنَ الممكن الانحراف عن الطريق التي رسمها الله؟ نعم، ولكنّه خطأ. أمِنَ الممكن تجنّب الألم؟ نعم، ولكنّك لن تتعلّم شيئًا. أمِنَ الممكن معرفة شيء لم تختبره قط؟ نعم، ولكن لن يكون فعلاً جزءًا منك».

وبتلك الكلمات، أمشي نحو المياه التي لا تكفّ عن مناداتي. أمشي ببطءٍ وتردّدٍ أوّلاً، غير واثقٍ إن كنت سأبلغها. وإذْ أشعر بأنّ عقلي يُمانعني، أحثّ خطاياي ثمّ أشرع فجأةً في الركض فيما أخلع ثيابي الشتويّة. مع بلوغي حافّة البحيرة، أكون مجرّدًا من اللباس باستثناء سروالي الداخلي. أتردّد للحظةٍ، لجزءٍ من ثانيةٍ، لكنّ شكوكي ليست قويّةً بما يكفي لتمنعني من التقدّم. تلمس المياه الباردة القارسة قدميّ، ثم كاحليّ. قعر البحيرة مليءٌ بالحصى مما

يُصعّب عليّ الحفاظ على توازني. لكنّني أواصل التقدّم إلى أن تصبح المياه عميقة إلى حدٍ كافٍ لكي أغطس!

يدخل جسمي المياه المتجمّدة، وأحسّ وكأنّ مئة إبرةٍ وإبرةٍ تَخِزُ جلدي، أبقى في عمق الماء ما أمكن لي، لثوانٍ ربّما، وربّما لأبد، ثمّ أعود إلى السطح.

الصيف! الحرّ!

أدرك لاحقًا أنّ كلّ من ينتقل من مكانٍ باردٍ جدًا إلى مكانٍ أكثر دفئاً، يختبر الإحساس عينه. كنت هناك، بلا قميص، وكانت ركبتاي غارقتين في مياه بحيرة بايكال، كنتُ سعيدًا سعادة طفل، لأنّ طاقةَ التحفتني وأصبحت جزءًا منّي.

كان ياو وهلال قد تبعاني وراحا يشاهدانني مرتابين من على الضفّة.

«هيّا! انزلا!».

يبدآن بخلع ثيابهما. لا تلبس هلال ثيابًا تحتيّة، وها هي عارية تمامًا مرة أخرى. ولكن ما الهمّ؟ يتجّمع أشخاصٌ على الرصيف ويراقبوننا. ولكن من يهتمّ؟ البحيرة لنا وحدنا. العالم لنا وحدنا.

ينزل ياو أوّلاً. ولجهله أنّ قعر البحيرة غير مستو، يقع. ينهض، يخوض المياه قليلاً، ثمّ يغطس. لا بُدّ أن هلال سبحت فوق الحصى، إذ ترتمي في المياه على عجلة، إلى مسافة أبعد من كلينا، لتغطس من ثمّ إلى العمق. ثمّ، تبسط ذراعيها نحو السماء وتضحك كالخرقاء.

لم ينقضِ أكثر من خمس دقائق من لحظة شروعي بالركض نحو البحيرة، إلى حين طلعنا على سطح المياه. أمّا السائق الشديد القلق، فيأتي مسرعاً إلينا، حاملاً مناشف اقترضها على عجلةٍ من الفندق. نقفز بابتهاجٍ، نتعانق، نغنّي ونصرخ ونقول: «يا للطقس الحارّ!»، تماماً كالأطفال الذين كنّا ولا نزال.

المدينة

أضبط ساعتي، للمرّة الأخيرة في هذه الرحلة. إنّها الخامسة فجرًا، في ٣٠ أيار/مايو ٢٠٠٦. في موسكو، حيث توقيتها يسبق توقيتنا بسبع ساعاتٍ، لا يزال الناس يتناولون العشاء على أنّه ليل ٢٩ من الشهر.

استيقظ جميع من في المقطورة باكرًا، واستحال عليهم العودة إلى النوم، ليس بسبب حركة القطار التي ألِفناها، بل لأنّنا سنصل بعد قليل إلى وقفتنا الأخيرة، إلى ڤلاديڤوستوك. قضينا اليومين الأخيرين في المقطورة نجلس إلى الطاولة في الغالب، وقد مثّلت مركز الكون لنا في هذه الرحلة التي بدت بلا نهاية. تناولنا الطعام، وأخبرنا قصصًا، ووصفتُ لهم ما كان شعوري بالغطس في بحيرة بايكال، غير أنّ الآخرين كانوا مهتّمين أكثر بقصّة لقائنا بالشامان.

كان لدى ناشريّ فكرةٌ عظيمة: سيُبلغان مسبقًا المحطّات على دربنا بوقت وصولنا. وبذلك، نهاراً كان أم ليلاً، سنخرج من القطار ونجد أشخاصًا في انتظارنا عند مدخل المحطة ومعهم كتبٌ للتوقيع. شكروني وشكرتهم. أحياناً، كان يستغرق ذلك خمس دقائق فقط، وأحياناً عشرين. منحوني بركاتهم وقد قبلتها بامتنانٍ. أتت البركات من شتى الناس، من سيدات كبيرات السنّ في

معاطف طويلة، وجزمات، وأوشحة رأس؛ من شباب غادروا عملهم من توّهم أو كانوا يتوجّهون إلى منازلهم، وهم يرتدون سترةً فقط كالعادة وكأنّهم يقولون: «أنا أقوى من أن ينال البرد مني».

في اليوم السابق، كنتُ قد قرّرت أن أتمشى في طول القطار كلّه. أمرٌ فكّرت في فعله مرّات عدّة، ولكنّي دائمًا ما أرجأته ليومٍ آخر، بما أنّ رحلتنا كانت طويلة. ثمّ، أدركتُ أنّنا على وشك الوصول إلى وجهتنا الأخيرة.

طلبت من ياو مرافقتي. فتحنا أبوابًا كثيرةً وأغلقناها، أبوابًا لا تُحصى. عندئذٍ فقط أدركتُ أنّني لم أكن على متن قطارٍ وحسب، بل كنتُ في مدينةٍ وبلدٍ وفي عالمٍ متكاملٍ. كان عليّ القيام بذلك من قبل، لكانت الرحلة أغنى، ولكنتُ تعرّفتُ أشخاصًا فاتنين وسمعتُ قصصًا قد أحوّلها كتبًا لاحقًا.

قضيت بعد الظهر بكامله وأنا أتفحّص تلك المدينة على عجلات، ولا أتوقّف إلاّ لدى توقّفنا عند محطةٍ ما، فأترجّل من القطار لمقابلة قرّاء ينتظرون. جُلتُ عبر تلك المدينة العظيمة كما فعلتُ عبر كثيرٍ غيرها، ورأيت كلّ المشاهد المعتادة: رأيت رجلاً يتحدّث عبر هاتفه الجوّال، فتى يركض مسرعًا لجلب شيء نسيه في حجرة العشاء، أماً تحتضن طفلاً، حبيبَيْن يتبادلان القبل في الممرّ الضيّق خارج المقصورات، غافليْن عن المنظر الطبيعي الذي يعبر خارجًا، أصوات المذياع الصاخبة، وإشارات لم أستطع فهمها، أشخاصاً

يقدّمون أشياءً ويطلبونها، رجلا ذا سنّ ذهبية يضحك مع أصدقاءٍ له، امرأةً تضع وشاحًا وتبكي فيما تحدّق إلى الفضاء. دخّنتُ بضع سجائر مع مجموعة من الأشخاص المنتظرين قرب الباب الضيّق المؤدّي إلى المقطورة التالية، فيما تأمّلت خِفيةً أولئك الرجال المفكّرين المتأنّقين، الذين بدوا وكأنّهم يحملون عبء العالم على أكتافهم.

عبرتُ تلك المدينة التي امتدّت كمثل نهرٍ حديديٍّ لا ينتهي، مدينة لا أتكلّم لغتها المحلّية، ولكن ما الهمّ؟ فقد سمعتُ كلّ أنواع اللغات والأصوات، ولاحظتُ، شأن كلّ المدن الكبيرة، أنّ معظم الناس، لا يتبادلون الكلام. كلّ راكب مستغرق في مشكلاته وأحلامه، مجبرٌ على مشاطرة المقطورة عينها مع ثلاثة غرباء تماماً، أشخاص لن يقابلهم ثانيةً، لديهم مشكلاتهم وأحلامهم ليناضلوا من أجلها. ومهما شعروا بالبؤس والوحدة، فهم راغبون بأن يشاركوا أحدهم فرح انتصارهم في أمرٍ ما، أو كآبتهم من حزن مُطبِق. من الأفضل والآمن دومًا التزام الصمت.

قرّرت أن أستهلّ حديثًا مع أحدهم، امرأةٍ من عمري تقريبًا. سألتها إنْ كانت تعلم في أي جزءٍ من البلد كنّا نمرّ. يشرع ياو بترجمة كلماتي، ولكنّي أوقفه. أردتُ أن أتخيّل ما ستكون عليه الرحلة لو كنتُ فيها بمفردي. وتساءلتُ، أكنتُ لأُتمّها؟

قامت المرأة بحركةٍ تشير إلى أنّها لم تستطع سماعي من الصوت المدوّي لاحتكاك العجلات بالسكّة الحديديّة. كرّرتُ سؤالي، وقد سمعتني هذه المرّة لكنّها لم تفهم. من الواضح أنّها خالتني مخبولاً

نوعًا ما، فابتعدت عنّي مسرعة.

حاولتُ مع شخصٍ ثانٍ، وثالث. طرحتُ سؤالاً مختلفًا: لـمَ هم مسافرون وماذا يفعلون على متن القطار؟ لم يفهم أحدٌ سؤالي، ولكنّي كنت مسرورًا بطريقةٍ ما، فقد كان في السؤال غباءٌ بعض الشيء. كانوا جميعًا يعلمون ما الذي يفعلونه وإلى أين يتوجّهون، وحتّى أنا علمتُه، مع أنّني على الأرجح لم أبلغ المكان الذي أردت بلوغه. وإذا بشخصٍ يشقّ طريقه في الممرّ الضيّق، يسمعني أتكلّم الإنجليزيّة، فيتوقّف ويقول لي بهدوء:

«هل لي بمساعدتك؟ هل أنت تائه؟».

«لا، لست تائهًا. لكن أين نحن تحديدًا؟».

«إنّنا على الحدود الصينيّة وسنتّجه بعد قليلٍ جنوباً نحو ڤلاديڤوستوك».

شكرته وأكملتُ طريقي. أقلّه نجحتُ في القيام بمحادثةٍ مقتضبةٍ، ممّا يعني أنّه كان بإمكاني السفر في هذا القطار بمفردي. لن أتيه مطلقًا ما دام الناس على استعداد لمساعدتي.

سِرتُ عبر تلك المدينة التي تبدو بلا نهاية، وعدتُ إلى النقطة من حيث كنت قد انطلقت، محمّلاً بالابتسامات والنظرات والقبلات والموسيقا وجلبة الكلمات، وكذلك بالغابة التي تعبر في الخارج والتي قد لا أراها مطلقًا مرة أخرى، مع أنّها سترافقني مدى الحياة في عينيّ عقلي وقلبي.

عدتُ إلى الطاولة التي مثّلت مركز كوننا، وكتبت بضعة أسطرٍ وألصقتها على المرآة حيث يضع ياو أفكاره اليوميّة دومًا.

* * * *

إنّني أقرأ ما كتبته البارحة بعد أن تمشّيت في القطار.

لست أجنبيًا لأنّني لم أكن أُصلي لكي أعود سالمًا إلى دياري، ولم أهدر وقتي في تخيّل منزلي وطاولة مكتبي وجانبي من السرير. لست أجنبيًا لأنّنا جميعنا مسافرون، تساورنا الأسئلة نفسها، التعب نفسه، المخاوف نفسها، الأنانيّة نفسها والكرم نفسه. لست أجنبيًا لأنّني، عندما طلبتُ وجدتُ، وعندما قرعتُ الباب فُتح لي، وعندما بحثتُ عثرتُ.

أذكر جيدًا، أنّ هذه الكلمات كانت كلمات الشامان. قريبًا ستعود هذه المقطورة إلى المكان الذي أتت منه. وستختفي هذه الورقة حالما يصل عمّال التنظيف. ولكنّني لن أنسى ما كتبتُ، لأنّني لست أجنبيًا ولن أكون أجنبيّاً يومًا.

* * * *

لازمتْ هلال مقصورتها في الغالب، تعزف الكمان بتسعُّرٍ. بدا لي أحيانًا أنها تتحدّث إلى الملائكة ثانيةً، وفي أحيانٍ أخرى ظننتُ أنّها كانت تتمرّن للحفاظ على تقنيّتها فحسب. في طريق عودتنا إلى

إركوتسك، لم يعترِني أدنى شكّ بأنني لم أكن أحلّق بمفردي مع نسر بايكال. فروحانا - روحي وروحها - كانا قد شاهدا الروائع نفسها.

في الليلة السابقة، سألتها مجدّدًا إن كان بإمكاننا تشاطر الفراش. كنتُ قد حاولت ممارسة تمرين حلقة النور بمفردي، ولكنّني لم أفلح، فيما عدا القيام بزيارةٍ غير مقصودة للكاتب الذي كنته في القرن التاسع عشر في فرنسا. كان (أو كنتُ) على وشك الانتهاء من كتابة مقطع:

اللحظات التي تسبق النوم تشبه الموت إلى حدٍّ بعيد. يغلبنا سبات ويستحيل علينا التكهّن متى سيأخذ «الأنا» منّا شكلاً جديدًا. أحلامنا حياة ثانية لنا. أنا عاجز عن عبور الأبواب التي تقودنا إلى ذلك العالم اللامرئيّ من دون أن أرتعش.

في تلك الليلة، استلقت بقربي، أسندتُ رأسي على صدرها وبقينا على هذه الحال في صمتٍ، كما لو كانت روحانا تعرف الواحدة الأخرى منذ زمن، بلا حاجةٍ إلى الكلمات، بل إلى الاتصال الجسدي فقط. نجحتُ أخيرًا في أن أجعل الحلقة الذهبيّة تحملني إلى المكان الذي أردتُ أن أكون فيه بالتحديد: بلدةٍ صغيرةٍ خارج قرطبة.

يُصدَرُ الحكم علنًا وسط الساحة، كأنّه يومُ احتفالٍ شعبي.
الفتيات الثماني، اللاتي يرتدين فساتين بيضاء تصل إلى كواحلهنّ، يرتعشن من البرد، ولكنّهنّ سرعان ما سيختبرن نيران الجحيم، سيشعلها رجالٌ يعتقدون أنّهم يفعلون فعلتهم باسم السماوات.
طلبتُ من رئيسي أن يعفيني من التواجد هناك، مع أعضاء الكنيسة الآخرين. لم يستلزم الأمر الكثير من الإقناع. أعتقد أنّه لا يزال غاضبًا منّي بسبب جُبني، وهو مسرورٌ بأن يراني أدير ظهري. إنّني أختلط بالحشود، والخجل يتربّص بي، وقلنسوة ردائي الدومينيكيّ لا تزال تغطّي رأسي.

كان مشاهدون فضوليّون من البلدات المجاورة يتوافدون طوال النهار، وبحلول الغسَق، تكون الساحة مكتظّة. يرتدي النبلاء، الجالسون على المقاعد المخصّصة لهم في الصفّ الأماميّ، أكثر الملابس ألوانًا. كانت النسوة قد حظين بالوقت الكافي لتصفيف شعرهنّ وللتبرّج، لكي تُعجَب الحشود بما يعتقدنه أنّه أجمل جمالهن. في عيون الحاضرين ما يفوق الفضول؛ يظهر أنّ الإحساس المشترك بين الجميع ما هو إلاّ رغبة في الانتقام. وذلك ليس مجرّد شعور بالارتياح لرؤية المذنب ينال عقابه، بل هو فرح، إذ يصدف أنّ المذنب فتيات شابّات، جميلات، مثيرات للشهوة، من عائلاتٍ فاحشة الثراء. هنّ

يستحققن العقاب لأنّهنّ يملكن كلّ ما خلّفه الموجودون وراءهم في صباهم أو لم يحظوا به قطّ. فلنثأز إذاً من الجمال! ولنثأز سعادةً وضحكاً وأملاً لأنفسنا. لا مكان في هذا العالم لمشاعر تفضح حقيقة من نكون، بؤساء، محبَطين وعاجزين.

يُقيم المحقّق قدّاسًا باللغة اللاتينيّة. تُقاطع عِظتَه صرخاتٌ، عظةً يتحدّث فيها عن العقوبات المهولة التي ستقع على من وُجِدنَ مذنبات بجرم الهرطقة. تعلو الصرخات من ذوي الفتيات اللواتي على وشك أن يُحرقن. كانوا قد أُبعدوا عن الساحة، لكنّهم تمكّنوا لاحقًا من دخولها.

يوقف المحقّق عظته، ويُطلق الحشد صوت الازدراء والاستنكار، ويتوجّه الحرّاس نحو المتطفّلين ويبعدونـهم.

تصل عربة يجرّها ثيران. تضع الفتيات أياديهنّ وراء ظهورهنّ ليتمّ تقييدها، ثمّ يساعدهن الرهبان الدومينيكيّون في الصعود إلى العربة. يطوّق الحرّاس المركبة ويتراجع الحشد لكي يمرّوا. وتُقاد الثيران وحمولة الموت نحو المحرقة التي سيتمّ إشعالها في حقلٍ قريبٍ.

الفتيات محنيّات الرأس، ولا أستطيع من حيث أقف، أن أعرف إنْ كانت عيونهنّ مغرورقة دموعًا أم خوفًا. عُذّبت إحدى الفتيات بوحشيةٍ منعتها من النهوض إلاّ بمساعدة الأخريات. يَصعب على الجنود الآن السيطرة على الحشد الذي يضحك ويتفوّه بالشتائم

ويرمي بأشياء تتطاير. أرى أنّ العربة ستمرّ إلى جانب المكان حيث أقف. أحاول الرحيل، لكنّ الأوان فات. عددُ الرجال والنسوة والأطفال خلفي هائل، ويحول دون تحرُّكي.

تقترب العربة. وفساتين الفتيات البيضاء قد تلطّخت الآن بالبيض والجعّة والنبيذ وقشور البطاطا. ليرأف الله بهنّ. آملُ أن يطلبن الصفح عن خطاياهنّ ثانيةً عندما تُضرم النار، خطايا ستتحوّل إلى فضائل يوماً ما، لكن لا يسع أيٍّ من الموجودين بيننا الآن أن يتخيّلها. إن طلبنَ الغفران، سيستمع راهبٌ إلى اعترافاتهنّ مرّةً ثانيةً، ويودع أرواحنّ بين أيدي الله. سيُقتلن خنقًا عندئذٍ وجثثهنّ فقط ستُحرق.

إن رفضنَ الاعتراف بذنبهنّ، فسيتمّ حرقهنّ أحياء.

شهدتُ على إعداماتٍ كثيرة، وأرجو أن يكون ذوو هؤلاء الفتيات قد رَشَوا منفّذ الإعدام. إنْ فعلوا، سيسكب القليل من الزيت على الخشب ليسرّع اشتعال النار، فيخنقهنّ الدخان قبل أن تلتهم النيران شعورهنّ، فأقدامهنّ، ثمّ أياديهنّ ووجوههنّ وسيقانهنّ، وأخيراً أجسادهنّ. لكن إن لم يدفعوا أيّ رشوة، ستُحرق بناتهم ببطءٍ وسيتألّمن ألـمًا أبعد من أن يوصَف.

العربة أمامي تمامًا الآن. أحني رأسي ولكن، تراني إحدى الفتيات. يستدرن نحوي جميعًا، وأستعدّ لتلقّي ما أستحقّ من الشتائم والتهجّم لأنّني المذنب الأكبر، المذنب الذي تنصّل من مسؤوليّتهنّ، في حين أنّ كلمةً واحدةً كانت قادرةً على تغيير كلّ شيء.

يناديني باسمي. يستدير الناس من حولي لينظروا إليّ متفاجئين. هل أنا على معرفة بهؤلاء الساحرات؟ ولو لم أكن مرتديًا ثوب الرهبنة الدومينيكيّة، لهاجموني على الأرجح. بعد جزءٍ من الثانية، يُدرك مَن حولي أنّه لا بُدّ لي أن أكون واحدًا ممن أدانوا الفتيات. فيربّت أحدهم على كتفي مهنّئاً، وتقول لي امرأة: «أحسنت! أنت رجلٌ حسن النية».

تستمرّ الفتيات بمناداتي. وإذ سئمتُ التصرّف بجبنٍ، أقرّر أخيراً أن أرفع رأسي وبصري إليهنّ.

عندها، يتجمّد كلّ ما حولي ولا أرى شيئًا آخر.

أفكّر في أخذ هلال إلى حيث الألِف، القريب جدًا، ولكن هل هذا كلّ ما في هذه الرحلة؟ استغلالُ شخصٍ يحبّني، للحصول على إجابة عن سؤال يكدّرني؟ هل سيجعلني ذلك ملكًا على مملكتي مرةً ثانية؟ إن لم أجد الإجابة الآن، سأجدها لاحقًا. لا ريب أنّ ثلاث نساء أخريات ينتظرنني على دربي- إن تحلّيت بالشجاعة الكافية لأكمله- لن أتخلّى طبعًا عن هذا التجسّد من دون الحصول على إجابة.

* * * *

طلع الضوء الآن، ونستطيع رؤية المدينة الكبيرة عبر نوافذ القطار. ينهض الناس من مقاعدهم بلا حماسة، بلا إشارة إلى سرورهم بالوصول. ربّما تبدأ رحلتنا هنا.

القطار، هذه المدينة الحديديّة، يبطىء للتوقّف وقفته الأخيرة هذه المرّة. ألتفت إلى هلال وأقول:

«فلنخرج معًا».

ينتظر الناس عند مدخل المحطّة المسقوف. تحمل فتاة نجلاء العينين ملصقًا بيدها عليه علم البرازيل وبضع كلماتٍ بالبرتغاليّة. يدنو مني الصحافيّون، وأشكر الشعب الروسيّ على لطفه أثناء عبوري قارّته الفسيحة. أتلقّى باقاتٍ كثيرةً من الزهر، ويطلب مني

المصوّرون أن أقف أمام عمودٍ برونزيٍّ ضخمٍ يعلوه نسرٌ ذو رأسين وعلى قاعدته حُفِرَ رقم: ٩٢٨٨.

لا ضرورة لإضافة كلمة «كيلومتر». فكلّ من يصل إلى هنا يعرف معنى الرقم.

الاتصال الهاتفيّ

تُبحر السفينة في المحيط الهادئ بسكونٍ فيما تُبطئ الشمس في مغيبها وراء التلال حيث تقع مدينة ڤلاديڤوستوك. حلّت سعادة غامرة محلّ الحزن الذي خِلتُ أنّني رأيته على رفاقي المسافرين عند وصولنا إلى المحطّة. نتصرّف جميعًا وكأنّها المرّة الأولى التي نرى فيها البحر. لا يودّ أحدٌ التفكير بأنّنا سنتودّع بعد قليل ونقطع وعدًا بالالتقاء ثانيةً عن قريب، علماً أنّ غاية هذا الوعد هي تسهيل الفراق فحسب. توشك الرحلة على الانتهاء، وتكاد هذه المغامرة تعرف خاتمة، وفي ثلاثة أيّام سيعود كلّ منّا إلى منزله حيث سنعانق عائلاتنا، ونرى أطفالنا، ونتصفّح الرسائل التي تكدّست أثناء غيابنا، ونعرض مئات الصور التي التقطناها، ونخبر قصصنا عن القطار والمدن التي عبرنا، والأشخاص الذين قابلنا على الدرب.

وكلّ ذلك لمجرّد إقناع أنفسنا بأنّ الرحلة حدثت فعلاً. بعد ثلاثة أيّام أُخَر، حالما نعود إلى رتابة حياتنا، سنشعر وكأنّنا لم نرحل قطّ ولم نقم بتلك الرحلة الطويلة. رغم الصور وتذاكر السفر والتذكارات التي بحوزتنا، فإن الزمن- السيد الوحيد، المطلق، الأبديّ، القيّم على حياتنا- سيقول: لم تغادر هذا المنزل قطّ، ولا هذه الغرفة أو هذا الحاسوب.

أسبوعان؟ ماذا يشكّلان مقارنةً بحياةٍ كاملة؟ لم تتغيّر الشوارع، ولا يزال الجيران يثرثرون الأخبار نفسها، والصحيفة التي اشتريتَها هذا الصباح لا تزال تحمل الأنباء عينها: مسابقة كأس العالم لكرة القدم توشك على البدء في ألمانيا، الجدال في وجوب السماح لإيران بحيازة سلاحٍ نوويٍ أم لا، الصراع الإسرائيليّ-الفلسطينيّ، آخر فضائح المشاهير، التذمّر المستمّر حول أمورٍ وعدت الحكومة بفعلها، ولكنّها لم تفعلها.

لا، لم يتغيّر شيء. لكن نحن- الذين انطلقنا سعيًا إلى مملكتنا واكتشفنا أراضي لم يسبق لنا أن رأيناها- نعرف أنّنا مختلفون. غير أنّنا كلّما حاولنا الشرح، أقنعنا أنفسنا أنّ هذه الرحلة في ذاكرتنا فقط، ككلّ الرحلات الأخرى. قد نخبر أحفادنا عنها أو قد نؤلّف كتابًا حولها، لكن ماذا سنقول تحديدًا؟

لا شيء، أو ربّما سنركّز على ما جرى في الخارج، وليس على ما تغيّر في الداخل.

قد لا يرى أحدنا الآخر ثانيةً. والشخص الوحيد الذي تسرح الآن عيناه في الأفق هو هلال. لا بدّ أنّها تفكّر بطريقةٍ لحلّ هذه المشكلة. لا. بالنسبة إليها، سكّة ترانس-سيباريان لا تنتهي هنا. لكنّها لا تُبدي مشاعرها، وعندما يحدّثها أحدهم، تردّ عليه بلطفٍ وتهذيبٍ، وذلك أمرٌ لم نشهده قطّ منذ أن عرفناها.

* * * *

يحاول ياو استهلال حديثٍ معها. كان قد قام بمحاولات عدّة، لكنّها كانت تبتعد عنه بعد تبادل بضع كلمات فقط. في النهاية، يستسلم، وينضمّ إليّ:

«ماذا بوسعي أن أفعل؟».

«احترم صمتها فحسب».

«نعم، أوافقك الرأي، ولكن.....».

«أعلم ذلك. في هذه الأثناء، وعلى سبيل التغيير، حاول أن تفكّر بنفسك. تذكّر ما قاله الشامان: لقد قتلتَ الإله. وإن لم تنتهز هذه الفرصة لإحيائه فيك، فستكون هذه الرحلة هدرًا للوقت. أعرف أشخاصًا كثرًا يساعدون آخرين كوسيلة لتجنّب مشكلاتهم».

يربّت ياو على ظهري، كما ليقول لي: «أفهم ذلك»، ثمّ يتركني بمفردي ويحدّق إلى البحر.

الآن وقد بلغتُ النقطة الأبعد من رحلتي، أستشعر مرة أخرى بوجود زوجتي إلى جانبي. بعد ظهر ذلك اليوم، التقيتُ مزيدًا من القرّاء، وحظينا بالحفلة المعتادة، ثمّ زرتُ رئيس البلدة، وللمرّة الأولى، حملتُ بيديّ «كلاشينكوف» حقيقيًا، ذاك الذي يحتفظ به الرئيس في مكتبه. وفيما كنّا نهمّ بالمغادرة، لاحظتُ الصحيفة التي على طاولة مكتبه. لا أفهم كلمةً واحدةً من اللغة الروسيّة، ولكنّ الصور عبّرت عن ذاتها: كرة القدم.

المقرّر أن تبدأ مسابقة كأس العالم بعد بضعة أيّام! وهي

تنتظرني في ميونخ حيث سنلتقي قريبًا جدًا. سأخبرها كم اشتقتُ إليها وسأشرح لها بالتفصيل ما حدث بيني وبين هلال.

ستقول: «أرجوك، سمعتُ هذه الحكاية أربع مرّات من قبل!»، ثمّ سنذهب لشرب كأس في إحدى الحانات الألمانية التي تقدّم الجعّة.

لم أقم بهذه الرحلة للعثور على الكلمات التي تنقصني في حياتي، بل لأكون ملكًا على عالمي ثانيةً. وقد حقّقتُ ذلك؛ عاد إليّ تواصلي مع نفسي ومع الكون السحريّ الذي يحيط بي.

نعم، أمكن لي التوصّل إلى الاستنتاجات عينها حتّى من دون مغادرة البرازيل، ولكن، كما يقول سانتياغو، وهو راعٍ في أحد كتبي، يتعيّن عليكَ أحياناً السفر بعيدًا للعثور عمّا هو قريب. وعندما يعود المطر إلى الأرض، يحمل معه ما في الهواء. الأمور السحريّة والاستثنائيّة في متناولي ومتناول جميع مَن في الكون، لكنّنا ننسى ذلك أحيانًا ونحتاج إلى أن يتمّ تذكيرنا به، حتّى وإن توجّب علينا عبور القارّة الأكبر على وجه الأرض، من جانبٍ إلى جانب. نعود محمّلين بكنوزٍ قد تُطمر من جديد، وقد نُضطرّ عندئذٍ إلى الانطلاق سعيًا وراءها ثانيةً. ذلك ما يُضفي تشويقًا على الحياة: الإيمان بالكنوز وبالمعجزات.

«هيّا بنا نحتفلْ. هل يوجد ڤودكا على متن السفينة؟».

لا، ليس هناك ڤودكا. ترمقني هلال بنظرة غاضبة.

«فلنحتفل بـمَ؟ بكوني سأبقى هنا بمفردي إلى أن يقلّني قطار العودة وأنا أفكّر ليل نهار بكلّ الأوقات التي قضيناها معاً؟».

«لا، أريد الاحتفال بـما اختبرته للتوّ، وأرغب برفع كأسٍ على شرفي. وعليك أن تشربي نخب شجاعتك. انطلقتِ سعيًا إلى المغامرة ووجدتِها. قد تشعرين بالحزن لبعض الوقت ولكن من المؤكّد أنّ أحدهم سيشعل لكِ نارًا على جبلٍ قريبٍ. سترين النور، وتتّجهين نحوه لتجدي الرجل الذي لطالما بحثتِ عنه. أنت شابّة، وشعرتُ أمس أنّها ليست يداكِ التي عزفت الكمان، بل يدا الله. فدعي الله يستخدم يديكِ. سوف تسعدين، مع أنّ اليأس هو كلّ ما تشعرين به الآن».

«لا فكرة لديك البتّة عن حقيقة شعوري. أنت مجرّد مغرور، يحسب أنّ العالم يدين له بشيء. وهبتُك نفسي بكلّيتها، ومع ذلك، ها أنذا من جديد، أُترك بلا حولٍ ولا قوّة».

لا جدوى من الجدال، أدرك أنّها على حقّ. هكذا ستجري الأمور. فأنا في التاسعة والخمسين، وهي في الحادية والعشرين.

* * * *

نعود إلى المكان الذي ننزل فيه. ليس فندقاً هذه المرّة، بل منزل واسع بُني عام ١٩٧٤ لغايات مؤتمرٍ حول نزع السلاح، عُقد بين ليونيد بريجنيف، الأمين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي حينها، وبين جيرالد فورد، الرئيس الأميركيّ آنذاك. المنزل مبنيّ بأكمله

من رخامٍ أبيض، تتوسّطه ردهةٌ كبيرةٌ ومجموعة غرف يُفترض أنّها كانت مخصّصة للوفود السياسيّة. أمّا الآن فقد تحوّلت إلى غرفٍ لاستقبال الضيوف العابرين.

نقرّر الاستحمام، وتبديل ثيابنا ثمّ الخروج توًا لتناول العشاء في المدينة، بعيدًا عن هذا الجوّ الجامد. يقف رجل وسط الردهة. يتوجّه نحوه ناشراي، في حين أبقى وياو على مسافةٍ حريصةٍ منه.

يُخرج الرجل هاتفه الجوّال من جيبه ويطلب رقمًا. يتحدّث ناشري باحترامٍ عبر الهاتف، وعيناه تلمعان فرحًا. تعلو الابتسامة وجه محرّرتي أيضًا. يتردّد صوت ناشري في أرجاء الغرفة الرخاميّة.

أسأله: «ما الذي يجري؟».

يُجيب ياو: «ستكتشف ذلك خلال دقائق».

يُنهي الناشر الاتصال ويتّجه نحوي مبتسمًا.

يقول: «سنعود إلى موسكو غداً. علينا التواجد هناك بحلول الخامسة عصرًا».

«ألـم يكن مُفترضاً أن نبقى هنا لبضعة أيّام؟ لم يتسنَّ لي الوقت حتّى لأجول في أرجاء المدينة. كما أنّ الرحلة جوًا إلى موسكو تستغرق تسع ساعات. فكيف لنا أن نصل إلى هناك بحلول الخامسة؟».

«إن فارق التوقيت بيننا وبين موسكو سبع ساعات. إنْ غادرنا عند الظهر، سنصل إلى هناك عند الثانية. لدينا متّسع من الوقت. سألغي حجوزاتنا في المطعم لهذا المساء وأطلب تقديم العشاء هنا. أمامي الكثير لأنظّمه».

«لكن لِم العجلة؟ فالطائرة التي ستقلني إلى ألمانيا تغادر...»

يقاطعني قائلاً:

«يبدو أنّ الرئيس ڤلاديمير پوتين قرأ كلّ ما يخصّ رحلتك ويودّ مقابلتك».

«وماذا عنّي؟».

يلتفتُ ناشري إلى هلال.

«كان قرارك أن ترافقينا وتعودي كيفما تريدين ومتى تريدين. هذا لا علاقة لنا به».

الرجل بالهاتف الجوّال قد اختفى. يرحل ناشراي ومعهما ياو. أنا وهلال وحدنا في وسط ذلك الممرّ الرخامي المُطبِق الواسع.

حدث كلّ شيء بسرعة لدرجة أننا لم نتعافَ بعد من الصدمة. لم يكن عندي أيّ فكرة أنّ الرئيس پوتين كان على علمٍ برحلتي. تعجز هلال عن التصديق أنّ الأمور ستنتهي بهذه الحديّة، بهذه الفُجائية، من دون أن تسنح لها فرصة أخرى للكلام معي عن الحبّ، ولشرح مدى أهميّة كلّ شيء اختبرناه في حياتنا، وأنّه عليّ المضيّ، حتّى وإن كنتُ متزوّجًا. هذا، أقلّه، ما يُخيّل إليّ أنّه يدور في فكرها.

«لا يمكن لك أن تفعل هذا بي! لا يمكن لك أن تتركني هنا فحسب! قتلتني يومًا لأنّك لم تتحلَّ بالشجاعة لتقول «لا»، والآن سوف تقتلني مرّة ثانية!».

تهرع راكضةً إلى غرفتها، وأخشى حدوث الأسوأ. إن كانت جدّية، فكلّ شيء مُحتمَل. أريد أن أهاتف ناشري وأطلب إليه أن

يبتاع لها تذكرة، وإلاّ، فقد نُواجَه بمأساةٍ مرعبة، وعندئذٍ، لن يكون من لقاءٍ مع پوتين، ولا مملكة، ولا فداء، ولا استيلاء. وستنتهي مغامرتي الكبرى في انتحارٍ وموت. أركض إلى غرفتها الكائنة في الطابق الثاني، لكنّها سبق أن فتحت النافذة.

«توقّفي! لن تقتلي نفسك إن قفزتِ من هذا الارتفاع، ستُمسين مُقعدةً بقيّة حياتك».

هي لا تُصغي. عليّ أن أحافظ على هدوئي وأتحكّم في الوضع. عليّ أن أكون سُلطويًا بقدر سلطتها عندما كانت في بايكال، عندما أمرتني ألاّ أستدير وأراها عارية. ألف فكرةٍ وفكرةٍ تدور في ذهني، وأتّخذ الطريق الأسهل.

«اسمعي، أنا أحبّكِ. لن أتركَكِ هنا وحدك مطلقًا».

هي تعرف أنّ هذا غير صحيح، لكنّ كلماتي عن الحبّ تولّد تأثيرًا آنيًا.

«أنتَ تحبّني كنهرٍ، كما قلت، لكنّي أحبّكَ حب امرأةٍ لرجل».

لا ترغب هلال في الموت. فلو رغبت به، ما كانت لتقول شيئًا. لكن عدا الكلمات التي نطقت بها، صوتها يقول: «أنتَ جزء منّي، الجزء الأهمّ، وهو يُهجَر. لن أكون أبدًا الشخص الذي كنتُه». هي على خطأ فعلاً، لكنّها ليست اللحظة المناسبة لقول شيء لن تفهمه.

«وأنا أحبّكِ حبّ رجلٍ لامرأة، كما أحببتكِ من قبل وكما سأحبّك دومًا بدوام وجود العالم. شرحتُ لك مرّة: الزمن لا يمرّ. أعليّ أن أكرّرها؟».

تستدير.

«تلك كذبة. الحياة حلم لا نستفيق منه إلاّ عندما نلتقي الموت. الزمن يمرّ فيما نحيا. أنا موسيقيّة وعليّ أن أتعامل مع زمن النوتّات الموسيقية كلّ يوم. لو لم يكن الزمن موجودًا، لانتفى وجود الموسيقا».

هي تتحدّث بتماسكٍ الآن. وأنا أحبّها فعلاً. لا بصفتها امرأة، لكنّي أحبّها.

أقول: «ليست الموسيقا تتابعًا من النوتّات. إنّها الحركة الثابتة لنوتة بين الصوت والصمت».

«وأنـّى لكَ أن تعرف الموسيقا؟ حتّى وإن كنتَ على صواب، فما النفع الآن؟ أنت سجين ماضيك، وأنا كذلك. إن أحببتُكَ في حياةٍ ما، سأظلّ على حبّي لك إلى أبد! لا قلب لي، ولا روح، لا شيء! الحبّ كلّ ما أملك. تخالني موجودة، لكنّه مجرّد وهمٍ بصري. ما تراه هو الحبّ بأصفى حالاته، يصبو إلى التجلّي، لكن ما من زمانٍ أو مكانٍ ليكون بوسعه أن يتجلّى».

تبتعد عن النافذة وتروح تخطو الغرفة جيئةً وذهابًا. لا نيّة لها في رمي نفسها من النافذة الآن. وفيما عدا وقع قدميها على الأرضيّة الخشبية، كلّ ما أستطيع سماعه هو تكتكة ساعةٍ بغيضة، مُثبِتةً أنني مخطئ بشأن الزمن. الزمن موجود فعلاً، وفي تلك اللحظة

بالذات، يستهلكنا بشدّة. أحتاج إلى ياو، الذي لا تزال ريح الوحدة السوداء تعصف في روحه، ولكنّه يُسَرُّ دومًا متى أمكن له مساعدة الغير. يمكن له أن يهدّئها.

«ارجع إلى زوجتك! ارجع إلى المرأة التي لازمت جانبك دومًا في الأفراح والأتراح! هي كريمة، مُحبّة، متساهلة. وأنا كلّ ما تكره: مُعقّدة، عدائيّة، مهووسة، وعلى كلّ شيء قديرة!».

«بأي حقّ تتحدّثين عن زوجتي؟».

أفقد السيطرة على الوضع من جديد.

«سأقول ما يحلو لي. ما أمكن لك أن تتحكّم بي يومًا، ولن تتمكّن!».

حافِظ على هدوئك. واصِل الكلام وسوف تهدأ. لكنّي لم أصادف أحدًا من قبل بمثل هذه الحالة. أجرّب وجهةً أخرى:

«اسعدي إذًا لأنّ لا أحد يستطيع التحكّم فيك. احتفي بكونك باسلة بما يكفي لتخاطري بمسيرتك المهنيّة وتنطلقي سعيًا إلى المغامرة، وإيجادها أيضًا. تذكّري ما قلتُه في القطار: يومًا ما، أحدٌ ما، سيُشعل النار المقدّسة لك. ومن الآن فصاعدًا، لن تكون أصابعك ما يعزف الكمان، بل الملائكة. دعي الله يستخدم يديك. في النهاية، ستزول مشاعر المرارة التي تنتابك، والشخص الذي وضعه المصير في دربك، سيأتي حاملاً باقة سعادة في يديه، وعندها سيكون كلّ

شيء على ما يرام. الآن، تشعرين باليأس وتعتقدين أنّني أكذب، لكن، هذا ما سيكون عليه الأمر».

فات الأوان.

قلتُ بالضبط الشيء الخطأ الذي يُمكن تلخيصه بكلمة: «انضجي». ما من امرأة عرفتها يومًا كانت لتقبل بهذه النصيحة.

تلتقط هلال مصباحًا كهربائيًا من معدنٍ ثقيل، تنزع وصلته من الحائط، وتقذف به في اتّجاهي. أتـمكّن من التقاطه قبل أن يلطم وجهي، لكنها الآن تلكمني بأشدّ ما يمكنها. أُوقع المصباح وأحاول الإمساك بذراعيها، لكنّي أفشل. تنال ضربة قبضتها من أنفي، ويتطاير الدم في كلّ الاتجاهات.

كلانا مغطّى بالدم.

روح تركيا سيمنح زوجك كلّ الحب الذي يملك، لكنه سيُريق دمَهُ قبل أن تُظهر له ما تسعى إليه.

«حسنٌ، تعالي معي!».

* * * *

نبرة صوتي تغيّرت تمامًا. تكفّ عن ضربي. أُمسكها من ذراعها وأجرّها خارج الغرفة.

«تعالي معي!».

لا وقت للشروح. أنزل السلالم راكضًا، آخذًا هلال معي. تبدو الآن خائفةً أكثر من كونها غاضبة. قلبي يخفق بشدّة. نخرج من

المبنى على عجلة. السيارة التي من المفترض أن تُقلّني إلى العشاء، لا تزال منتظرة.

«إلى محطّة القطار!».

ينظر إليّ السائق غير مستوعبٍ. أفتح الباب، أقذف بهلال إلى الداخل، وأدخل خلفها.

«قولي له أن يأخذنا إلى محطّة القطار مباشرة!».

تكرّر كلماتي بالروسيّة، فيُذعن.

«قولي له أن يتجاهل أي حدودٍ للسرعة. سأعوّض عليه لاحقًا. علينا أن نصل إلى هناك بسرعة!».

يروق للرجل ما يسمعه على ما يبدو. يُسرّع سيره كما لو كان في سباق، العجلات تزعق عند كلّ منعطف، وسيارات أخرى تتوقّف كبحًا لدى رؤيتها إشارة السيارة الرسمية. لديه صافرة يضعها على سقف السيارة، وسط دهشتي. أصابعي تحفر ذراع هلال.

تقول: «أنت تؤلمني!».

أخفّف ضغط أصابعي. وأصلّي سائلاً الله أن يُعينني، لكي أضمن وصولي في الوقت المحدّد، وأن يكون كلّ شيء كما يجدر به أن يكون.

تتكلّم هلال معي، تتوسّلني أن أهدأ، تعتذر عن تصرّفها، قائلةً إنها لم تكن تعتزم فعلاً قتل نفسها، وأنّ كلّ هذا كان تمثيلاً. ما من أحدٍ يُحبّ آخر بحقّ، يقوم بتدميره أو تدمير نفسه، ولم تكن

لتدعني مطلقًا أحيا تجسُّدًا آخر أقاسي فيه وألوم نفسي على ما حصل. مرّة واحدة كانت كافية. حبّذا لو أتمكّن من الردّ، لكنّي لا أتابع فعلاً ما تقول.

بعد عشر دقائق، تتوقّف السيارة كبحاً زاعقةً خارج محطّة القطار.

أفتح الباب، أسحب هلال خارج السيارة ومنها إلى المحطة، حيث نجد حاجز الموقف المسقوف مقفلاً. أحاول أن أندفع عبره، لأرى حارسين ضخمين وقد تحرّكا صوبنا. تتركني هلال للحظة، وللمرّة الأولى خلال الرحلة كلّها، أشعر بالضياع، غير واثق مما أفعل. أحتاج إليها بجنبي. من دونها، لا شيء، لا شيء مطلقًا سيكون ممكنًا. أجلس على الأرض. ينظر الرجلان إلى وجهي وثيابي الملطّخة دمًا. يأتيان إليّ، يُشيران عليّ بالوقوف، ويشرعان في طرح الأسئلة. أحاول أن أشرح لهما أنني لا أتكلّم الروسيّة، لكنّ عدوانيّتهما تزداد. يبدأ أشخاص آخرون بالتجمّع ليشاهدوا ما يجري.

تظهر هلال من جديد برفقة السائق. لا يرفع صوته، لكن ما يقوله للحارسين يُبدّل موقفهما جذريًا. ليس لديَ وقتٌ أهدره. ثمّة ما عليّ فعله. يُبعد الحارسان المتفرّجين جانبًا. الطريق أمامنا مفتوحة الآن. أُمسك بيد هلال ونعبر المدخل المسقوف، نركض إلى أقصاه، حيث الظلام يلفّ كلّ شيء. ولا ألمح سوى المقطورة الأخيرة في هذا السواد.

نِغَمَ الأمر! لا تزال هنا!

أطوّق هلال بذراعيّ فيما أحاول التقاط أنفاسي. قلبي ينبض بهياج من جرّاء الجهد الجسدي ومن الأدرينالين الذي يسري في عروقي. أشعر ببعض الدوار. لم أتناول الكثير عند الغداء، لكن يجب ألاّ أفقد وعيي الآن. روح تركيا سيريني ما أحتاج إلى رؤيته. تداعبني هلال كما لو كنت طفلاً، تقول لي أن أهدأ، وأنّها إلى جانبي وما من أذىً سينال مني.

آخذ نفسًا عميقًا، ويعود نبضي إلى حالته الطبيعية تدريجًا.

«تعالي معي».

الباب مفتوح. لن يجرؤ أحد على الصعود إلى قطار في روسيا لكي يسرق أيّ شيء. ندخل المقطورة. أجعلها تقف وظهرها إلى الحائط في الردهة، كما فعلتُ في أوّل تلك الرحلة اللامنتهية. وجهانا متقاربان جدًا، كما لو أنّ خطوتنا الثانية ستكون بتبادل قبلة. ينعكس نورٌ بعيد في عينيها، لعلّه من مصباح في مدخل آخر.

ومع أننا في ظلام حالك، سنتمكّن من أن نرى. إنّه هنا حيث الألِف. يُبدّل الزمن تردُّده فجأة، ونندفع بسرعة في نفق قاتم. هي تعلم ما الذي يجري، ولذا لن ترتعب.

«أمسكي بيدي، ولنذهب معًا إلى العالم الآخر، الآن!».

تَظهَرُ جِمالٌ وصحارى، أمطار ورياح، نافورة في قرية من البيرينيه، الشلاّل في موناستيريو دي پيدرا، الساحل الإيرلندي،

زاوية شارع في ما يبدو أنّها لندن، نساء على درّاجات نارية، نبيّ يقف عند أسفل الجبل المقدّس، الكاتدرائية في سانتياغو دي كومبوستيلا، مومسات في انتظار زبائن في جينيف، ساحرات يرقصن عاريات حول نار، رجل يستعدّ لإطلاق النار على زوجته وعشيقها، سهوب بلدٍ ما في آسيا، حيث امرأة تحوك سجّادًا جميلاً فيما تنتظر عودة زوجها، مجانين في مستشفى، البحار بكلّ أسماكها والكون بكل نجمة ونجمة، صوت أطفال يولدون، عجائز يموتون، سيّارات تُكبح، نساء يغنّين، رجال يشتمون، وأبواب، وأبواب والمزيد من الأبواب.

أعبر كلّ الحيوات التي كنت قد عشتها، التي سأعيشها والتي أعيشها. أنا رجل في قطار مع امرأة، كاتب في منتصف القرن التاسع عشر في فرنسا، أنا كل الأشخاص الذين كنتهم وسأكونهم. نعبر الباب الذي أريد عبوره. واليد التي أُمسك بها تختفي.

من حولي، حشدٌ تفوح منه رائحة الجعَة والنبيذ، يقهقه ويصرخ ويقذف بالشتائم.

أصواتٌ أنثوية تناديني. أشعر بالخزي، لا أريد النظر إليهنّ، لكنّ الأصوات مصرّة. يمدحني أشخاص آخرون من بين الحشد: إذًا، كنتُ أنا المسؤول، أكنته فعلاً؟ مخلّص البلدة من الهرطقة والخطيئة! تواصلُ أصوات الفتيات مناداة اسمي.

كان جُبني كبيرًا بما يكفي ليدوم حتى نهاية حياتي. أرفع رأسي ببطء.

مرّت العربة تقريبًا، إنها مسألة ثانية أخرى، ولن أسمع شيئًا بعد. لكنّني أنظر إليهنّ الآن. رغم المذلاّت التي تعرّضن لها، يبدين ساكنات فعلاً، كما لو أنهنّ نضجن، كبرن، تزوّجن، ورُزقن بأولاد، وهنّ الآن متّجهات بهدوء إلى الموت، مصير كلّ بني البشر. كافحن متى كان لهنّ الكفاح، لكن عند مرحلةٍ ما، لا بدّ أنهنّ فهمن أنّ ذاك كان مصيرهنّ، خُطّ قبل ولادتهنّ بزمن بعيد. أمران فقط يمكن لهما أن يكشفا أسرار الحياة العظمى: المعاناة والحبّ. هنّ اخترن الاثنين.

وهذا ما رأيته في عيونهنّ: الحبّ. لقد لعبنا معًا دور الأمراء والأميرات، ووضعنا خططًا للمستقبل ككلّ الأولاد. قرّرتْ الحياة أن تباعد بيننا. اخترتُ أن أخدم وجه الله، وهنّ تبعن دربًا مختلفة.

أنا في التاسعة عشرة من العمر، أكبر قليلاً من الفتيات اللائي

يحدّقن إليّ الآن بامتنان، لأنّي تنازلتُ أخيرًا لأرفع بصري إليهنّ. حِملٌ عظيم يكدّر روحي، لكنّه حِمل مليء بالتناقضات والذنب لأنّني لم أتحلّ قط بالشجاعة لقول «لا»، وكلّه باسم حسٍّ تافهٍ من الطاعة، الذي أودّ لو أصدّق أنّه كان صحيحًا ومنطقيًا.

لا تزال الفتيات ينظرن إليّ، وتدوم تلك اللحظة أبدية. تنادي إحداهنّ اسمي من جديد. أحرّك شفتيّ بصمت لكي يفهمن هنَ فحسب:

«سامحنني».

تقول إحداهنّ: «لا حاجة. تحدّثنا إلى الأرواح، وقد أظهرت لنا ما سيجري. زمن الخوف قد ولّى، ولم يبقَ سوى زمن الأمل. أمذنبات نحن؟ يومًا ما، سيحكم علينا العالم ولن نكون نحن من يشعر بالعار. سنلتقي من جديد في المستقبل، عندما تكون حياتك وعملك مكرّسين لأولئك الذين يُساء فهمهم بشدّة اليوم. سيعلو صوتك، وسيُصغي كثيرون إليك».

العربة تتحرّك مبتعدة، وأهُمُّ بالركض إلى جانبها، رغم دفع الحرّاس لي.

«سينتصر الحبّ على الكراهية». هكذا تقول فتاة أخرى من بينهنّ، متحدّثةً بهدوء كما لو كنّا لا نزال نعدو في الغابات والأحراج في طفولتنا. وتتابع: «عندما يحين الوقت، من يُحرق اليوم، سيُبجّل. السحرة والخيميائيون سيرجعون، والإلهةُ ستكون موضع

ترحيب، وسيُحتفى بالساحرات. وكلّ هذا سيكون إجلالاً لعظمة الله. هذه هي البركة التي نحملها على رؤوسنا الآن، إلى آخر الدهر».

يلكمني حارس في معدتي، فألتوي ألمًا، وقد انقطعت أنفاسي كلّها، لكني لمّا أزل رافعًا نظري. العربة تتجاوزني الآن، ولن أتمكّن من اللحاق بها.

أدفع هلال عنّي. نحن في القطار من جديد.

تقول: «لم أستطع أن أرى بوضوح. بدا لي أنّ حشدًا يصرخ، وكان ثمّة رجلٌ بثوبٍ ديني. أعتقد أنّه كان أنت، لكنّي لستُ متأكّدة».

«لا تقلقي».

«أحصلتَ على الإجابة التي أردت؟».

أودّ أن أقول: «نعم، أخيرًا فهمت قدري»، لكنّ الدموع تخنق صوتي.

«لن تتركني وحيدة في هذه المدينة، أليس كذلك؟».

ألفّها بذراعيّ.

«بالطبع لا، لن أتركِك».

موسكو، ١ حزيران/يونيو ٢٠٠٦

تلك الليلة، لدى عودتنا إلى الفندق، يكون ياو في انتظار هلال ومعه تذكرة عودة إلى موسكو. سوف نسافر عائدين على متن الطائرة ذاتها، ومع أننا سنكون في درجتين مختلفتين. لا يستطيع ناشراي مرافقتنا إلى جلستي مع ڤلاديمير پوتين، لكن صحافياً صديقاً لي يملك الإذن بذلك.

عندما تحطّ الطائرة، أخرج وهلال من مخرجين مختلفين. أُقاد إلى غرفة خاصة، حيث في انتظاري رجلان وصديقي. أطلب الذهاب إلى الطرف الذي ينزل إليه باقي المسافرين، قائلاً إنّني أحتاج إلى توديع أحدهم. يقول أحد الرجلين إن الوقت لا يسمح بذلك، لكن صديقي يشير إلى أنّها لا تزال الثانية بعد الظهر، ولن يحدث اللقاء إلاّ مع حلول الساعة الخامسة. وحتّى وإن كان الرئيس ينتظرني في المنزل خارج موسكو، حيث يتواجد في هذا الوقت من السنة، فلن يستغرقنا بلوغه أكثر من خمسين دقيقة على الأبعد.

يقول ممازحًا: «كذلك، إن حصلت مشكلة، فسيّاراتكما مجهّزة بصافرات، أليس كذلك؟».

نتّجه إلى الطرف الآخر. أدخل إلى محلّ لبيع الزهر، وأشتري

دزّينة من الورد الأحمر. نبلغ بوّابة الواصلين، المكتظّة بأشخاص ينتظرون أصدقاء وأنسباء يصلون من أماكن بعيدة.

أصرخ: «هل من أحد هنا يفهم الإنجليزية؟».

يبدو الناس مذهولين، ولا شكّ في أنّ الرجال الثلاثة المفتولي العضلات إلى جانبي هم السبب.

«هل يتكلّم أحدٌ الإنجليزية؟».

ترتفع بضع أيادٍ. وأُريهم باقة الورد.

«ستصل قريبًا شابّة أحبّها كثيرًا. أحتاج إلى أحد عشر متطوّعًا ليُساعدني في تقدمة هذا الورد لها».

يُجانبني أحد عشر متطوّعًا على الفور. نصطفّ. تخرج هلال من الباب الأساسي، تراني، تبتسم وتتّجه نحوي. واحدٌ تلو الواحد، يُقدّم لها المتطوّعون الورد. تبدو شبه مرتبكة وشبه سعيدة. وعندما يصل دوري أخيرًا، أقدّم الوردة الثانية عشرة لها، وأحتضنها أحرّ احتضان.

تسألني، محاولةً إبقاء الوضع تحت السيطرة: «ألن تقول لي إنّك تحبّني؟».

«بلى. أحبّك كنهرٍ. لكن الآن علينا أن نتودّع».

تقول ضاحكة: «نتودّع؟ لن تتخلّص منّي بهذه السهولة».

يقول الرجلان اللذان ينتظرانني لاصطحابي إلى مقابلة الرئيس،

شيئاً بالروسيّة. يضحك صديقي الصحافي. أسأله ما الذي قالاه، لكنّ هلاله هي من يترجم لي:

«قالا إنّ عيونهم لم تقع على مشهدٍ رومانسي كهذا، في هذا المطار.

عيد القديس جاورجيوس، ٢٠١٠

ملاحظة المؤلّف

التقيتُ هلال في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، عندما دعوتها للمشاركة في مؤتمر في دير مِلك في النمسا. سافرنا معًا من هناك إلى برشلونة، ثمّ إلى پامپلونا وبورغوس. وكان أن أخبرتني في إحدى تلك المدن أنّها تركت معهد الموسيقا وتخلّت عن عزف الكمان. حاولتُ إقناعها بأنّ تفكّر ثانيةً، لكنّ أمرًا ما في داخلي قال لي إنّها، هي أيضًا، أضحت ملكة عالمها من جديد، ويلزمها أن تحكم مملكتها الخاصّة.

فيما كنتُ أضع هذا الكتاب، أرسلت لي هلال رسالتين إلكترونيتين قائلة إنّها حلمت بأنني أكتب عمّا حدث بيننا. طلبتُ إليها أن تصبر، ولم أخبرها بأمر الكتاب إلاّ عند انتهائي من تأليفه. لم تبدُ متفاجئة ولو قليلاً.

أتساءل إن كنت قد أصبتُ في التفكير بأن فوّتتُ تلك الفرصة مع هلال، سيكون لي ثلاث فرص أخرى (في النهاية، كانت ثماني فتيات سيعدمن ذلك اليوم، ولم ألتقِ سوى خمسٍ منهنّ). أشكّ الآن أنني سأعرف يومًا: من بين الثماني اللائي حُكمن بالموت، واحدة فقط أحبّتني فعلاً، وهي الفتاة التي لم أتعرّف اسمها قط.

لم أعُدْ أعمل مع لينا ويوري سميرنوف، ودار صوفيا للنشر،

لكنّي أودّ أن أتوجّه إليهم بالشكر على التجربة الفريدة التي كانت لنا في السفر عبر روسيا على متن قطار.

إنَ الصلاة التي تلتها هلال في نوفوسيبيرسك، سبق أن تناقلها أشخاص آخرون. وإذ ذكرتُ في الكتاب أنّني سبق أن سمعتها في البرازيل، فإنّني أشير إلى روح أندريه لويز، الصبي الصغير.

أخيرًا، أودّ أن أحذّر القرّاء من القيام بتمرين حلقة النور. كما سبق أن ذكرت، إنَ أيّ عودة إلى الماضي من دون معرفةِ لهذه العمليّة، قد تؤدّي إلى عواقب مأساويّة مؤثّرة عاطفيًا.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مجموعـــات

مؤلفات باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة
- الشيطان والآنسة بريم
- الخيميائي
- على نهر بيدرا هُناك جلست فبكيت
- حاجّ كومبوستيلا
- الجبل الخامس
- ڤيرونيكا تقرر أن تموت
- الزَّهير
- ساحرة بورتوبيللو
- الرابح يبقى وحيداً
- أوراق محارب الضوء
- مكتوب
- بريدا
- أِلف

ليلى عسيران

- الاستراحة
- الحوار الأخرس
- المدينة الفارغة
- جسر الحجر
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً

د. نعمة الله ابراهيم

- فروخ ناز (ألف يوم ويوم)
- السير الشعبية العربية

د. أحمد حاطوم

- المـاجلات
- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتت النحاة
- كتاب الإعراب
- نقوش

شكري نصرالله

- كنوز العرب
- قالوا وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم
- الثالث
- السنوات الطيبة

منشورات المجلس القطري للثقافة والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها - هارولد هارمن
- فلسطين في الشعر الاسباني المعاصر - د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ - نافتج سارنا



- لا أحد يفهم ما يدور الآن - روحي طعمة
- الأيام والناس - برهان الدجاني
- علم الإبداع - د. مروان فارس
- آن الأوان - طلال حيدر
- سرّ الزمان - طلال حيدر
- انظر إليك - مرام المصري
- بائع الفستق/رواية - سمير عطا الله
- اللباس والزينة - أ. بينول
- أُخذَةُ كِشْ - ألبير نقاش
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية - د. محمد أبو علي
- إميل بجاني، كاتب في الغربال - بقلم شخصيات عدة
- طه حسين، من الشاطئ الآخر - عبد الرشيد محمودي
- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية - منير عبود



□ عشرون روائياً عالمياً يتحدثون – عصام محفوظ
□ مختارات من الشعراء الرواد في لبنان – عصام محفوظ
□ قصة يوطوبيا – قصة مشربية – حسن فتحي
□ جدلية الحب والموت عند جبران خليل جبران – د. بطرس حبيب
□ الحب والتصوف عند العرب – د. عادل كامل الآلوسي
□ سنوات ضائعة من حياة المتنبي – هادي محيي الخفاجي
□ الطربوش –روبير سوليه
□ مهما قلت لا تقل – د. نبيل سليمان
□ امرأة تبحث عن وطن – ماريا المعلوف
□ خطوات أنثى – رُدينة الفيلالي
□ أثواب الحزن – هدى السراري
□ وراء الأفق – ابراهيم أبو زيد
□ دريد لحام/مشوار العمر – د. فاروق الجمال
□ بساطٌ من الزهر الأحمر – نيلوفر بازيرا
□ إمرأة. . . وظلّان – خلود عبد الله الخميس
□ اعترافات غايشا – آرثر غولدن
□ خريف من ذهب – جوزيف طوبيّا
□ عودة النبض – نوال نجم
□ مغامرة حب في بلاد ممزقة – جين ساسون
□ سموّ الأميرة – جين ساسون
□ يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى – غسّان علم الدين
□ طلاق الحاكم – منى دايخ
□ حقيبة حذر – عاطف البلوي
□ ألف عام من الصلاة – ييون لي
□ حبٌّ محرَّم – يوكيو ميشيما
□ بيل كانتو – آن باتشيت
□ إيزيس في القدس – منى دايخ
□ عشّاق أمي – هاجر عبدالسلام
□ وراء الأفق – إبراهيم أبو زيد
□ الخامدون – ربى عنبتاوي

□ هو وهي في السعودية – هتّان بن محمد الطاسجي
□ نسرين ستموت الليلة – رواية بوليسية – خديجة نمري
□ حبيبتي الحقيقة – أحمد طقش
□ الوردة الضائعة – رواية سردار أوزكان
□ أرملة مهندس – صالح ابن عايض
□ بومبي – روبيرت هاريس
□ مصائر الغبار – راوي حاج
□ الصرصار – راوي حاج
□ ويسألونك عن الذاكرة – د. عبد السلام فزازي
□ فتاة من بلغراد – لويس دو بيرنيير
□ أصل الغواية – قصص قصيرة – منتهى العزة
□ دماء الأزهار – أنيتا أميرسفاني
□ باب للخروج – طارق محمود فراج
□ امرأة للشتاء المقبل – روحي طعمة
□ الحريم اللغوي – يسرى مُقدّم
□ الخجل والكرامة – داغ سولستاد
□ بوح أنثوي – منى دايخ
□ هل يفرّقنا الدين؟ – حسن السيد أسعد فضل الله
□ أبعد من الريف – شعراء خالدون في عيون الألف الثالث – لامع الحر
□ أحمد فؤاد نجم – د. كمال عبد الملك
□ متالية فرنسية – إيرين نِميروفسكي
□ أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو – بكادي محمد
□ «الأصوليّ» المتردِّد – محسن حامد
□ مولود وثلاثة آباء – نائل ماجد مجذوب
□ وصية شاعرة – ناهد عيد
□ صيف الجرّاح – محمد طعّان
□ نهاية جيل – محمد سعيد طالب
□ بنات سموّ الأميرة – جين ساسون
□ ما يفعله الغريب في الليل – محمد دياب
□ رحمة – توني موريسون
□ الغشوة – راضي د. شحادة



باولو كويلو

قبل أن يصبح باولو كويلو، المولود سنة ١٩٤٧ في ريو دي جانيرو، كاتباً شعبيّاً معروفاً، كان كاتباً مسرحياً، ومدير مسرح، وإنساناً هيبياً، ومؤلّف أغانٍ شعبية لأشهر نجوم البرازيل.

سنة ١٩٨٦، سلك طريق مار يعقوب، المزار الإسباني القديم، ثم وصف تجربته في كتاب أسماه «حاجّ كومبوستيلا»، ونشره سنة ١٩٨٧. وفي السنة التالية، صدر كتابه الثاني «الخيميائي»، فغدا واحداً من أكثر الكتّاب المعاصرين قرّاءً، وظاهرة حقيقية في عالم النشر، وحاز المرتبة الأولى بين تسع وعشرين دولة. وتوالت، من ثمَّ، سلسلة مؤلفاته تحصد المزيد من الشهرة والانتشار؛ منها: الڤالكيرين، على نهر پيبدرا هناك جلست فبكيت، الجبل الخامس، ڤيرونيكا تقرّر أن تموت، الشيطان والآنسة بريم، إحدى عشرة دقيقة، الزهير، ساحرة پورتوبيللو، الرابح يبقى وحيداً، بريدا، مكتوب، أوراق محارب الضوء.

نشرت مؤلفاته في أكثر من ١٦٨ دولة، وترجمت إلى ٧٣ لغة، وبيع منها أكثر من ١٣٥ مليون نسخة. نال العديد من الأوسمة والتقديرات و٣٣ جائزة عالمية، منها مؤخراً شهادة غينيس للعام ٢٠٠٩ كون أعماله ترجمت إلى أكبر عدد من اللغات بين جميع كتّاب العالم. باولو كويلو عضو في الأكاديمية البرازيلية للآداب منذ عام ٢٠٠٢. يكتب عموداً أسبوعياً يتم نشره في الصحف والمجلات في جميع أنحاء العالم. وقد عُيّن سفير التنوّع الثقافي أمام الأونيسكو ومستشاراً خاصاً للحوار بين الثقافات والتقارب الروحي. وفي العام ٢٠٠٧ سُمي مبعوث الأمم المتحدة للسلام.

- Elle- أفضل كاتب عالمي للعام ٢٠٠٨
- اطلاق اسم باولو كويلو على طريق سانتياغو عام ٢٠٠٨
- امتياز شرف من مدينة أودانس
- (Hans Christian Andersen Award) (Denmark 2007)
- "Las Pergolas Prize 2006" by the Association of Mexican Booksellers (ALMAC) (Mexico 2006)
- "Cruz do Mérito do Empreendedor Juscelino Kubitschek" (Brazil 2006)
- "Wilbur Award", presented by the Religion Communicators Council (USA 2006)
- جائزة Kiklop Literary Award على رواية الزهير ضمن فئة الكتب الأكثر مبيعاً (Croatia 2006)
- DirectGroup International Author Award (Germany 2005)
- "Goldene Feder Award" (Germany 2005)
- "The Budapest Prize" (Hungary 2005)
- "Order of Honor of Ukraine" (Ukraine 2004)
- جائزة "Order of St. Sophia" للمساهمة في احياء الثقافة والعلم (Ukraine 2004)
- جائزة "Nielsen Gold Book Award" على رواية الخيميائي (UK 2004)
- جائزة "Ex Libris Award" على رواية احدى عشرة دقيقة (Serbia 2004)
- جائزة "Golden Bestseller Prize" من صحيفة "Večernje Novosti" (Serbia 2004)
- جائزة "Best Fiction Corine International Award 2002" على رواية الخيميائي (Germany 2002)
- جائزة "Club of Budapest Planetary Arts Award 2002" تقديراً لأعماله الأدبية (Germany 2002)
- Brasilian Academy of Letters (2002)
- "Bambi 2001 Award" (Germany 2001)
- "XXIII Premio Internazionale Fregene" (Italy 2001)
- "Crystal Mirror Award" (Poland 2000)
- Rio Branco Order Brazil (2000)
- "Chevalier de l'Ordre National de la Légion d'Honneur" (France 1999)
- "Crystal Award" World Economic Forum (1999)
- "Golden Medal of Galicia" (Spain 1999)
- نهائيات جائزة "International IMPAC Literary Award" (Ireland 1997 and 2000)
- "Comendador de Ordem do Rio Branco" (Brazil 1998)
- "Golden Book" (Yugoslavia 1995, 1996, 1997, 1998,1999, 2000 and 2004)
- "Super Grinzane Cavour Book Award" (Italy 1996)
- "Flaiano International Award" (Italy 1996)
- "Knight of Arts and Letters" (France 1996)
- "Grand Prix Litteraire Elle" (France 1995)

ألف

اقلب حياتك. أعد كتابة مصيرك.

في روايته الأكثر دخولاً إلى عمق النفس البشريَة حتى الآن، يعود پاولو كويلو، المؤلف الأكثر مبيعاً عالمياً، برحلة رائعة لمزيد من اكتشاف الذات. في الوقت الذي يسعى فيه إلى طريق للتجدد والنمو الروحي، يقرر أن يبدأ مجدداً: ليسافر، ليختبر، وليعاود التواصل مع الناس والطبيعة.

ينطلق إلى أفريقيا، ثم إلى أوروبا وآسيا عبر السكك الحديدية العابرة لسيبيريا، بادياً رحلة لإحياء طاقته وعاطفته. ومع ذلك، لم يتوقع قط أن يلتقي عازفة الكمان الشابَة الموهوبة هلال. وهي امرأة أحبَها باولو منذ خمسمئة سنة قبل الآن، وهي المرأة التي خانها في عمل جبانٍ منعه منذ ذلك الوقت إلى الآن من العثور على السعادة الحقيقية في هذه الحياة. سيبدآن معًا رحلة صوفية عبر الزمن والأمكنة، ويسافران في طريق يُعلِم المحبة والمغفرة والشجاعة، للتغلب على تحديات الحياة التي لا مفرَ منها.

في هذه الرواية سعيٌ إلى الحكمة، وإدراكٌ للواقعَين المرئي واللامرئي، الصراع الداخلي الطويل، الواقع السحري المؤقت، الشك بجانبيه السلبي والإيجابي، السعادة من منظور آخر. يقع كويلو على التراث الأدبي والفكري والفلسفي لمختلف الشعوب.

رواية «ألف» جميلة وملهمة، تدعونا إلى التأمل في معنى رحلتنا الشخصية: هل نحن حيث نريد أن نكون، ونفعل ما نريد أن نفعل؟

الروايات تُقرأ عادة. «ألف» تُعاش.

«كالشخصية الرئيسية في «الخيميائي»، الرواية الأحبَ إلى قلبه، يواجه پاولو شخصيًا أزمة إيمان خطيرة في روايته الجديدة «ألف»». - **Knopf**

«عندما تصل إلى نهاية الرواية وتفكر بانعكاسها عليك، تدرك أن المكان العظيم الذي يحتوي على كافة الأرواح والعوالم هو ليس فقط في صفحات هذه الرواية أو في عنوانها، بل في كل مكان حولك. في تعبير أدبي، إن رواية پاولو كويلو هي «ألف» بحدّ ذاتها». - **بيلار أوبون**

ISBN 978-9953-88-613-8



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥: - بيروت - لبنان
تلفون: ٩٦١ ١ ٣٥٠٧٢٢ +
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١ ١ ٣٥٣٠٠٠ +

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر